رواية

هاروكي موراكامي

سبوتنيك الحبيبة

ترجمة: صلاح صلاح



المركز الثقافي العربي

الكتاب
سبوتنيك الحبيبة
تأليف
هاروكي موراكامي
ترجمة
صلاح صلاح
الطبعة
الأولى، 2007
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-250-X

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 ـ 2307651
فاكس: 2305726 ـ 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

العنوان الأصلي للرواية:
Haruki Murakami
Sputnik Sweetheart

هاروكي موراكامي

سبوتنيك الحبيبة

رواية

ترجمة: صلاح صلاح

سبوتنيك

في 4 أكتوبر/ تشرين الأول 1957، أطلق الاتحاد السوفيتي أول مركبة فضائية، هي «سبوتنيك واحد»، من مركز بيكانور الفضائي في جمهورية كازاخستان. كان قطر سبوتنيك 58 سم وتزن 83,6 كلغم. دارت حول الأرض في 96 دقيقة و 12 ثانية. وفي 3 نوفمبر/ تشرين الثاني من العام نفسه، أُطلقت سبوتنيك 2 بنجاح وعلى متنها لايكا، الكلبة التي أصبحت أول مخلوق حي يغادر غلاف الأرض الجوي، لكن المركبة لم تعد أبداً، وقضت لايكا قرباناً للبحث البيولوجي في الفضاء.

من «الكامل في وقائع تاريخ العالم» (منشورات كودانشا)

1

في ربيع عامها الثاني والعشرين، أحبت سوماير للمرة الأولى في حياتها. كان حباً عميقاً، إعصاراً حقيقياً عصف عبر الحقول - مسوياً كل شيء في طريقه بالأرض، ملقياً بها عالياً في الهواء. مزقها إرباً وحطّمها قطعاً. لم تخمد قوة الإعصار ثانية أثناء مروره العنيف بالمحيط، دمر معبد أنجكور وأحاله ركاماً، أحرق دغلاً هندياً، النمور وكل شيء، تحول إلى عاصفة صحراء رملية فارسية، وطمر قلعة غريبة تحت بحر من الرمال. باختصار، حب بمقاسات بارزة حقاً. كان من أحبته سوماير أكبر منها بسبع عشرة سنة. متزوج. ولعلّ من واجبي أن أضيف هنا أنّ مَن أحبّته سوماير كان امرأة. من هنا كانت البداية والنهاية، إلى حد ما.

كانت سومايرِ، التي تعني «بنفسج» باليابانية، تكافح لأن تصبح كاتبة، ومهما قدمت الحياة لها من خيارات كانت تريد أن تصبح كاتبة ولا شيء آخر. قرار ثابت كصخرة جبل

طارق، لا يمكن لشيء أن يحول بينها وبين إيمانها بالأدب.

بعد تخرّجها من مدرسة ثانوية حكومية في مقاطعة كاناجاوا، التحقت بالقسم الأدبي في كلية خاصة صغيرة في طوكيو. وجدت الكلية مكاناً عديم الصلة بالحياة، تعوزه الحماسة ويفتقر إلى الروح. نفرت منها ورأت أن زملاءها من الطلاب (أخشى أنني أحدهم) مملّون ونوعيات من الدرجة الثانية. لذا ليس من المستغرب أن تحزم أمرها بكل بساطة وتغادر في سنتها الأولى. توصلت إلى قناعة أن بقاءها هناك مضيعة للوقت. أعتقد أن هذا تصرف سليم، لكن إذا سمح لي بتعميم غير مبتكر، أليس هناك مكان أيضاً للأشياء التافهة في هذا العالم البعيد عن الكمال؟ إذا تم التخلص من كل الأشياء التافهة في الحياة غير المثالية، قد تفقد الحياة حتى عدم كمالها.

كانت سوماير رومانسية ميؤوساً منها، متمسكة بأنماط معيشتها - بريئة في طرق حياتها، إذا أردنا وصفها بشكل لطيف. حين تشرع في الحديث لا تتوقف، لكن إذا كانت مع شخص لا تنسجم معه - أي بعبارة أخرى، معظم سكان الأرض - لا تفتح فمها إلا في ما ندر. تدخن كثيراً ويمكن أن تراهن أنها تضيّع بطاقتها كلما ركبت في القطار. تستغرق في أفكارها أحياناً فتنسى تناول الطعام. كانت نحيلة مثل أحد

أيتام الحرب في الأفلام الإيطالية - كعصا بعينين. أود أن أريكم صورة لها غير أني لا أملك واحدة. كانت تكره أن تلتقط صوراً لها، ولا ترغب في ترك «صورة الفنان في شباب(ها)»(*) للأجيال القادمة. إذا توفرت صورة لسومايز آنذاك، أعلم أنها ستكون سجلاً قيِّماً حول كيف لبعض الناس أن يكونوا متفردين.

أخلط ترتيب الأحداث. المرأة التي أحبتها سومايز كان اسمها ميو. على الأقل هكذا كانت تسمى من قبل الجميع، ولا أعرف اسمها الحقيقي، ما أدّى إلى حدوث مشاكل في أوقات لاحقة، لكني أستبق الأحداث مرة أخرى. كانت ميو كورية الجنسية، وإن لم تكن تعرف كلمة من اللغة الكورية حتى قررت دراستها عندما كانت في منتصف العشرينات. ولدت ونشأت في اليابان ودرست في أكاديمية موسيقية في فرنسا، لذا علاوة على اليابانية، كانت تتحدث الفرنسية والإنجليزية بطلاقة. كانت حسنة الهندام أنيقة دوماً وزينتها باهظة الثمن ومتواضعة وتقود عربة جاكوار زرقاء نيلية باثنتي عشرة أسطوانة.

تحدثت سومايز في أول لقاء لها مع ميو عن روايات جاك

(*) ثمة إضافة تأنيث إلى Portrait of the Artist s a Young Man رواية جيمس جويس، فأصبحت (Wo)man - المترجم.

كيرواك. كانت سومايرِ مغرمة بكيرواك إلى حد الهوس. وكل شهر يكون لديها معبود أدبي، حدث أن كان في ذلك الشهر كيرواك الذي لم يعد شائعاً كموضة. كانت تحمل نسخة بالية من رواية «على الطريق» أو «الرحالة الوحيد» في جيب معطفها وتتصفح الكتاب كلما سنحت لها الفرصة، وتضع، كلما صادفت بعض السطور التي تعجبها، خطاً بقلم رصاص تحتها لحفظها كما لو كانت من كتاب مقدس. كانت أسطرها المفضلة من أحد فصول «الرحالة الوحيد». حيث يصف كيرواك كيف قضى ثلاثة شهور وحيداً في كوخ على قمة جبل شاهق كمراقب للحرائق.

أحبت سومايرِ هذه الأسطر بشكل خاص:

«لا ينبغي للمرء أن يعيش دون أن يمر بالتجربة الصحية للعيش في البراري حتى لو في وحدة مملة، حيث يجد نفسه معتمداً على نفسه فقط، وبذلك يتعرف على قوته الخفية والحقيقيّة.»

قالت: «ألا تحب ذلك؟ أن تقف كل يوم على قمة جبل وتدور 360 درجة لترى إن كانت هناك حرائق؟ وهكذا ينتهي عملك في ذلك النهار. في ما تبقى من اليوم يمكنك أن تقرأ

وتكتب وتفعل كل ما تريد. في الليل تحوم الدببة الضخمة حول كوخك. هذه هي الحياة! . مقارنة ذلك بدراسة الأدب في الكلية يشبه قضم الطرف المر من خيارة.»

قلت: «حسناً، لكن المشكلة أنه عليك الهبوط من ذلك الجبل يوماً.»

كالعادة لم تزعجها آرائي العملية الرتيبة المملة.

أرادت سوماير أن تكون كشخصية في إحدى روايات كيرواك - حروناً، هادئة ومنغمسة في الملذات. تقف ويداها عميقاً داخل جيوب معطفها. شعرها غير مصفف، تحدق دون تركيز في السماء عبر نظارة ديزي جيليسبي ذات الإطار البلاستيكي الأسود، التي تضعها بالرغم من أن بصرها 20/ 20. كانت ترتدي دوماً معطفاً سميكاً واسعاً جداً اشترته من محل ملابس مستعملة وحذاء ضخماً وخشناً. ولو كان باستطاعتها إطلاق لحية، فأنا متأكد أنها كانت ستفعل.

لم تكن سوماير جميلة حقاً. وجنتاها غائرتان وفمها واسع إلى حد ما. أنفها يميل إلى الصغر ومرتفع، ووجهها معبّر وتتحلى بروح فكاهة، بالرغم من عدم ضحكها بصوت مرتفع إلا في ما ندر. كانت قصيرة وتتكلم، حتى عندما تكون في مزاج جيد، كما لو أنها على بعد خطوة من الدخول في شجار. لم أشاهدها يوماً وضعت أحمر شفاه أو رسمت

جفونها بقلم، وليس عندي شك أنها لم تعرف أن حمالات الصدر تباع بقياسات مختلفة. بالرغم من ذلك كانت سومابر تتصف بشيء خاص، شيء يجذب الناس إليها. تحديد ذلك الشيء ليس سهلاً، لكن حين تحدق في عينيها، يمكنك دوماً العثور عليه منعكساً في أعماقها.

يمكنني القول أيضاً إنني كنت أحب سومابر، انجذبت إليها من المرة الأولى التي تبادلنا فيها الحديث معاً، ولم يعد هناك مجال للتراجع. بقيت لمدة طويلة الشيء الوحيد الذي بإمكاني التفكير فيه. حاولت أن أخبرها عن مشاعري، لكن المشاعر والكلمات المناسبة لم يمكنهما التلاقي. لعل ذلك كان أفضل، لو تمكنت من إبلاغها بمشاعري، ربما كانت ستسخر مني.

في الوقت الذي كُنْتُ وسومابر صديقين، خرجت مع فتاتين أو ثلاث. لا يعني ذلك أني لا أذكر الرقم بالضبط، اثنتان، ثلاث - يعتمد ذلك على طريقة عدك. أضف إلى ذلك الفتيات اللاتي نمت معهن، تصبح اللائحة أطول قليلاً. على كل حال، حين كنت أمارس الحب مع هؤلاء الفتيات الأخريات كنت أفكر في سومابر. أو على الأقل كان التفكير فيها يمس زاوية من ذهني بشكل عابر. أتصور أني أحضنها. أعلم أنّ في ذلك شيئاً من النذالة، ولكني لم أتمالك نفسي.

دعني أعود إلى كيف تقابلت سومابر مع ميو.

كانت ميو قد سمعت بجاك كيرواك ولديها فكرة غائمة عن كونه روائياً من نوع ما. أي نوع من الروائيين، لم يكن بوسعها أن تذكر. «كيرواك... ألم يكن سبوتنيك؟»

لم تستطع سوماير فهم ما عنت، حرّكت السكين والشوكة بشكل متوازٍ في الهواء وفكرت «سبوتنيك؟ تعني أول مركبة فضائية أطلقها الاتحاد السوفيتي في الخمسينات؟ جاك كيرواك كان روائياً أمريكياً. أعتقد أنهما يتوافقان في الجيل...»

«أليس هكذا كانوا يسمّون الكتّاب في ذلك الزمان؟» سألت ميو. رسمت دائرة على المنضدة برأس إصبعها كما لو كانت تنقّب في جرّة خاصة مليئة بالذكريات.

«سبوتنيك...؟»

«اسم حركة أدبية. كما تعلمين - كيف يصنفون الكتاب في مدارس متعددة. مثل شيجا نأويا في مدرسة التأديب البيضاء.»

أخيراً اتضح الأمر لسوماير. «بيتنيك!»

لمست ميو زاوية فمها بخفة بمنديل المائدة. «بيتنيك - سبوتنيك. لا أستطيع البتة أن أذكر هذا النوع من الاصطلاحات. إنها مثل عودة كينمون أو معاهدة رابالو. تاريخ قديم.»

خيم عليهما صمت لطيف، مذكراً بانسياب الزمن.

سألت سوماير: «معاهدة رابالو؟»

ابتسمت ميو. ابتسامة حنين حميمة ككنز قديم أخرج من آخر دُرْج. أغمضت عينيها قليلاً بطريقة فاتنة تماماً. مدت يدها، وبأناملها الطويلة النحيلة بعثرت بلطف شعر سوماير الأشعث أصلاً. كانت إيماءة مفاجئة طبيعية لم تستطع سوماير الرد عليها إلا بابتسامة.

منذ ذلك اليوم، صار الاسم الخاص الذي أطلقته سوماير على ميو، سبوتنيك الحبيبة. أحبت وَقْع ذلك الاسم، وجعلها تفكر في لايكا، الكلبة. مركبة فضائية من صنع الإنسان تندفع سريعة بشكل متواصل من دون صوت في عتمة الفضاء الخارجي، وعينا الكلبة السوداء اللامعتان تحدقان من الكوة الصغيرة، في وحشة الفضاء اللامتناهية، والذي يمكن للايكا أن تنظر إليه؟

جرى حديث سبوتنيك في حفل زفاف ابنة عم سومايِر في فندق ممتاز في أكاساكا. لم تكن سومايِر على صلة قريبة بها، في الواقع لم تكونا على وفاق. كانت تتعذب من حضور مثل هذه المناسبات، لكن لم يكن بوسعها عدم حضور هذه الحفلة. كانت تجلس بجانب ميو. لم تتحدث ميو عن التفاصيل لكن بدا أنها كانت تدرِّس ابنة عم سومايِر عزف

البيانو - أو شيء من هذا القبيل - عندما كانت تؤدي امتحان دخول قسم الموسيقى في الجامعة. من الواضح أنها لم تكن علاقة طويلة أو حميمة، لكن ميو شعرت أن من واجبها الحضور.

في اللحظة التي لمست ميو شعر سوماير أحبتها، كما لو كانت تعبر حقلاً عندما «بوم!» ضربتها صاعقة برق على رأسها. شيء كإيحاء فني. يفسر هذا لماذا لم تكترث سومايرأن من أحبته كان امرأة.

لا أعتقد أنه كان لسومايرما يمكن أن نسمّيه عشيقاً. كان لديها بعض الأصدقاء في المدرسة الثانوية تذهب وإياهم إلى السينما والسباحة. لا يمكن أن أتصور أن أياً من هذه العلاقات كانت عميقة. كان تركيز سومايرمنصباً على أن تصبح روائية فلم تعشق أحداً. إذا كانت لها تجارب جنسية - أو ما شابه ذلك - في المدرسة الثانوية، فأنا على يقين أنها لم تكن بسبب شهوة جنسية أو الحب بل حبّاً بالاستطلاع أدبي.

أخبرتني مرة بوجه رصين: «بصراحة تامة، الرغبة الجنسية تحيرني.» كان ذلك قبل مغادرتها الكلية على ما أعتقد، وكانت قد شربت خمس كؤوس وثملة تماماً. «تعرف - كيف تحدث، وما تصرفك حيالها؟»

قلت مقدماً رأيي المعتدل المعتاد: «الرغبة الجنسية ليست شيئاً يُفهم. هي موجودة فقط.»

تأملتني برهة، كما لو كنتُ آلة تدور بواسطة مصدر طاقة لم يسمع عنه من قبل. حدقت في السقف وقد فقدت الاهتمام بالموضوع وتبدّد الحوار. لا فائدة من الكلام معه حول ذلك، لابد أنها قررت.

ولدت سوماير في شيجاساكي. كان بيتها قريباً من البحر، ونشأت مع الصوت الهادر للريح المشبعة بالرمل التي تعصف بنوافذ بيتها. كان والدها يدير عيادة أسنان في يوكوهاما. كان وسيماً للغاية، ويذكّر أنفه الجميل بجريجوري بيك في فيلم «المسحور». لم ترث سوماير ذلك الأنف الجميل، ولا أخوها أيضاً، كما قالت. وجدت من المدهش أن الجينات التي أنتجت ذلك الأنف قد اختفت. إذا دفنت إلى الأبد عميقاً في أوقيانُس السمات الجينية، فإن العالم مكان كئيب.

كان والد سوماير في منطقة يوكوهاما شخصية شبه أسطورية بالنسبة للنساء اللاتي كانت أسنانهن بحاجة إلى عناية. كان يرتدي دوماً في حجرة العمليات قبعة جراحة وقناعاً كبيراً، لذا ما كان المريض يراه منه ليس أكثر من عينين وأذنين. مع ذلك، كانت جاذبيته جلية. يخرج أنفه الرجولي الجميل من تحت القناع فتحمر وجوه الإناث خجلاً. في لحظة - ودون اعتبار إن كن يقدرن على تغطية التكاليف - يصبحن أسيرات حبه.

توفيت والدتها جراء مرض قلب لازمها منذ الولادة، في سن الحادية والثلاثين. لم تكن سوماير قد بلغت الثالثة بعد. الذكرى الوحيدة لها كانت غائمة وهي لرائحة بشرتها. بقيت صورتان لها فقط - واحدة التقطت في زفافها، وأخرى بعد ولادة سوماير مباشرة. كانت سوماير تأخذ ألبوم الصور وتحدق في الصورتين. كانت والدة سوماير - لنقل ذلك بلطف - شخصية قابلة للنسيان تماماً. شعر قصير أشعث. ملابس تجعلك تعجب بماذا كانت تفكر عندما ارتدتها، وابتسامة قلقة. لو خطت خطوة واحدة إلى الخلف، لذابت في الحائط في الحال. صممت سوماير على طبع وجه أمها في ذاكرتها، فقد تراها يوماً في أحلامها. تتصافحان وتتبادلان حديثاً لطيفاً. غير أن الأمور لم تكن بهذه البساطة. حاولت أن تتذكر وجه أمها، لكنه سرعان ما خبا. لننسَ الأحلام - لو صادفت سوماير أمها في شارع في وضح النهار، لما عرفتها.

نادراً ما تكلم والد سوماير عن زوجته الراحلة. نبدأ بالقول إنه لم يكن ثرثاراً، وفي كل مناحي الحياة لم يتكلم قط عن مشاعره كما لو كانت وباء فم أراد تجنبه. لا تذكر سوماير أنها سألت والدها يوماً عن أمها المتوفاة. باستثناء مرة، عندما كانت صغيرة، سألته لسبب ما «كيف كانت أمي؟» تذكر ذلك الحوار جيداً.

نظر والدها بعيداً وفكر لحظة قبل أن يجيب: «كانت جيدة في تذكّر الأشياء. وكان خط يدها جميلاً.»

طريقة غريبة لوصف شخص. كانت سوماير تنتظر، ودفتر ملاحظاتها مفتوح على الصفحة الأولى البيضاء كالثلج، وتتوقّع كلمات مفيدة يمكن أن تكون مصدر دفء وراحة - سَنَدٌ، محور، يساعد على دعم حياتها غير المستقرة هنا في هذا الكوكب الثالث بعيداً عن الشمس. كان على والدها أن يقول شيئاً يمكن لابنته اليافعة أن تتشبث به. غير أن والد سوماير الوسيم لم يقل هذه الكلمات. كلمات كانت بأمسّ الحاجة إليها.

تزوج والد سوماير ثانية عندما كانت في السادسة، وبعد سنتين وُلد أخوها. لم تكن أمها الجديدة جميلة أيضاً. علاوة على ذلك لم تكن ذاكرتها جيدة ولا خطها جميلاً، لكنها كانت لطيفة ومنصفة. كان ذلك من حسن حظ سوماير الصغيرة، أختها الجديدة جداً. كلا، حسن حظ ليست الكلمات الصحيحة. على أي حال لقد اختار والدها المرأة، وربما لم يكن الوالد المثالي، لكن حين يأتي الأمر لاختيار رفيقة، كان يعرف ما يفعل.

لم يهن حب زوجة والدها لها طوال سنوات البلوغ الصعبة، وعندما أعلنت سوماير أنها ستترك الكلية وتكتب الروايات، احترمت زوجة والد سوماير رغبتها، بالرغم من رأيها الخاص في المسألة. كانت دوماً تُسَرُّ لحب سوماير للقراءة وتشجعها على الاستمرار في مسعاها الأدبي.

تغلّب رأي الزوجة على والدها فقررا أن يدفعا لها

مخصصاً شهرياً ضئيلاً حتى بلوغها الثامنة والعشرين. إذا لم تستطع كسب عيشها آنذاك من الكتابة، فعليها أن تدبر نفسها. لو لم تدافع الزوجة عنها، لتركت سوماير مفلسة فاقدةً المهارات الاجتماعية الضرورية، وألقي بها في مجاهل واقع عديم الفكاهة. لا تصدر الأرض صريراً وتأوهاً أثناء دورانها حول الشمس مثلما يمكن للبشر أن يستمتعوا بوقتهم ويفرحون قليلاً.

قابلت سوماير سبوتنيك حبيبتها بعد سنتين من تركها الكلية بقليل. كانت تعيش في شقة من حجرة واحدة في كيشيجوجي بأقل قدر ممكن من الأثاث وأكبر عدد من الكتب. تستيقظ في الظهيرة وتتمشى في حديقة انوجاشيرا بعد الظهر، بحماس حاج يشق طريقه عبر التلال المقدسة. في أيام الأحد تجلس على مقعد في الحديقة تلوك الخبز وتدخن سيجارة تلو أخرى وتقرأ. في الأيام الماطرة أو الباردة تذهب إلى مقهى قديم الطراز حيث تعزف الموسيقى الكلاسيكية بأعلى ما يكون. تغوص في مقعد بالٍ وتقرأ كتبها بجدية وهي تصغي إلى سمفونيات شوبرت وأناشيد باخ. في المساء تشرب كأس بيرة وتشتري بعض الطعام الجاهز من السوبرماركت للعشاء.

بحلول الساعة الحادية عشرة ليلاً، تجلس على مقعدها، حيث يوجد دوماً ترمس قهوة ساخنة وفنجان (قدمته لها في

عيد ميلادها وعليه صورة سمكة سنانكين) وعلبة مالبورو ومنفضة سجائر زجاجية. بالطبع كان عندها كومبيوتر للكتابة، على كل مفتاح حروف، حرف واحد فقط.

تلا صمت عميق. كان ذهنها صافياً صفاء سماء ليلة شتاء، الدب الأكبر ونجمة الشمال في مكانهما يتلألآن. كانت تملك مادة كثيرة للكتابة، وقصصاً عديدة لترويها، لو أنها تجد مخرجاً صحيحاً لها، أفكاراً وآراء ساخنة قد تتدفق مثل حمم بركانية، متحجرة في تيار ثابت لأعمال خلّاقة لم ير العالم مثيلاً لها من قبل. ستُفتح عيون البشر واسعة في محاجرها للانطلاقة المفاجئة لهذه الكاتبة الشابة الواعدة ذات الموهبة النادرة. قد تظهر صورتها مبتسمة ببرودةٍ في القسم الفني في الصحيفة ويتدافع المحررون لطرق بابها.

غير أن الأمور لم تجر على هذا المنوال. كتبت سوماير بعض الأعمال ببداية، وبعضها بنهاية، لكنها لم تكتب قط شيئاً ببداية ونهاية.

*

لا يعود ذلك إلى أنها كانت تعاني عسراً في الكتابة - على العكس تماماً، كانت تكتب دون توقف كل ما يجول في ذهنها. المشكلة أنها كانت تكتب كثيراً. قد تعتقد أن كل ما عليها فعله أن تحذف بعض المقاطع الزائدة وستكون على ما يرام، غير أن الأمور لم تكن بهذه البساطة. لم تستطع أن تقرر إجمالاً ما كان ضرورياً وما لم يكن كذلك. قبل أيام

حين أعادت قراءة ما سحبته على الآلة الناسخة بدا كل سطر في غاية الأهمية. وبدا أن عليها التخلص من كل شيء. أحياناً تمزق في يأسها المخطوط كلّه وتلقي به في سلة المهملات. إذا كانت ليلة شتاء وفي الحجرة مدفأة، فسيكون هناك بعض الدفء - تصور مشهداً من أوبرا لا بوهيميا - لكن حجرة سوماير لم تفتقر إلى مدفأة فقط، بل إلى هاتف أيضاً، وحتى إلى مرآة مقبولة.

في عطلات نهاية الأسبوع، كانت سوماير تأتي إلى شقتي ومسودات رواياتها تملأ يديها - المخطوطات المحفوظة التي نجت من المذبحة. مع ذلك كانت تشكل كومة كبيرة. كانت سومايز تعرض مسوداتها على شخص واحد فقط في العالم كله. هو أنا.

في الكلية كنت أسبقها سنتين ومواد دراستنا مختلفة، لذا لم تكن هناك فرصة كبيرة للقاء. نتقابل بالصدفة. في أحد أيام الاثنين من شهر مايو/أيار، عقب سلسلة من العطل، كنت في موقف حافلة أمام البوابة الرئيسة للكلية واقفاً أقرأ رواية لبول نيزان وجدتها في محل لبيع الكتب المستعملة. مالت فتاة قصيرة تقف بجانبي، ألقت نظرة على الكتاب وسألتني «لماذا نيزان من بين كل المؤلفين؟». بدت كأنها تريد الشروع في شجار، كما لو أنها تريد ركل شيء وإطاحته في الهواء، لكنها افتقرت إلى مبرّر، فاختارت ما اخترته للقراءة هدفاً للهجوم.

كنت وسوماير متشابهين. التهام الكتب بالنسبة لنا طبيعي كالتنفس. نشرع في القراءة كلما جلسنا في ركن هادئ في لحظة فراغ، ونقلب الصفحات صفحة تلو أخرى دون توقف. روايات يابانية، روايات أجنبية، كتب جديدة، كلاسيكية، طليعية وحتى أفضل الكتب مبيعاً - ما دام هناك حافز فكري في الكتاب كنا نقرأه. نرتاد المكتبات ونقضي الأيام كلها نتصفح الكتب في كاندا، مكان بيع الكتب المستعملة في طوكيو. لم أقابل شخصاً يقرأ بنهم وعمق وبكثرة مثل سوماير، وأنا على يقين أنها تفكر فيَّ بالمثل.

تخرجت في الوقت الذي تركت فيه سوماير الكلية تقريباً، وبعد ذلك راحت تتردد على شقتي مرتين أو ثلاثاً في الشهر. كنت أذهب أحياناً إلى حجرتها، التي يصعب حشر اثنين فيها، وفي معظم الأوقات ينتهي بنا الأمر في شقتي. نتكلم عن الروايات التي قرأناها ونتبادل الكتب. كنت أطهو العشاء ولا مانع عندي من ذلك، لكن سوماير كانت من النوع الذي يفضل الجوع على الطبخ. كانت تشكرني بجلب هدايا لي من دخل عملها الجزئي. عملت مرة في مخزن شركة أدوية، فجلبت لي ستين واقياً مطاطياً، ربما ما زالت هناك في أحد الأدراج.

لم تكن الروايات - أو مقاطع الروايات - التي كتبتها سوماير سيئة كما تعتقد. صحيح أن أسلوبها أحياناً يشبه قطعاً مختلفة من القماش الذي تخيطه مجموعة من السيدات

العجائز العنيدات لصنع غطاء، لكن لكل منهن ذوقها الخاص وشكواها، ويعملن بصمت مروع. أضف إلى ذلك أحياناً شخصيتها المتسمة بالانقباض، فغالباً ما تخرج الأمور عن السيطرة. كأن هذا ليس كافياً، فأصرت سومايز على الكتابة بالأسلوب الثقيل لرواية القرن التاسع عشر الشاملة، حقيبة سفر مليئة بكل ما هو ممكن للتعبير عن الروح ومصير الإنسان.

أما وقد قلت ذلك، فإن كتابة سومايز تتحلى بطلاوة راقية، في محاولتها تصوير ما هو مهم بالنسبة لها بأمانة. في الجانب الإيجابي، لم تحاول أن تقلد أسلوب شخص آخر، ولم تحاول تركيز كل شيء في قطع صغيرة نفيسة فطنة. هذا أكثر ما أثار إعجابي في كتاباتها. لم يكن من المناسب تشذيب القوة المباشرة في كتاباتها حتى يمكن أن تتسم بالمسرة والراحة. لم يكن هناك حاجة إلى التسرع، إذ إن أمامها وقتاً طويلاً للتحولات. وكما يقول المثل «ما يرعى ببطء، ينمو جيداً.»

قالت: «رأسي مثل حظيرة سخيفة مليئة بأشياء أريد الكتابة عنها. صور، مشاهد، نتف كلمات... في ذهني كلها متوهجة، كلها مفعمة بالحياة. اكتبي! تصيح بي، ستولد قصة رائعة، يمكنني الإحساس بذلك. ستنقلني إلى مكان جديد جداً. المشكلة، ما إن أجلس خلف مكتبي وأضعها

على الورق حتى أدرك أن هناك شيئاً ينقصها. لا تتبلور - لا بلورات بل مجرد فقاعات. ولا أنتقل إلى أي مكان آخر».

متجهمة، أخذت سومايز حجرها ال 250 وألقت به في البحيرة الصغيرة.

«لعلي أفتقر إلى شيء ما. لشيء ينبغي أن أملكه لأصبح روائية.»

خيّم صمت عميق. بدا أنها تطلب رأيي الصريح. بعد برهة شرعتُ في الحديث: «منذ زمن بعيد في الصين، كانت هناك مدن محاطة بأسوار عالية، وبوابات ضخمة عظيمة. لم تكن البوابات مجرد أبواب دخول وخروج. كانت لها أهمية أعظم. اعتقد الناس أن روح المدينة تكمن في هذه البوابات، أو على الأقل ينبغي أن تسكن فيها. على غرار أوروبا في القرون الوسطى، حيث اعتقد الناس أن قلب المدينة يكمن في الكاتدرائية والساحة المركزية. يفسر هذا بقاء بوابات رائعة في الصين حتى هذه الأيام. هل تعرفين كيف شيد الصينيون هذه البوابات؟»

أجابت سومايز: «لا، إطلاقاً.»

«كان الناس يأخذون عربات إلى مواقع المعارك القديمة ويجمعون العظام البيضاء المدفونة هناك أو المنتشرة في الجوار. الصين بلد قديم - أرض معارك قديمة عديدة - لذا لم يبحثوا قط في مكان بعيد. كانوا يبنون بوابة ضخمة على

مدخل المدينة، ويضعون العظام في الداخل. كانوا يأملون بإحياء ذكرى الجنود الميتين. بهذه الطريقة يستمرون في حماية مدينتهم. هناك المزيد، عندما ينتهون من بناء البوابة، كانوا يجلبون عدداً من الكلاب، يذبحونها ويرشون دمها على البوابة. بمزج الدم الجديد مع العظام الجافة يمكن لأرواح الموتى أن تُبعث سحرياً. على الأقل بحسب معتقدهم.»

انتظرتني سوماير لأن أكمل.

«كتابة الروايات تشبه هذا. تجمع العظام وتبني بوابة، لكن مهما كانت البوابة رائعة، فإن ذلك لا يجعلها رواية حية ومختلجة الأنفاس. القصة ليست شيئاً من هذا العالم. تتطلب القصة نوعاً من التعميد السحري لربط هذا العالم بالعالم الآخر.»

«إذاً ما تقوله هو أن أعمل وحدي وأجد كلبي؟»

أومأت برأسي.

«وأُريق دماء جديدة؟»

عضت سوماير شفتها قليلاً متفكّرة. ألقت بحجر بائس آخر في البحيرة الصغيرة. «لا أريد أن أقتل حيواناً إذا استطعت.»

قلت: «هذا مجاز. لا يتوجب عليك قتل أي شيء.»

كنا نجلس كالعادة جنباً إلى جنب في حديقة أنوجاشيرا

على مقعدها المفضل والبحيرة الصغيرة ممتدة أمامنا. يوم بلا رياح والأوراق ملقاة حيث سقطت وملتصقة بصفحة الماء. كان بإمكاني شم رائحة نار مضرمة في الهواء الطلق في البعيد، والجو يعبق برائحة نهاية الخريف والأصوات البعيدة واضحة بشكل مؤلم.

قلت: «ما تحتاجين إليه هو الوقت والتجربة.»

استغرقت في التفكير محدقة في السماء وقالت: «الوقت والتجربة، ليس هناك الكثير مما يمكنك فعله إزاء الوقت - إذ إنه يستمر في المضي. لكن التجربة؟ لا تحدثني عنها. لست فخورة بذلك لكني لا أملك أي رغبة جنسية. وأي نوع من التجربة يمكن لكاتبة أن تملك إذا لم تشعر بالرغبة؟ ذلك مثل رئيس طهاة من دون شهية.»

قلت: «لا أدري أين ذهبت رغبتك الجنسية؟ لعلها مختفية في مكان ما، أو ربما ذهبت في رحلة وغفلت عن أن تؤوب. غير أن الحب دوماً شيء جنوني، يمكن أن يظهر فجأة ويستحوذ عليك. من يدري، يمكن أن يحدث غداً.»

حولت سوماير نظرتها من السماء صوبي وقالت:

«مثل إعصار؟»

«يمكنك أن تقولي ذلك.»

فكَّرَت في ذلك ثم سألت: «هل رأيت إعصاراً حقيقياً؟»

أجبت «كلا» من حسن الحظ أن طوكيو ليست ممر إعصار حقيقي.

بعد نصف سنة تقريباً، كما توقعت، فجأة وبشكل مناف للطبيعة، استحوذ حب كإعصار على سوماير، لامرأة تكبرها بـ 17 سنة. سبوتنيك حبيبة، خاصة بها.

وسومابر وميو جالستين معاً في حفل الزفاف فعلتا ما يفعله الجميع في العالم في مثل هذه المواقف، أعني قدمت كل منهما نفسها للأخرى. كانت سومابر تكره اسمها وحاولت إخفاءه ما استطاعت. لكن حين يسألك شخص عن اسمك فإن الشيء المؤدب الوحيد الذي تفعله هو أن تجيبه. حسب رواية والدها، اختارت أمها اسم سومابر من أغنية أحبتها لموزارت، فقررت قبل ذلك بوقت طويل إن أنجبت بنتاً أن تسميها سومابر. على رف في حجرة المعيشة في بيتهم كانت هناك أسطوانة لأغاني موزارت، التي كانت أمها تسمعها عندما كانت صغيرة بلا ريب. كانت سومابر تضع الأسطوانة الثقيلة على جهاز التشغيل بحرص وتستمع إلى الأغنية مراراً وتكراراً. كانت إليزابيث شوارزكوبف المغنية وولتر جيسيكنج عازف البيانو. لم تفهم سومابر الكلمات، لكن من فكرة الموضوع الرئيسة الجميلة شعرت أن الأغنية كانت تسبيح شكر للبنفسج الجميل المزهر في الحقول. وأحبت سومابر هذه الصورة.

صادفت في المدرسة الإعدادية ترجمة يابانية للأغنية في

كتاب الأدب فصدمت. كانت تروي قصة ابنة راعٍ قاسي القلب تطأ زهرة بنفسج صغيرة سيئة الحظ في حقل. لم تلاحظ حتى أنها سوت الزهرة بالأرض. اقتبست الأغنية من قصيدة لجوته ولم تجد سومايرِ شيئاً فيها، ولا حتى درساً يمكن أن تتعلمه.

قالت سوماير عابسة: «كيف يمكن لأمي أن تسمّيني على اسم هذه الأغنية المروعة؟»

وضعت ميو زوايا المنشفة على شفتها، ابتسمت بحياد ونظرت إلى سوماير. كانت عينا ميو سوداوين كالفحم، مزيج من عدة ألوان، صافية وغير غائمة.

«هل تعتقدين أن الأغنية كانت جميلة؟»

«نعم، الأغنية نفسها جميلة.»

«إذا كانت الموسيقى جميلة، أعتقد أن هذا كافٍ. على أي حال، لا يمكن لكل شيء في هذا الوجود أن يكون جميلاً، أليس كذلك؟ لا بد أن أمك أحبت هذه الأغنية كثيراً، فلم تكترث للكلمات. علاوة على ذلك، إذا داومتِ على العبوس هكذا فستصيبك تجاعيد دائمة.»

سمحت سوماير لعبوسها بالراحة.

«لعلك محقة. لقد شعرت بالإحباط فقط. أعني الشيء الوحيد الملموس الذي تركته أمي لي كان اسمي، غيري طبعاً.»

«حسناً، أعتقد أن سوماير اسم جميل. أحبه كثيراً» قالت ميو وأدارت رأسها قليلاً، كما لو أنها تريد مشاهدة أشياء من زاوية أخرى. «بالمناسبة هل والدك موجود هنا في الحفل؟»

نظرت سوماير حولها. كانت القاعة ضخمة، لكن والدها كان طويلاً، فحددت مكانه بسهولة. كان يجلس على بعد طاولتين منها، يبدو جانب وجهه وهو يتحدث إلى رجل قصير متقدم في السن يرتدي معطفاً صباحياً. كانت ابتسامته دافئة وتبعث على الثقة ويمكنها إذابة نهر جليد. تحت ضوء الثريا كان أنفه الجميل يرتفع بخفة مثل حجر ركوك بارز مفرط في الزخرفة، حتى سوماير المعتادة على رؤيته تأثرت بجماله. كان والدها يصلح حقاً لمثل هذه التجمعات الرسمية. أضفى وجوده على المكان جواً متوهجاً مثل زهور مقطوفة وموضوعة في إناء زهور ضخم أو عربة ليموزين طويلة سوداء.

عندما رأت ميو والد سوماير عجزت عن الكلام. كان بإمكان سوماير سماع شهيقها كصوت ستارة مخملية سحبت إلى جانب في صباح ساكن لتدع أشعة الشمس تدلف وتوقظ شخصاً عزيزاً عليك. فكرت سوماير، ربما كان عليها أن تجلب منظار أوبرا، لكنها معتادة على رد الفعل الدرامي الذي يُحدثه مظهر والدها لدى الناس، خاصة النساء متوسطات العمر. ما هو الجمال؟ ما هي قيمه؟ كانت سوماير تجد ذلك

غريباً. لكن أحداً لم يقدم لها إجابة. كان هناك دوماً ذلك التأثير الراسخ نفسه.

سألت ميو: «كيف تشعرين مع والد بهذه الوسامة؟ مجرد فضول.»

تنهدت سوماير - يمكنه التنبؤ بردّ فعل البشر «لا يمكنني القول إني أحب ذلك. كل الناس تفكر بالطريقة نفسها. يا للرجل الوسيم! رجل فاتن، لكن ابنته، حسناً، ليست من ينظر إليها طويلاً، أليس كذلك؟ لا بد أن هذا ما يعنون بالتناسل.»

التفتت ميو إلى سوماير. أدارت خدها ببطء. وحدقت في وجهها كما لو كانت تدرس لوحة في معرض بإعجاب.

قالت: «إن كان هذا ما تفكرين به إلى الآن، فأنت مخطئة. أنت جميلة، كل شيء فيك مثل والدك.» ومدت يدها بصدق غير متكلف، لمست يد سوماير الممتدة على المنضدة بخفة «لا تعلمين كم أنت جذابة!»

تورّد وجه سوماير وخفق قلبها بصوت مرتفع مثل حصان جزع فوق جسر خشبي. انهمكت سوماير وميو بعد ذلك في حديثهما الخاص. كان الحفل حيوياً، بالتشكيلة المعتادة لخطابات ما بعد العشاء (بما في ذلك والد سوماير بالطبع)، ولم يكن العشاء سيئاً. لكن شيئاً من هذا لم يبق في ذاكرة سوماير. هل كان الطبق الرئيس من اللحم؟ أو السمك؟ هل

استخدمت شوكة وسكيناً وتصرفت بشكل صحيح؟ أم تناولت الطعام بيديها ولعقت الصحن؟ لم تكن لديها فكرة.

تحدثتا عن الموسيقى. كانت سومايرمن كبار أنصار الموسيقى الكلاسيكية، وأحبت منذ أن كانت طفلة صغيرة البحث في مجموعة أسطوانات والدها. تقاسمت وميو الذوق نفسه كما ظهر، كلتاهما أحبت موسيقى البيانو وتعتقد أن سوناتا بتهوفن رقم 32 كانت الذروة المطلقة في تاريخ الموسيقى، وأن أداء فلهايم باخوس الفذ للسوناتا يضع التأويل السليم لها. يا لها من قطعة مبهجة مفعمة بالحياة والفرح!

عزف فلاديمير هوروفيتس لشوبان، خاصة لمقاطع سشيرسو، مثير يأخذ بالألباب، أليس كذلك؟ أداء فردريش جالدا لمقدمات ديبسي ذكية وجميلة. عزف جيسيكنج لغريغ رائع من البداية وحتى النهاية. أداء سفياتوسلاف ريختر لموسيقى بروكوفييف تستحق الاستماع لها مراراً وتكراراً، تستحوذ تأويلاته على تحولات المزاج المتقلبة. أداء فاندا لاندوسكا لسوناتات موزارت، مليئة بالدفء والنعومة ويصعب فهم لماذا لم تُستقبل بالحفاوة التي تستحق.

«ماذا تفعلين في الحياة؟» سألت ميو حين انتهى نقاشهما عن الموسيقى.

قالت سومايرـ: «تركت الكلية وأقوم بأعمال جزئية أثناء عملي على رواياتي.» «أي نوع من الروايات؟» سألت ميو.

«يصعب تفسير ذلك» أجابت سوماير. «حسناً» قالت ميو. «أي نوع من الروايات تحبين قراءتها؟» قالت سوماير. «ستكون لائحة طويلة جداً إذا أردت عدّها كلها. مؤخراً أقرأ جاك كيرواك. وهنا ورد اسم «سبوتنيك» في الحديث».

باستثناء روايات خفيفة تقرأها لتمضية الوقت، بالكاد كانت ميو تلمس رواية. قالت مفسرة «لا أستطيع التخلص من فكرة أنها كلها مختلقة. لذا لا أشعر بأي تعاطف مع الشخصيات. لقد كنت دوماً كذلك». يفسر هذا اقتصار مطالعتها على كتب تعالج الواقع كواقع. كتب في معظمها تساعدها في العمل.

سألت سومايز: «وعلامَ يرتكز عملك؟»

قالت ميو: «معظم عملي متعلق ببلدان أجنبية. قبل ثلاث عشرة سنة صرت مديرة شركة والدي التجارية، حيث إنني أكبر أنجاله؟ درست عزف البيانو، لكن والدي توفي إثر إصابته بالسرطان، ولم تكن والدتي قوية بما فيه الكفاية، بالإضافة إلى أنها لم تكن تتكلم اليابانية جيداً. كان أخي لا يزال في المدرسة الثانوية. ويعتمد عديد من الأقارب في معيشتهم على الشركة، وعليه لم يكن بوسعي ترك الشركة تتدهور.»

توقفت لتؤكد على ذلك متنهدة.

«كانت شركة والدي تستورد في الأساس بضائع مجففة

وأعشاباً طبية من كوريا، لكنها الآن تتاجر بأشياء متعددة، حتى قطع الكومبيوتر. رسمياً ما زلت مسجلة كرئيسة للشركة، لكن زوجي وأخي الأصغر مني هما من يديران الشركة، لذا لست مضطرّة للذهاب إلى مكاتب الشركة كثيراً. وهذا يمنحني وقتاً لنشاطي الخاص بي.»

«ماذا، مثلاً؟»

«استيراد النبيذ بشكل أساسي. كثيراً ما أنظم حفلات موسيقية أيضاً. أسافر إلى أوروبا قليلاً، حيث إن العمل يعتمد على الاتصال الشخصي. يفسر هذا لماذا باستطاعتي بمفردي التنافس مع بعض الشركات الكبيرة. لكن كل هذا العمل يحتاج إلى كثير من الوقت والطاقة. أظن أن هذا طبيعي...» نظرت إلى أعلى كما لو تذكرت شيئاً «بالمناسبة، هل تتكلمين الإنجليزية؟»

«الإنجليزية ليست نقطة قوتي، لكن أدبر أمري، على ما أعتقد. مع ذلك أحب القراءة بالإنجليزية.»

«هل تعرفين استخدام الكومبيوتر؟»

«ليس كثيراً، لكني أستخدم برنامج الكتابة، وعلى يقين أن بإمكاني تعلم استخدامه.»

«وقيادة السيارات؟»

هزت سوماير رأسها بالنفي. فقد حاولت في السنة التي دخلت فيها الكلية قيادة سيارة والدها الفولفو إلى الخلف

لإدخالها المرآب، فصدمت الباب بعمود، منذ ذلك الحين بالكاد قادت سيّارة.

«حسناً، هل يمكنك أن تشرحي لي الفرق بين الإشارة والرمز في 200 كلمة أو أقل؟»

رفعت سومايز الفوطة إلى فمها وبخفة مسحت فمها وأعادتها إلى المنضدة. ما الذي ترمي إليه المرأة.

«الإشارة والرمز؟»

«ليس ذلك مهماً، هذا مجرد مثال.»

هزت سومايز رأسها مرة أخرى «ليست لدي فكرة.»

ابتسمت ميو: «إذا لم يكن لديك مانع، أود لو تخبرينني عن المهارات الخاصة التي تملكينها. ما الذي تجيدينه عدا قراءة الكثير من الروايات والاستماع إلى الموسيقى.»

وضعت سومايز الشوكة والسكين في طبقها وحدقت في الفراغ فوق المنضدة وفكرت في السؤال ملياً.

«عوض الأشياء التي أقوم بها بشكل جيد، قد يكون من الأسهل عرض ما لا أقدر على القيام به. لا يمكنني الطهو ولا تنظيف المنزل. حجرتي فوضى عارمة، ودائماً أفقد الأشياء. أحب الموسيقى، لكني أغنّي بنشاز. لست بارعة، ولا أستطيع حياكة غرزة واحدة. حسي في معرفة الاتجاهات سيّئ ولا أعرف اليسار من اليمين في نصف المرات. عندما أغضب أميل إلى تحطيم الأشياء، الصحون وأقلام الرصاص

والساعات المنبهة، ثم بعد ذلك أشعر بالندم، لكن لا أستطيع كبح نفسي ساعتها. ليست لدي أموال في البنك. أنا خجولة من دون سبب، وبالكاد لدي أصدقاء أتكلم معهم.»

أخذت سوماير نفساً سريعاً وأردفت: «مع ذلك، يمكنني الطباعة بسرعة دون النظر إلى المفاتيح. لست رياضية، وباستثناء الانفلونزا لم أعرف المرض يوماً في حياتي. أحافظ على المواعيد بدقة ولم أتأخر عن موعد. يمكنني تناول أي طعام تقريباً. لا أشاهد التلفزيون أبداً، ومع قليل من التبجح لا أقدم أعذاراً. يتصلب كتفي مرة في الشهر أو ما شابه ذلك، ولا أستطيع النوم، لكن في معظم الأوقات أنام بشكل طبيعي. عادتي الشهرية خفيفة. ليست لدي أي فجوة في الأسنان ولغتي الإسبانية لا بأس بها.»

نظرت ميو إلى أعلى: «إذاً أنت تتكلمين الإسبانية؟»

حين كانت سوماير في المدرسة الثانوية، قضت شهراً في بيت عمها، رجل أعمال كان مقر عمله في مكسيكو سيتي. استفادت من الفرصة ودرست الإسبانية بجدية، كما درستها في الكلية أيضاً.

أمسكت ميو ساق كأس نبيذها بإصبعين وهزته قليلاً، كما لو كانت تدير برغي في آلة.

«ما رأيك بالعمل عندي لفترة؟»

«العمل؟» لم تكن سوماير متأكدة من التعبير المناسب

لهذا الوضع، فحافظت سوماير على نظرتها الصارمة «لم أعمل في وظيفة حقيقية طوال عمري، ولست متأكدة كيف أجيب على الهاتف بالطريقة الصحيحة. أتجنب ركوب القطار قبل العاشرة صباحاً، وأنا على يقين، بحديثي معك، إني لا أتكلم بأدب.»

قالت ميو ببساطة: «لا تهتمي. أجيبي فقط. بالمناسبة، هل أنت متفرّغة غداً ظهراً؟»

حرّكت سوماير رأسها تلقائياً. لم تفكر حتى في ذلك. على أي حال، وقت الفراغ ذخيرتها الأساسية.

قالت ميو: «حسناً، لم لا نتناول الغداء معاً غداً؟ سأحجز مكاناً في مطعم قريب.» رفعت كأس نبيذ أحمر جديدة سكبها النادل لها، تفحصتها بحرص، تنشقت الرائحة ثم احتست الرشفة الأولى. كانت لسلسلة الحركات كلها أناقة طبيعية لإيقاع قصير صَقَله عزف البيانو خلال سنوات.

«سنتكلم عن التفاصيل بعد ذلك. اليوم أفضّل الاستمتاع. أتعلمين، لست متأكدة من أين هذا النبيذ، لكن هذا البوردو ليس سيئاً.»

خففت سوماير من صرامة نظرتها، سألت ميو مباشرة: «لكننا لم نتقابل إلا منذ حين ولا تعرفين عني كثيراً.»

أجابت ميو موافقة: «هذا صحيح.»

«لماذا تظنين أني قد أكون مفيدة لك؟»

هزت ميو النبيذ في كأسها وقالت: «أحكم على الناس دوماً من وجوههم. أعني إني أحب وجهك، طريقة نظرك.»

شعرت سومايرِ بالهواء يخف فجأة حولها. تصلبت حلمتاها تحت ثوبها. مدت يدها بشكل ميكانيكي إلى قدح الماء وشربته دفعة واحدة. سار نادل بوجه كصقر خلفها بسرعة وملأ الكأس الفارغة بماء فيه ثلج. أثناء حيرة سومايرِ، قرقع صوت مكعبات الجليد كتأوهات لص مختف في مغارة.

لا بد أني أحب هذه المرأة، أدركت كبداية. لا ريب في ذلك. الجليد بارد، الورود حمراء، وأنا عاشقة. هذا الحب على وشك أن يحملني إلى مكان ما. التيار طاغ جداً، ولا خيار لي في ذلك. قد يكون مكاناً خاصاً، مكان لم أره من قبل. الخطر كامن هناك، قد ينتهي بي الأمر إلى جرح عميق قاتل. قد أخسر كل شيء في النهاية. لكن لا رجعة الآن. لا يسعني إلا السير مع التيار. حتى لو عنى ذلك أنني سأحترق، وأذوي إلى الأبد.

الآن، بعد ظهور الحقيقة، أعلم أن حَدْسها كان صحيحاً. مئة وعشرون في المئة.

2

اتصلت بي سوماير بعد حفل الزفاف بأسبوعين تقريباً، يوم أحد قبل الفجر بقليل. بطبيعة الحال كنت نائماً، ولا صلة لي بالعالم مثل سندان حداد قديم. إنه الأسبوع السابق لاجتماع كنت فيه مسؤولاً عن التنظيم، والآن يمكنني اقتناص بضع ساعات من النوم، إذ كنت قد جمعت (وقرأت) كل الوثائق الضرورية (عديمة المعنى) التي كنا بحاجة إليها. وحين حل نهاية الأسبوع، أردت أن أنام على راحتي. وهنا بالطبع رن الهاتف.

سألت سوماير: «هل كنت نائماً؟»

«أم م م م» تأوهت وغريزياً نظرت إلى الساعة المنبهة بجانب سريري. كان للساعة عقارب فسفورية كبيرة، لكني لم أستطع رؤية الوقت. الصورة التي ظهرت على شبكة العين والجزء من عقلي الذي حللها كانا متزامنين، مثل سيدة عجوز تحاول دون نجاح وضع خيط في إبرة. ما كان باستطاعتي معرفته هو أن الظلام يحيط بي من كل جانب وقريب من رواية فيتزجيرالد «ليلة مظلمة للروح».

«سيحل الفجر قريباً.»

«أم م م م» همهمت بكسل.

«قرب المكان الذي أقطن فيه ثمة رجل يربي الديوك. لا بد أنها لديه منذ سنوات طويلة. بعد نصف ساعة أو أقلّ ستثير عاصفة. هذا الوقت المفضل عندي في النهار. ستبدأ سماء الليل الكالح في الانبلاج من الشرق، وتصيح الديوك بأعلى صوتها كنوع من الانتقام من شخص ما. هل هناك أي ديوك قريبة منك؟»

في هذا الطرف من الهاتف أومأت برأسي قليلاً بإشارة لا.

«أتصل من كشك الهاتف قرب الحديقة.»

«أم م م م» قلت. هناك كشك هاتف على بعد 200 ياردة من شقتها. حيث إن سوماير لم يكن لديها هاتف، كان عليها السير إلى هناك للاتصال. كشك هاتف عادي.

«أعلم أنه لا ينبغي الاتصال بك في هذا الوقت المتأخر. آسفة حقاً. في هذا الوقت من الليل الذي لم تبدأ فيه حتى الديوك في الصياح. حين يتعلق هذا القمر المثير للشفقة في الركن الشرقي من السماء مثل كِلْيَةٍ رثّة. لكن فكر فيَّ - عليَّ السير مجهدة في العتمة الكالحة كل الطريق إلى هنا وأنا أمسك ببطاقة الهاتف التي حصلت عليها هدية في حفل زفاف ابنة عمي، وعليها صورة زوجين سعيدين يمسك واحدهما

بأيدي الآخر. هل يمكن أن تتصور كم كئيب ذلك؟ جواربي غير متجانسة حتى. كان على جورب صورة ميكي ماوس، فيما الآخر صوف غير ملوّن. حجرتي كارثة بكل معنى الكلمة، لا أستطيع أن أجد شيئاً. لا أريد أن أقول ذلك بصوت مرتفع جداً، لكن لن تصدق كم مرعبة حالة بنطالي. أشك إن كان اللصوص قد يمسّونه. إذا قتلني منحرف، فلن أعيش لأنسى وأغفر تلك الجريمة. لا أتوسل الشفقة، لكن سيكون من اللطيف إذا استطعت التجاوب معي قليلاً، باستثناء إطلاق أصوات التعجب الخاطفة - «أم م م وآه آه». ما رأيك بحرف عطف؟ حرف عطف سيكون لطيفاً. أو مع ذلك أو لكن.»

«كيفما» قلت. كنت تعباً وشعرت أني ما زلت وسط حلم.

كررت: «كيفما». حسناً، يمكنني تقبل ذلك. خطوة إلى الأمام يا رجل، خطوة صغيرة إلى الأمام. مع ذلك.»

«هل تريدين شيئاً؟»

قالت سومايا: «نعم، أريدك أن تخبرني شيئاً، لهذا اتصلت.» صفت حنجرتها قليلاً: «أريد أن أعرف الفرق بين الإشارة والرمز؟»

أصابني إحساس غريب كما لو أن شيئاً صامتاً يسري في رأسي. «هل يمكن أن تعيدي السؤال؟»

فعَلَت.

«ما الفرق بين الإشارة والرمز؟»

جلست في الفراش ناقلاً سماعة الهاتف من يدي اليسرى إلى اليمنى.

«دعيني أفهم جيداً - تتصلين بي لأنك تريدين معرفة الفرق بين الإشارة والرمز. يوم الأحد قبل بزوغ الفجر! أم م م م...»

قالت: «الساعة 4:15 بالضبط. كان السؤال يزعجني. ما الفرق بين الإشارة والرمز؟ سألني شخص ذلك قبل أسبوعين ولم أستطع التخلص من التفكير بذلك. خلعت ملابسي لأذهب للفراش وفجأة تذكرت. لا يمكنني النوم قبل أن أجد الإجابة. هل يمكنك أن تشرح ذلك لي؟ ما الفرق بين الإشارة والرمز؟»

«دعيني أفكر» قلت وحدقت في السقف. حتى عندما أكون مستيقظاً تماماً، لم يكن تفسير شيء بشكل منطقي لسومايز سهلاً. «الإمبراطور رمز لليابان. هل أنت معي؟»

أجابت «نوعاً ما.»

«نوعاً ما لا تكفي. هذا ما هو مذكور في القانون الياباني.» قلت بهدوء قدر الإمكان.

«لا نقاش في ذلك. عليك تقبّل ذلك وإلا لن أستطيع أن أكمل.»

«فهمت. سأقبل ذلك.»

«شكراً. الإمبراطور رمز لليابان، لكن هذا لا يعني أن الإمبراطور واليابان متماثلان. هل تتابعين؟»

«لم أفهم!»

«حسناً، ما رأيك بذلك. السهم يتجه في اتجاه واحد. الإمبراطور رمز لليابان، لكن اليابان ليست رمزاً للإمبراطور. تفهمين ذلك، أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك.»

«لنقدم مثلاً، تكتبين الإمبراطور رمز لليابان - هذا ما يجعل الاثنين متماثلين. لذا عندما نقول اليابان، فإن ذلك يعني الإمبراطور، وعندما نقول الإمبراطور، سيعني ذلك أيضاً اليابان. بعبارة أخرى، يمكن وضع أحدهما مكان الآخر. تماماً كقولنا أ تساوي ب، لذا ب تساوي أ. هذه هي الإشارة.»

«ما تقوله هو أن بإمكاننا تغيير الإمبراطور باليابان؟ هل يمكنك فعل ذلك؟»

قلت: «ليس هذا ما أعنيه.» وهززت رأسي بحيوية عند نهاية الجملة. «أحاول أن أشرح بأفضل ما يمكنني. لا أخطط لاستبدال الإمبراطور باليابان. هذه مجرد وسيلة للشرح.»

قالت سوماير «أم م م م. أعتقد أني فهمت. كمثال، الفرق بين شارع باتجاه واحد، وشارع باتجاهين.»

«نفترض أن هذا قريب من الفكرة.»

«أدهش دوماً من طريقتك الجيدة في تفسير الأشياء.»

قلت: «هذه وظيفتي.» بدت كلماتي باردة ومبتذلة نوعاً ما.

«ينبغي أن تحاول أن تصبح مدرساً في مدرسة ابتدائية أحياناً. لا يمكنك أبداً تصور أي نوع من الأسئلة لدي.»

«لماذا العالم ليس مربعاً؟ لماذا لسمك الحبّار عشر أرجل وليس ثماني؟ كانت لدي إجابة على كل شيء تقريباً.»

«لا بد أنك أستاذ عظيم.»

قلت: «أتساءل عن ذلك.»

بالفعل كان ذلك يحيرني.

«بالمناسبة، لماذا لسمك الحبار عشر أرجل وليس ثماني؟»

«هل يمكن أن أعود للنوم الآن. أنا متعب والإمساك بهذا الهاتف يشعرني بالإمساك بحائط حجري آيل للسقوط.»

قالت سومايرز: «أتعلم» ثم صمتت برهة مثل بواب يغلق بوابة معبر عرضي فوق طريق سكة حديد بقاطع بعد مرور قطار متجه إلى سانت بطرسبرغ، «سخيف قول ذلك، لكني أحب.»

قلت: «أ م م م م» وأعدت سماعة الهاتف إلى اليد اليسرى. كان بوسعي سماع تنفسها عبر الهاتف. لم أعرف

كيف أجيب. ومثلما يحدث عندما لا أعرف ما أقول، خرج مني تعليق غير ملائم تماماً «لست أنا من تحبين، على ما أعتقد؟»

أجابت سوماير «ليس أنت» سمعت صوت ولاعة رخيصة تشعل سيجارة. «هل أنت مشغول اليوم؟ أريد أن أتكلم معك أكثر.»

«تعنين عن حبك لشخص آخر سواي؟»

قالت: «نعم عن حبي الجارف لشخص آخر سواك.»

وضعت الهاتف بين رأسي وكتفي وتمددت: «أنا غير مشغول في فترة المساء.»

قالت سوماير: «سآتي عند الخامسة» ثم أردفت كما لو كانت قد فكرت في شيء آخر «شكراً!».

«على ماذا؟»

«على لطفك في الإجابة عن سؤالي في منتصف الليل.»

أجبت إجابة مبهمة، أقفلت الخط وأطفأت النور. كان الظلام لا يزال مخيماً في الخارج. فكرت قبل أن يداهمني النوم بقليل في كلمة «شكراً» الأخيرة، وهل سمعتها منها في السابق. ربما مرة لكني لم أستطع تذكر المناسبة.

جاءت سومايرإلى شقتي قبل الخامسة بقليل. لم أعرفها. لقد غيرت مظهرها تماماً. كان شعرها قصيراً بقصة

جديدة، خصلاته ما زالت تظهر آثار ضربات المقص. ترتدي سترة من الصوف المحبوك فوق ثوب قصير الأكمام أزرق داكن اللون وحذاء أسود لامعاً متوسط الارتفاع. حتى أنها كانت ترتدي جوارب. جوارب؟ لم تكن ملابس النساء حقل اختصاصي بالضبط، لكن من الجلي أن كل ما كانت ترتديه كان باهظ الثمن. بدت في لباسها هذا براقة جميلة. بصراحة كانت جذابة، وإن كنت أفضل سوماير القديمة الجامحة. لكل ذوقه الخاص.

قلت وقد وقد شملتها بنظرتي: «لا بأس، لكنني أتساءل ما الذي يمكن أن يقوله جاك كيرواك.»

ابتسمت سومايز، ابتسامة خفيفة أكثر تعقيداً مما اعتادت عليه. «لم لا نتمشّى في الهواء الطلق؟»

سرنا جنباً إلى جنب في شارع الجامعة الكبير صوب المحطة وتوقفنا بمقهانا المفضل. طلبت سومايز قطعة الكعك المعتادة مع القهوة. كان سماء يوم أحد صاف قبيل نهاية شهر أبريل/ نيسان. وكانت محلات بيع الزهور مكتظة بالزعفران والزنبق. هب نسيم ناعم حف بأطراف تنانير الفتيات الصغيرات بنعومة وبعث عبق الأشجار الصغيرة على مهل. عقدت يدي خلف رأسي وراقبت سومايز وهي تلتهم ببطء ولهفة كعكتها. من السماعات الصغيرة المثبتة في سقف المحل كان أستورد جيلبيرتو يغني أغنية بوسا نوفا قديمة

«خذني إلى أروندا». غنّت معه. أغمضت عينيّ. بدا صوت قعقعة الأكواب والصحون الصغيرة مثل هدير بحر بعيد. أروندا – ماذا تشبه؟ تعجبت.

«ما زلت تشعر بالنعاس؟»

أجبت: «ليس الآن» فتحت عيني.

«هل أنت على ما يرام؟»

«بخير، بخير مثل نهر مولدو في الربيع.»

حدقت سوماير برهة في الصحن الفارغ الذي كانت فيه شريحة الكعك، ثم نظرت إليَّ.

«ألا تظن أن من الغريب أن أرتدي هذه الملابس؟»

«أظن ذلك.»

«لم أشترها. لا أملك نقوداً لشراء ذلك. هناك قصة وراء هذه الملابس.»

«هل عندكِ مانع إذا حاولت التخمين؟»

قالت: «تفضل!»

«كنت في ملابس جاك كيرواك المزرية، سيجارة تتدلى من شفتيك، تغسلين يديك في مرحاض عام، حين دخلت امرأة طولها خمسة أقدام وإنش مقطوعة النفس، ترتدي ملابس على آخر طراز وقالت: «من فضلك يجب أن تساعديني! لا وقت للشرح، لكن أشراراً يطاردونني. هل يمكن أن نتبادل الملابس؟ إذا تبادلنا الملابس يمكنني الفرار

منهم. شكراً لله أننا بالمقاس نفسه. مثل فيلم أكشن من هونج كونج.»

ضحكت سوماير. «وكان حذاء المرأة مقاس ستة ونصف وثوبها مقاس سبعة، بالصدفة.»

«وهناك تبادلتما الملابس وفي اللحظة، حتى ملابسك الداخلية من نوع ميكي ماوس.»

«جواربي من نوع ميكي ماوس وليس ملابسي الداخلية.»

قلت: «فليكن.»

تأملت سوماير وقالت: «أ م م م م، في الواقع لست بعيداً عن الحقيقة.»

«كم أبعد؟»

مالت على المنضدة: «هذه قصة طويلة. هل تحب سماعها؟»

«حيث إنك جئت كل هذه المسافة لتخبريني، أشعر أنه لا يهم إذا كنت أحب ذلك أم لا. على أي حال، تفضلي أخبريني. أضيفي مقدمة إذا أحببت. ورقصة أرواح مباركة، لا مانع عندي.»

بدأتْ في الحديث عن حفل زفاف ابنة عمها، وغدائها مع ميو في أوياما. كانت قصة طويلة.

3

كان اليوم التالي للزفاف، يوم اثنين، ماطراً. بدأ المطر في الهطول بعد منتصف الليل بقليل واستمر دون توقف حتى الفجر. مطر ناعم لطيف بلّل أرض الربيع السوداء وأنعش وحرك المخلوقات الصغيرة التي تعيش عليها.

فكرة مقابلة ميو ثانية أثارت سوماير، ووجدت صعوبة في التركيز. شعرت كما لو كانت تقف وحيدة على قمة تل، والريح تدور حولها. جلست خلف مكتبها كالعادة، أشعلت سيجارة، وشغّلت الكومبيوتر، غير أن تحديقها بالشاشة لم يُلهمها عبارةً واحدة. كان ذلك بالنسبة لسوماير شبه مستحيل. تخلت عن الفكرة، أطفأت الكومبيوتر، استلقت في حجرتها الصغيرة وسيجارة غير مشعلة بين شفتيها، مستغرقةً في تداعيات خواطرها.

مجرد التفكير في ميو أثار مشاعري. فكرت، وتخيلت كم من المؤلم لو قلنا وداعاً في الحفلة ولم نر بعضنا بعضاً

قط مرة أخرى. هل أتوق لأن أصبح مثلها - امرأة جميلة مهذبة أكبر سناً؟ كلا، لا يمكن هذا. حين أكون بجانبها أود دوماً أن ألمسها. هذا مختلف عن التوق قليلاً.

تنهدت سوماير، حدقت في السقف وأشعلت سيجارة. فكّرَتْ هذا غريب إذا تمعّنت في الأمر. هذا أنا أحب للمرة الأولى في حياتي وعمري 22 سنة، وشاءت الصدف أن يكون من أحبّه امرأة.

كان المطعم الذي حجزت فيه ميو يبعد مسير عشر دقائق عن محطة أنفاق أموتو. ساندو مطعم يصعب على من يذهب إليه أول مرة أن يجده، ومن المؤكد أنه ليس بالمكان الذي تدخله صدفة لتناول وجبة، وحتى يصعب تذكر اسمه إلا إذا سمعته مرتين. ذكرت سوماير اسم ميو عند المدخل فأُخذت إلى حجرة طعام صغيرة خاصة في الطابق الأول. كانت ميو هناك تشرب ماء بيريه بارداً ومنهمكة في حديث مع النادل حول قائمة الطعام.

كانت ميو ترتدي قميصاً أزرق اللون داكناً فوق بلوزة من القطن باللون نفسه، وتضع في شعرها دبوس شعر فضياً بسيطاً. كان بنطالها من الجينز الأبيض الضيق. في ركن على المنضدة نظارة زرقاء سماوية وعلى كرسي بجانبها مضرب سكواش وحقيبة ميسوني رياضية. بدا أنها كانت في طريقها إلى البيت بعد أن لعبت سكواش مرتين، إذ إن خدّيها ما زالا

مشوبين بلون قرنفلي خفيف. تخيلتها سوماير تستحم في المركز الرياضي وهي تفرك جسدها بصابون غريب الرائحة.

حين دخلت سوماير الحجرة بجاكيت مخطط بخطوط متوازية وبنطال كاكي، وشعرها غير مصفف كيتيم، رفعت ميو عينيها عن قائمة الطعام وابتسمت لها ابتسامة باهرة. «قلت لي منذ أيام إنك تأكلين كل شيء، صحيح؟ أتمنى أن لا تمانعي إذا طلبت الطعام لنا.»

«طبعاً لا»، قالت سوماير مبتسمة.

طلبت ميو الطعام نفسه لكلتيهما. كان الطبق الرئيس سمكاً طازجاً مشوياً قليلاً على الفحم مع قليل من الصلصة الخفيفة بالفطر. كانت شرائح السمك مشوية بشكل رائع، بنية اللون بطريقة شبه فنية تنبئك أنه اللون المناسب، ويحيط بها قرع وسلطة هندباء ناعمة. في التحلية طلبتا كريم بروليه وكان الشيء الوحيد الذي أكلته سومايرِ. أما ميو فلم تلمسه. أخيراً، شربتا قهوة اكسبرسو. لاحظت سومايرِ أن ميو تهتم كثيراً بما تأكل. كان عنقها نحيلاً كساق نبتة وجسمها دون أونصة شحم باد للعيان. لم يظهر أن عليها أن تراعي حمية لتخفيف الوزن، مع ذلك بدا أنها تهتم جداً بطعامها، مثل إسبارطي في محبس حصن جبلي.

لم تتحدثا عن شيء معين أثناء تناولهما الطعام. أرادت ميو أن تعرف أكثر عن سومايرِ، التي أجبرت على الإجابة عن

الأسئلة بأمانة قدر المستطاع. أخبرت ميو عن والدها وأمها والمدارس التي درست فيها (والتي تكرهها)، والجوائز التي فازت بها في مسابقات التعبير - دراجة هوائية ودائرة معارف - وكيف تركت الكلية وكيف تقضي وقتها الآن. ليست حياة مثيرة. مع ذلك أصغت ميو بافتتان، كما لو كانت تستمع إلى عادات ساحرة من بلادٍ نائية.

أرادت سومايرا أن تعرف أكثر عن ميو، لكن الأخيرة ترددت في الحديث عن نفسها. «هذا ليس مهماً» أجلت ذلك بابتسامة ساطعة.

«أفضل السماع عنك.»

لم تعرف سومايرا عنها كثيراً بعد الانتهاء من تناول الوجبة. كل ما عرفته كان التالي: أن والد ميو تبرع بأموال طائلة إلى بلدة في شمال كوريا حيث ولد، وبنى عدداً من المباني العامة لأهل البلدة، الذين ردوا عليه بإقامة تمثال برونزي له في ساحة البلدة.

قالت ميو: «بلدة صغيرة في أعالي الجبال. الشتاء قاسٍ هناك ومجرد النظر إلى المكان يبعث القشعريرة في الجسم. الجبال صخرية حمراء شديدة الانحدار ومليئة بالأشجار المنحنية. مرة عندما كنت صغيرة أخذني والدي إلى هناك، حين رفعوا الستار عن التمثال. جاء كل الأقارب يبكون وحضنوني. لم أفهم كلمة مما قالوا. أذكر أني خفت. بالنسبة لي كانت بلدة في بلد أجنبي لم أره من قبل.»

«تمثال عادي كالذي نجده في أي مكان. لكن من الغريب أن يصبح والدك تمثالاً. تصوري لو نصبوا تمثالاً لوالدك في الساحة أمام محطة شيجاساكي. قد تشعرين بالغرابة، أليس كذلك؟ كان والدي قصيراً، لكن التمثال جعله يبدو كبرج. كنت في الخامسة آنذاك، غير أني أدركتُ عندئذٍ أن ما نبصره من العالم ليس بالضرورة مطابقاً للواقع.»

فكرت سوماير لو أقاموا تمثالاً لوالدي لما وفّاه ذلك حقه، إنه وسيم جميل الطلعة.

قالت ميو وهما تحتسيان فنجان الإكسبرسو الثاني:

«أود أن نواصل من حيث انتهينا بالأمس. هل تظنين أنك تريدين العمل معي؟»

كانت سوماير تتحرّق لتدخين سيجارة، لكن لم تكن هناك منفضة سجائر، لذا اكتفت بشرب ماء بيريه بارد. وأجابت بصدق:

«حسناً، ما نوع العمل بالضبط؟ كما قلت لك البارحة، باستثناء بعض الوظائف البسيطة، لم أقم بما يمكن أن تسميه وظيفة حقيقية. علاوة على ذلك، ليس لدي ملابس لائقة. لقد استعرت الملابس التي كنت أرتديها في حفل الزفاف.»

أومأت ميو برأسها دون أن يتبدل تعبير وجهها. لابد أنها توقعت مثل هذه الإجابة.

قالت: «أعتقد أني أعرف من أي طينة أنت، والعمل

الذي أفكر فيه لن يسبب لك متاعب. أنا على يقين أن بمقدورك التعامل مع ما سيأتي. المهم هل تودين العمل معي أم لا. حاولي طرح السؤال هكذا، مجرد نعم أو لا ببساطة.»

اختارت سومايرِ كلماتها بعناية: «يسعدني سماع كلامك، لكن أهم ما لدي الآن كتابة الروايات. أعني بسبب هذا تركت الكلية.»

نظرت ميو إلى سومايرِ عبر المنضدة مباشرة وفي خط مستقيم. شعرت سومايرِ بتلك النظرة الهادئة على بشرتها، وشعرت أن وجهها مرتفع الحرارة.

سألت ميو: «هل تمانعين إن أبديت ما يجول في ذهني؟»

«طبعاً لا، تفضلي!»

«قد لا يسرك ما سأقوله!»

لتظهر أنها يمكن أن تتقبّل ذلك، ضمت سومايرِ شفتيها ونظرت في عيني ميو.

«في هذه المرحلة من حياتك، لا أعتقد أنك ستكتبين شيئاً له قيمة مهما كرست من وقت لكتابة الروايات.» قالت ميو بهدوء وقوة «أنت تتحلين بالموهبة وأنا على يقين أنك ستصبحين كاتبة غير عادية يوماً ما. لا أقول ذلك فقط، بل أؤمن به حقاً. تملكين المقدرة الطبيعية في داخلك، لكن الآن ليس الوقت المناسب. القوة التي أنت بحاجة إليها لفتح ذلك الباب غير موجودة بعد. ألم تشعري بذلك؟»

قالت سومايرملخصة الأمر: «الوقت والتجربة.»

ابتسمت ميو:

«على أي حال، تعالي واعملي لحسابي هذا أفضل خيار لك، وعندما تشعرين أن الوقت قد حان لا تترددي أن تخرجيها كلها وتكتبي الروايات التي ترضين عنها. أنت بحاجة إلى مزيد من الوقت أكثر من الشخص العادي حتى تصلي إلى هذه المرحلة. حتى ولو بلغت سن 28 دون أن تصلي إلى مرامك وقطع والديك عنك الدعم ولم يعد معك فلس واحد، حسناً، لا أهمية! ربما ستجوعين قليلاً، لكن هذه تجربة جديدة بالنسبة للكاتب.»

فتحت سومايرفمها لتجيب لكن شيئاً لم يخرج منه. هزت رأسها فقط.

مدت ميو يدها إلى منتصف الطاولة وقالت: «دعيني أرى يدك؟»

مدت سومايريدها، فأمسكت ميو بها كأنها تحضنها. كانت راحة يدها دافئة ناعمة. «ليس هناك ما يستدعي القلق. لا تكتئبي. سنكون على وفاق تام.»

بلعت سومايرريقها لكنها تمالكت نفسها. وإذ راحت ميو ترمقها بنظراتٍ مماثلة، شعرت بأنها تذوب كقطعة ثلجٍ تذيبها حرارة الشمس حتى التلاشي.

«في نهاية الأسبوع القادم أود أن تأتي إلى مكتبي ثلاث

مرات في الأسبوع. الاثنين، الأربعاء والجمعة. يمكن أن تبدئي عند العاشرة وتغادري عند الرابعة، وهكذا تتجنبين ساعات الازدحام. لا أستطيع أن أدفع لك كثيراً، لكن العمل سهل ويمكنك القراءة حين لا يكون هناك عمل. هناك شرط واحد، أن تأخذي دروساً خصوصية في الإيطالية مرتين في الأسبوع. أنت تعرفين الإسبانية، لذا لن يكون ذلك صعباً. أود أن تمارسي الحديث بالإنجليزية والقيادة عندما يكون عندك وقت. هل تظنين أن بإمكانك فعل ذلك؟»

أجابت سوماير «أعتقد ذلك». بدا صوتها كما لو أنه صوت شخصٍ آخر قادم من حجرة أخرى. مهما طُلب مني فعله، ومهما أُمرت بفعله، كل ما بإمكاني فعله أن أقول نعم. أدركت ذلك.

حدقت ميو مباشرة في سوماير وهي ما تزال تمسك بيدها. كان بإمكان ميو رؤية انعكاس صورتها بوضوح داخل عيني ميو السوداوين. بدا لها كما لو أن روحها قد امتصت داخل الجانب الآخر من المرآة. أحبت سوماير المنظر وارتعبت منه في آن.

ابتسمت ميو، ظهر خيط ساحر في زوايا عينيها «لنذهب إلى بيتي. ثمة شيء أريد أن أريك إياه.»

4

صادفت خلال رحلة قمت بها وحيداً في عطلة سنتي الأولى الصيفية في الجامعة في منطقة هوكوريكا، امرأة تكبرني ثمانيَ سنوات وتسافر وحدها أيضاً. قضينا ليلة معاً. بدت لي آنذاك كشيء مقتبس من رواية سوسيكي «سانشيرو».

كانت المرأة تعمل في قسم القَطع الأجنبي في أحد بنوك طوكيو. تحزم بعض الكتب وتسافر وحدها كلما تسنى لها ذلك. قالت مفسرة «السفر وحيداً أقل تعباً!». كانت تتحلى بسحر خاص ما جعل فهم اهتمامها بشخص مثلي صعباً - طالب جامعة هادئ، نحيل في الثامنة عشرة. مع ذلك، بدا أنها مسرورة أثناء جلوسها قُبالتي في القطار. ضحكنا كثيراً بصوت مرتفع. صُودف أن نزلنا معاً في محطة كانازاوا.

سألتني: «هل لديك مكان تنزل فيه؟»

أجبت: «كلا، لم أحجز قط في فندق من قبل.»

أخبرتني: «لدي حجرة في فندق. يمكنك النزول معي إذا أردت» ثم أضافت «لا تقلق السعر نفسه سواء نزل في الحجرة شخص أو شخصان.»

كنت متوتراً في المرة الأولى التي مارسنا فيها الحب، ما جعل الأمر مربكاً. اعتذرت لها.

قالت: «ألسنا مؤدبين! لا حاجة إلى الاعتذار على كل صغيرة.»

بعد الاستحمام ارتدت ثوباً، أخذت علبتي بيرة من الثلاجة وقدمت لي إحداهما.

سألت: «هل أنت سائق ماهر؟»

«حصلت على رخصة القيادة مؤخراً، لذا لا أقول إنني ماهر. سائق عادي.»

ابتسمت: «وأنا كذلك. أعتقد أني سائقة جيدة، لكن أصدقائي لا يعتقدون ذلك، ما يجعلني عادية أيضاً. لابد أنك تعرف أن هناك من يعتقدون أنهم مهرة، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك.»

«ولا بد أن هناك من هم ليسوا كذلك.»

أومأت برأسي. رشفت بعض البيرة وفكرت.

«إلى حد ما مثل هذه الأشياء تولد مع المرء. يمكن أن تُسمَّى موهبة. بعض الناس ذكيّ وبعضهم لا . . . بعض الناس يَقِظ وبعضهم ليس كذلك. صحيح؟»

أومأت برأسي مرة أخرى.

«حسناً، فكر في التالي: لنفترض أنك ستذهب مع شخص في رحلة طويلة بالسيّارة، وتتبادلان القيادة. أي نوع

ستختار؟ سائقاً جيداً لكنه غير يقظ، أم سائقاً يقظاً لكنه غير جيد؟»

قلت: «ربما اختار الثاني!»

أجابت: «وأنا أيضاً. لدينا الآن هذا الشيء المشترك. جيد أم سيّئ! فطن أم أخرق - هذه ليست أموراً مهمة. المهم أن يكون المرء لطيفاً، ويبقى هادئاً ويقظاً لما يدور حوله.»

سألت: «يقظاً؟»

ابتسمت ولم تقل شيئاً.

مارسنا الحب مرة أخرى، وهذه المرة كان سلساً ملائماً. أن تكون يقظاً - أعتقد أني بدأت أفهم. رأيت لأول مرة كيف تتفاعل النساء مع نوبات انفعال الشهوة.

في صباح اليوم التالي وبعد أن تناولنا الإفطار معاً ذهب كل منا في سبيله. واصلت رحلتها كما واصلتُ رحلتي. أخبرتني أنها ستتزوج بعد عشرين يوماً رجلاً يعمل معها. قالت بمرح: «إنه رجل لطيف جداً. نتواعد منذ خمس سنوات، وأخيراً سنتزوج رسمياً. ما يعني أنني ربما لن أسافر وحدي بعد الآن». كنت يافعاً وعلى يقين أن مثل هذا الأمر يحدث طوال الوقت. علمتني الحياة فيما بعد كم كنت مخطئاً.

أخبرت سوماير هذه القصة منذ وقت طويل، ولا أذكر

لماذا فعلت ذلك. ربما عندما كنا نتكلم عن الشهوة الجنسية.

سألتني: «ما القصد من قصتك؟»

أجبت: «الجزء المتعلق بكون المرء يقظاً، ولا يطلق الأحكام المسبقة على الأمور، يستمع لما يجري ويظلّ فاتحاً عينيه وقلبه وعقله.»

أجابت سومايز: «أم م م م» بدا أنها تتأمل مفكّرة في علاقتي الجنسية التافهة، أو ربما تتساءل إن كان بالإمكان وضعها في إحدى رواياتها.

«على أي حال، من المؤكد أن لديك تجارب كثيرة، أليس كذلك؟»

اعترضت بلطف: «ليست كثيرة، الأشياء تحدث فقط.»

قضمت أظافرها وشردت مفكرة «لكن كيف من المفترض أن تكون يقظاً؟ اللحظة الحاسمة تأتي، تقول حسناً سأكون يقظاً وأستمع بحرص، لكن لا يمكنك أن تكون جيداً في هذه الأمور بفرقعة أصابعك؟ هل يمكن أن تكون أكثر دقة؟ أعطني مثلاً؟»

«حسناً، أولاً ينبغي أن تستريحي بواسطة... لنقل العدّ.»

«وماذا أيضاً؟»

«فكّري في خيار داخل ثلاجة بعد ظهر يوم صيفي، على سبيل المثال.»

«انتظر» ثم قالت بعد انتظار «هل تريد أن تخبرني أنك عندما تمارس الجنس مع فتاة تتصور خياراً داخل ثلاجة في بعد ظهر يوم صيفي؟»

قلت: «ليس طوال الوقت.»

«لكن أحياناً.»

«ربما!»

عبست سومايرا وهزت رأسها مرتين. «أنت أغرب كثيراً مما تبدو عليه.»

قلت: «ثمة شيء غريب في كل البشر.»

قالت سومايرا لي: «في المطعم وميو تمسك بيدي، حدقت عميقاً في عينيها، وفكرت في الخِيار. ينبغي أن أبقى هادئة وأصغي بحرص، قلت لنفسي.»

«والخِيار؟»

«ألا تذكر ما أخبرتني به - الخيار داخل الثلاجة بعد ظهر يوم صيفي؟»

تذكرت «نعم، أظن أني فعلت. وهل ساعد ذلك؟»

قالت: «قليلاً!»

أجبت: «يسرني سماع ذلك.»

أعادت سومايرا الحديث إلى مجراه السابق. «تبعد شقة

ميو قليلاً عن المطعم. ليست واسعة، لكنها جميلة حقاً.
شرفة مشمسة، نباتات، أريكة جلدية إيطالية، سماعات ماركة
بوس، مجموعات ملصقات، وعربة جاكوار في المرآب.
تعيش هناك وحدها. يقع البيت الذي تملكه مع زوجها في
مكان ما من سيتاجايا. تعود إلى هناك في عطلات نهاية
الأسبوع، وتقضي معظم الوقت في شقتها في أوياما. برأيك
ما الذي كانت تودّ أن تريني إياه؟»

جازفت بالقول: «واجهة محلّ لصنادل جلد الأفعى من
تصميم مارك بولان. صندل جلد أفعى من صنع مارك بولان
في علبة زجاجيّة، إحدى الأساطير القيمة التي لا يقوم تاريخ
موسيقى روك أند رول بدونه. ما مِنْ حرف ناقص، والفعل
يحمل، ويصيب المعجبين بالجنون.»

عبست سومايرو وتنهدت: «لو اخترعوا سيارة تسير على
النكات السيئة، لكان بإمكانك الذهاب بها بعيداً.»

قلت بتواضع: «حسناً، دعي النكات جانباً وأخبريني».

قالت: «أريدك أن تفكر في الأمر بجدية. ماذا عرضت
عليَّ؟ إذا استطعت الإجابة، سأدفع الحساب.»

صفيت حنجرتي: «عرضت عليك الملابس الجميلة التي
عليك، وطلبت منك لبسها في العمل.»

قالت: «ربحت، لديها صديقة غنية تملك ملابس فائضة
عن حاجتها وقياسها مثل قياسي. أليست الحياة غريبة؟ هناك

بشر لديهم ملابس متروكة لا يستطيعون وضعها في خزانات. وهناك آخرون مثلي، لا تكون جواربهم متناسقة. على أي حال، لا أكترث. ذهبت إلى بيت صديقتها وعادت محملة بهذه الثياب المتروكة، التي وإن لم تكن على الموضة إذا نظرت إليها جيداً، إلا أن معظم الناس لا يلاحظون ذلك.»

أخبرتها أني لن أعرف مهما نظرت.

ابتسمت سومايو برضا: «الملابس على مقاسي كأنها فصّلت لي خصيصاً. الفساتين، القمصان، التنانير وكل شيء. ينبغي أن أصغّر الخصر قليلاً، لكن مع الحزام لا يعرف أحد الفرق. قياس حذائي من حسن الحظ قياس ميو نفسه بالضبط تقريباً، لذا قدمت لي بعض ما لا تحتاج إليه. كعب عالٍ، كعب منخفض، صنادل صيفية. كلها تحمل أسماء ماركات إيطالية. حقائب أيضاً وبعض أدوات الزينة.»

قلت: «مثل جين آير!»

يفسر كل ذلك كيف بدأت سومايو العمل ثلاثة أيام في الأسبوع في مكتب ميو، مرتدية جاكيت طقم وفستاناً، كعباً عالياً، تضع بعض الزينة على وجهها وتركب القطار في الصباح من كيشيجوجي إلى هاراجوكو. شيء لم أستطع تخيله.

علاوة على مكتب شركتها في أكاساكا، كان لميو مكتب

صغير خاص في جنجومي، حيث يوجد مكتب لها وآخر لمساعِدَتها (سومايار بعبارة أخرى) وخزانة ملفات، فاكس، هاتف وكومبيوتر. هذه فقط. حجرة واحدة في بناية، ومطبخ صغير وحمّام. كان هناك جهاز تشغيل أقراص مدمجة وسماعات صغيرة، ونصف دستة من أقراص الموسيقى الكلاسيكية. كانت الشقة في الطابق الثاني، يمكن رؤية حديقة صغيرة من النافذة المقابلة للشرق. يشغل الطابق الأرضي معرض أثاث أوروبي. كانت البناية بعيدة عن الشارع الرئيسي ما جعل صوت السيارات خافتاً.

تسقي سومايار، حين تأتي المكتب، النباتات وتشغّل آلة القهوة، ثم تراجع الاتصالات الهاتفية والرسائل الإلكترونية في الكومبيوتر. تطبع كل الرسائل وتضعها على مكتب ميو. معظم الرسائل تأتي من وكلاء أجانب إما بالإنجليزية أو الفرنسية. تفتح رسائل البريد العادية وتتخلص مما ليس له قيمة. قد تأتي بعض المكالمات كل يوم بعضها من الخارج. تدوِّن سومايار اسم ورقم المتصل وتسجل ما يريد وتنقلها إلى هاتف ميو المتحرك.

تأتي ميو عادة قرابة الساعة الواحدة أو الثانية بعد الظهر وتبقى ساعة أو نحوها. تعطي سومايار بعض التعليمات، تشرب القهوة وتقوم ببعض الاتصالات الهاتفية. تملي على سومايار ردوداً على بعض الرسائل التي تحتاج إلى جواب، وتقوم سومايار بطبعها وإرسالها بالبريد أو الفاكس. تحجز

سومايد أيضاً مواعيد ميو عند مصففة الشعر والمطاعم وملاعب السكواش. بعد العمل تتحدث ميو وسومايد فترة وبعدها تغادر ميو. هكذا، كثيراً ما تكون سومايد وحيدة في المكتب ولا تتكلم مع أحد لساعات، لكنها لم تشعر قط بالوحدة. كانت تراجع الأفعال الشاذة عن القاعدة، ولفظها على شريط مسجل، وتأخذ دروس كومبيوتر حتى صار بإمكانها حل معظم المسائل التقنية البسيطة. فتحت ملفات ميو وعرفت الخطوط العامة الرئيسة للمشاريع التي تقوم بها.

كان عمل ميو كما وصفته في حفل الزفاف بالضبط. الاتصال ببعض منتجي النبيذ الصغار، خاصة في فرنسا. وتشتري النبيذ بالجملة للمطاعم والمحلات المتخصصة في طوكيو. أحياناً تنظم رحلات لموسيقيين إلى اليابان، ويقوم وكلاء شركات كبيرة بالأمور المعقدة، بينما تعتني ميو بالخطة العامة وبعض الأعمال الصغيرة. كان اختصاص ميو البحث عن العازفين المغمورين الواعدين وجلبهم إلى اليابان.

لم تملك سومايد وسيلة لمعرفة كم تبلغ أرباح ميو من أعمالها الخاصة، حيث إن سجلات الحسابات محفوظة في أجهزة منفصلة ولا يمكن الدخول إليها من دون شفرة سرية. مع ذلك، كانت مبتهجة وقلبها يخفق فرحاً لمجرد مقابلتها ميو والحديث معها. هذا المكتب الذي تجلس خلفه ميو، والقلم الذي تكتب به، وهذا كوب القهوة الذي تشرب منه. كانت سومايد تقدم أفضل ما عندها مهما كان العمل صغيراً.

كانت ميو تدعو سوماير على العشاء بين فترة وأخرى. ولما كان عملها متعلقاً بالنبيذ، وجدت أنه من الضروري أن تقوم بجولات منتظمة على أفضل المطاعم المعروفة لتبقى على اتصال بآخر المستجدات. كانت ميو تطلب دوماً طبقاً من السمك الخفيف وأحياناً الدجاج، مع ذلك كانت تترك نصفه وتنتقل إلى التحلية. تتأمل قائمة النبيذ وتراجع كل التفاصيل قبل أن تقرر، لكنها لم تشرب قط أكثر من كأس واحدة. تقول لسومايز: «تفضلي، اشربي كما تريدين.» غير أنه لم يكن بمقدور سومايز إنهاء ما طلبته أبداً. وهكذا تتركان نصف زجاجة من النبيذ الباهظ الثمن، دون أن تكترث ميو لذلك.

قالت سومايز لميو مرة: «طلب زجاجة نبيذ كاملة هدر للمال، فنحن لا نشرب إلا نصفها.»

ضحكت ميو وقالت: «لا تقلقي. كلما تركنا أكثر، كان باستطاعة أناس أكثر في المطعم تجريبه، الطباخ، رئيس الخدمة، الجميع حتى النادل الذي يملأ الكأس. بهذه الطريقة يبدأ الناس تذوق نبيذ جيد. لهذا ترك نبيذ باهظ الثمن لا يكون هدراً للمال أبداً.»

فحصت ميو لون نبيذ ميدوك 1986، وتذوّقته بلذّةٍ كما قد تتذوّق نصاً جميلاً.

«هذا مثل كل شيء - عليك أن تتعلم من تجربتك والدفع على طريقتك الخاصة. لا يمكنك تعلم ذلك من كتاب.»

تابعة خطى ميو، رفعت سوماير كأسها ورشفت قليلاً منها بحرص. حفظته في فمها ثم شربته. بقي تأثير الشراب لحظة، لكن بعد ثوان اختفى هذا مثل ندى صباح جديد على ورقة شجر صيفية. مثل هذه العملية تعدُّ الحنك لمذاقِ الطعام التالي. كانت سوماير تتعلم شيئاً جديداً كلما تناولت الطعام مع ميو أو تحدثت معها. دهشت سوماير من كثرة الأشياء التي عليها أن تتعلمها.

«أتعلمين، لم أفكر يوماً أني أود أن أكون شخصاً آخر!» اعترفت سوماير ذات مرة، وربما شجعتها كمية النبيذ غير المعتادة التي شربتها على ذلك فأردفت «لكني أفكر أحياناً كم رائع لو أني كنت مثلك.»

حبست ميو أنفاسها برهة، ثم رفعت كأسها وشربت رشفة. لثانية، صبغ الضوء عينيها بلون النبيذ القرمزي، وتلاشى تعبير وجهها الفطن المعتاد.

«أنتِ لا تدركين ذلك»، قالت بهدوء وأعادت كأسها إلى الطاولة، «لكن الشخص الجالس أمامك ليس هو ميو الحقيقية. نصفُ أنايَ مات قبل أربعة عشر عاماً. أتمنى لو أني قابلتك عندما كنت كاملة - كان ذلك ليكون أمراً رائعاً. لكن من غير المجدي التفكير في ذلك الآن.»

أُخذت سومابر على حين غرة فصمتت. وفقدت فرصة طرح بعض الأسئلة البديهية. ماذا حدث لميو قبل 14 سنة؟ لماذا أصبحت نصف ما هي عليه؟ وماذا تعني بنصف؟ زاد

هذا الإعلان المبهم من فتنة سوماير بميو أكثر وأكثر. فكرت، يا لهذه المخلوقة المروعة!

استطاعت سوماير أن تجمع من خلال شذرات الحديث مع ميو بعض الحقائق عنها. كان زوج ميو يابانياً يكبرها بخمس سنوات ويتكلم اللغة الكورية بطلاقة، وذلك نتيجة دراسته عبر برنامج تبادل الطلاب في قسم الاقتصاد في جامعة سيول. كان شخصاً لطيفاً جيداً في عمله ويمثل القوة التي توجه شركة ميو، وبالرغم من كونها شركة تديرها عائلة إلا أن أحداً لم يذكره قط بسوء.

تحلّت ميو بموهبة عزف البيانو منذ أن كانت طفلة صغيرة، وحازت في سنوات مراهقتها الجوائز الأولى في عدة مسابقات للشباب. التحقت بمدرسة الموسيقى ودرست على يد عازف شهير. تمكنت من الدراسة إثر توصية من مدرس في أكاديمية الموسيقى في فرنسا. تراوح أداؤها بشكل رئيس من الفترة الرومانسية وشومان ومنديلسون إلى بوليك، رافيل، بارتوك وبروكوفيف. جمع عزفها الأنغام الحسية العارمة مع تقنية شديدة الحساسية خالية من العيوب. أقامت أثناء دراستها حفلات موسيقية قوبلت جميعها بالترحاب. من المؤكد أن مستقبلاً مبهراً كان في انتظارها، لكن والدها أصيب بمرض أثناء دراستها في الخارج، فأقفلت ميو غطاء البيانو وعادت إلى اليابان، ولم تلمسه قط بعد ذلك.

سألت سوماير بتردد: «كيف يمكنك التخلي عن البيانو بهذه السهولة؟ إذا كنت لا تودين الحديث عن ذلك، لا بأس، لكني أجد - لا أدري - أن هذا غير عادي. أعني كان عليك التضحية بأشياء كثيرة لتصبحي عازفة بيانو، أليس كذلك؟»

قالت ميو بنعومة: «لم أضحِّ بأشياء كثيرة، لقد ضحيت بكل شيء. تطلب البيانو كل أونصة من الجسد وكل نقطة من الدم ولم أستطع الرفض ولا حتى مرة واحدة.»

«ألم تشعري بالأسف على ذلك. لقد كنت على وشك النجاح!»

حدقت ميو في عيني سوماير باحثة، نظرة عميقة ثابتة. عميقاً كما لو كانت تحدق في ماء ساكن في تيار سريع حيث تتنافس تيارات انعدام الكلمات بعضها مع بعض. ولم تهدأ هذه التيارات المتضاربة إلا بالتدرج فقط.

اعتذرت سوماير: «آسفة، لن أتدخل في ما لا يعنيني.»

«حسناً، ليس بمقدوري شرح ذلك بشكل جيد.»

ولم تتكلما في الموضوع بعد ذلك.

لم تسمح ميو بالتدخين في مكتبها، فهي تكره من يدخن أمامها، لذا عندما بدأت سوماير العمل قررت أن هذه فرصة مناسبة للتوقف عن التدخين. لم يجر الأمر بسهولة، حيث

إنها كانت تدخن علبتي مارلبورو في اليوم. بعد شهر، مثل حيوان كثيف الفراء قطع ذنبه، فقدت السيطرة العاطفية على الأشياء، أمر لم يكن قوياً على كل حال من قبل. وكما يمكن أن يظن راحت تتصل دوماً في منتصف الليل.

«كل ما أفكر فيه هو التدخين. لا يمكنني النوم إلا بصعوبة، وعندما أفعل تنتابني كوابيس. أعاني من الإمساك ولا أستطيع القراءة ولا كتابة سطر واحد.»

قلت: «الجميع يمرون بذلك عندما يتوقفون عن التدخين. في البدء على الأقل.»

ردت ببرودة: «من السهل تقديم الآراء ما دام الأمر يتعلق بالآخرين أليس كذلك؟ فأنت لم تدخن سيجارة واحدة في حياتك.»

«نعم، إذا لم يمكننا الإدلاء بآرائنا في الآخرين، فقد يصبح العالم مكاناً مرعباً، أليس كذلك؟ إذا كنت لا تظنين ذلك، انظري إلى ما فعله جوزيف ستالين.»

صمتت سومايو في الطرف الآخر من الخط برهة طويلة. صمت ثقيل كصمت أرواح ميتة على الجبهة الشرقية.

قلتُ: «آلو؟»

أخيراً تكلمت: «في الحقيقة، لا أعتقد أنني لا أستطيع الكتابة بسبب التوقف عن التدخين. قد يكون ذلك أحد

الأسباب، لكنه ليس السبب الوحيد. ما أعنيه أن التوقف عن التدخين مجرد عذر. كما تعلم أتوقف عن التدخين، لذا لا أستطيع الكتابة. لا شيء هناك يمكن فعله حيال ذلك».

«وهذا ما يزيد من انزعاجك؟»

قالت فجأة بوهن: «أعتقد ذلك. لست عاجزة عن الكتابة فقط، ما يزعجني حقاً أنه لم تعد لدي ثقة بالكتابة نفسها. قرأت ما كتبته مؤخراً فوجدته مملاً. فيمَ كنت أفكر؟ ذلك مثل النظر في حجرة ملقي فيها جوارب قذرة. أشعر بشيء بغيض لإدراكي طول الوقت والطاقة اللذين هدرتهما دون طائل.»

«حين يحدث ذلك، عليك الاتصال بشخص عند الثالثة صباحاً وإيقاظه - رمزياً بالطبع - من نومه السيميائي الهانئ».

قالت سوماير: «أخبرني، هل شعرت يوماً بالارتياح لما تقوم به، بمعنى أنه غير صحيح؟»

أجبت: «أقضي وقتاً مرتبكاً أكثر من أوقات بلا ارتباك.»

«هل أنت جاد فيما تقول؟»

«نعم».

نقرت سومايِر أسنانها الأمامية بأظافرها، واحدة من عاداتها العديدة عندما تفكر. «لم أشعر بالارتباك هكذا من قبل. لا يعني ذلك أنني أتمتع بالثقة ومتأكدة من موهبتي. لست جسورة إلى هذا الحد. أعلم أنني أعيش كيفما اتفق

وأنني أنانية، لكنني لم أشعر بالارتباك يوماً. ربما ارتكبت بعض الأخطاء في مسيرتي، غير أني شعرت دوماً أنني أسير في الطريق الصحيح.»

أجبت: «أنت محظوظة. مثل هطول مطر بعد زراعة الأرز.»

«ربما أنت محق.»

«لكن في هذه اللحظة لا تسير الأمور على ما يرام.»

«صحيح، ليست كذلك. أحياناً أرتعب كثيراً، كما لو أن كل ما قمت به كان خاطئاً. تنتابني بعض الأحلام الواقعية، فأستيقظ في منتصف الليل. ولا أستطيع لفترة معرفة ما الواقعي، وما ليس كذلك... هذا النوع من الشعور. هل لديك فكرة عما أتحدث عنه؟»

أجبت: «أعتقد ذلك.»

«يراودني تفكير كثير هذه الأيام ربما أيام كتابة الرواية قد انتهت. يسير العالم ببطء مع الفتيات البريئات الغبيات وأنا مجرد واحدة منهن، وواعية أنني أطارد أحلاماً لن تتحقق. عليَّ أن أقفل غطاء البيانو وأهبط من فوق خشبة المسرح قبل أن يتعذر فعل ذلك.»

«قفل غطاء البيانو؟»

«صورة مجازية.»

نقلت الهاتف من اليد اليسرى إلى اليمنى. «أنا متأكد من

شيء واحد. ربما أنت لست متأكدة لكنني متأكد أنك ستصبحين كاتبة رائعة يوماً ما. لقد قرأت ما كتبت وأعلم ذلك.»

«تعتقد ذلك حقاً؟»

قلت: «من صميم قلبي. لن أكذب عليك في شيء من هذا القبيل. ثمة مشاهد مرموقة في الأشياء التي كتبتها إلى الآن. لنفترض أنك كتبت عن شاطىء البحر في شهر مايو/ نيسان، عندها يمكننا سماع الريح في آذاننا وشم رائحة الهواء الملحية. يمكننا الإحساس بدفء الشمس الناعم على الذراع. إذا كتبت عن حجرة مليئة بدخان التبغ، يمكنك أن تراهني أن القارئ قد يبدأ في الشعور بأنه غير قادر على التنفس وعيناه تلسعان. يفوق نثر كهذا مقدرة معظم الكتاب. تتحلى كتابتك بقوة حيوية مفعمة بالحياة أو سريان شيء طبيعي فيها. لم ينتج شيء منها حتى الآن، لكن ذلك لا يعني أن هذا وقت إقفال غطاء البيانو.»

صمتت سومايرزهاء 10 إلى 15 ثانية. «لا تقول ذلك لتشعرني بالسعادة والفرح، أليس كذلك؟»

«كلا، هذه حقيقة لا يمكن نكرانها. واضحة وبسيطة.»

«مثل نهر مولدو؟»

«تماماً، مثل نهر مولدو.»

قالت: «شكراً.»

أجبت: «على الرحب والسعة.»

«أحياناً تكون أنت أحلى وأجمل شيء مثل عيد الميلاد وعطلات الصيف وجرو جديد، كلها مجتمعة معاً.»

وكعادتي عندما أسمع إطراءً غمغمتُ جواباً مبهماً.

أضافت: «لكن ثمة شيء يزعجني. ستتزوج يوماً ما فتاة لطيفة وتنساني، ولن يكون بإمكاني الاتصال بك في منتصف الليل كلما أردت ذلك. صحيح؟»

«يمكنك الاتصال في النهار.»

«النهار لا يصلح، أنت لا تفهم شيئاً، أليس كذلك؟»

اعترضت: «ولا أنت. معظم الناس يعملون بعد أن تشرق الشمس وتحيل الليل إلى نهار، وفي الليل ينامون.»

«لكن ربما كنت ألقي بقصائد رعوية على نفسي في منتصف رقعة أرض مزروعة بالقرع.» ثم أردفت دون وعي تام «كانت هناك مقالة منذ أيام في صحيفة تقول إن السحاقيات يولدن كذلك، إذ توجد عظمة صغيرة داخل آذانهن تختلف تماماً عن النساء الأخريات وهذا ما يميزهن عن الأخريات. عظمة صغيرة باسم معقد. وهكذا كون المرأة سحاقية ليس شيئاً مكتسباً، بل متوارثاً. اكتشف هذا طبيب أمريكي. لا أدري لماذا قام بمثل هذا البحث، لكن منذ أن قرأته لم أستطع التخلص من فكرة هذه القطعة العظمية عديمة الفائدة من رأسي، متسائلة عن شكل عظمة أذني.»

لم أدر بماذا أجيب. خيّم صمت علينا فجأة مثلما يصب زيت طازج في وعاء قلي كبير.

سألت: «هل أنت متأكدة من رغبتك الجنسية حيال ميو؟»

قالت سومایر: «متأكدة مئة بالمئة. حين أكون معها تبدأ هذه العظمة داخل أذني في الرنين مثل طنين ريح صدفة ناعم، وأريدها أن تحضنني وتدع كل شيء يأخذ مجراه. إذا لم تكن هذه رغبة جنسية، فلا بد أن ما يسري في عروقي عصير طماطم.»

قلت: «أم م م م». ما يمكنني القول في ذلك.

«هذا يفسر كل شيء. لماذا لا أريد تعاطي الجنس مع أي رجل. لماذا لا أحس بأي شيء. لماذا أعتقد دوماً بأنني مختلفة عن الآخرين.»

سألت: «هل تمانعين في الاستماع إلى رأيي التافِه هنا؟»

«حسناً».

«في أي شرح أو منطق يفسر كل شيء بسهولة شرك خفي. أتكلم عن خبرة. قال شخص مرة إذا كان بإمكان كتاب تفسير أمر ما، فذلك يعني أن الأمر لا يستحق الشرح. ما أقصده أن لا تقفزي إلى أي استنتاجات.»

قالت سومایر: «سأتذكر ذلك» وانتهت المكالمة على نحو مفاجئ.

تخيلتها تعيد سماعة الهاتف إلى مكانها وتخرج من كشك الهاتف. كانت ساعتي تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً. ذهبت إلى المطبخ، شربت كأس ماء، عدت إلى فراشي طلباً للدفء، وأغمضت عيني، غير أن النوم جافى عينيَّ. فتحت الستارة قليلاً، رأيت القمر سابحاً في السماء مثل يتيم شاحب لمّاح النظرة. عرفت أني لن أعود إلى النوم. أعددتُ قهوة جديدة، أخذت مقعداً قرب النافذة، جلست هناك أطحن بأسناني بعض الجبن والبسكويت، وأقرأ في انتظار الفجر.

5

آن الأوان لكي أتكلّم قليلاً عن نفسي.

تدور هذه القصة بالطبع حول سوماير وليس حولي أنا، ولكن بما أنني الراوي الذي يسرد حكاية سومايرِ بحسب ما تراه عيناه، يبدو لي من المنصف أن أشرح لكم مَن أكون

أجد صعوبة في الحديث عن نفسي.

أتلعثم دوماً في العبارة السرمدية المنطوية على تناقض ظاهري «من أنا؟». مؤكد أن أحداً لا يعرف معلومات تامة عني أكثر مني. لكن حين أتكلم عن نفسي تحيلني كل أنماط العوامل الأخرى - القيم، المعايير، قيودي الخاصة كملاحظ - إلى الراوي الذي يختار ما يروق له ويتغاضى عما لا يروق له. كثيراً ما أزعجني التفكير أني لا أقدم صورة موضوعية عن نفسي.

لا يبدو أن مثل هذا يزعج معظم الناس. إذا أتيحت لهم الفرصة، فمن المدهش أنهم يتكلمون عن أنفسهم بصراحة. «أنا صادق ومنفتح إلى درجة سخيفة.» سيقولون، أو «أنا

رقيق المشاعر ولست من النوعية التي تفلح في تدبير أمورها في العالم بسهولة.» أو «أنا جيد في معرفة مشاعر الآخرين الحقيقية.» لكن كلما رأيت من يقولون إنهم يؤذون أو يتسببوا في إلحاق الأذى بالآخرين بسهولة دون سبب ظاهر، أناس صادقون ينتحلون الألقاب ومنفتحون دون إدراك ما يقومون به، ويستخدمون ذريعة خدمة أنفسهم ببهجة لنيل ما يريدون، وهؤلاء «الجيدون في معرفة مشاعر الآخرين» الذين يخدعون بأعظم إطراء شفاف، فإن ذلك كافٍ لجعلي أتساءل: ما مدى جودة معرفتنا الحقيقية لأنفسنا؟

كلما راودتني الفكرة اختلقت أعذاراً لكي لا أفعل، وأجّلت ذلك. ما أود معرفة المزيد عنه هو الواقع الموضوعي للأشياء الكائنة خارجي. ما أهمية العالم الخارجي بالنسبة لي؟ وكيف أحافظ على حس توازن عبر التوافق معه. هكذا يمكنني أن أصل إلى فهم أوضح لما أنا عليه.

هذه النوعية من الأفكار التي كانت تراودني حين كنت مراهقاً. ومثل بنّاء يرخي ويشد خيطه بإحكام ويضع لبنة تلو أخرى، شكلت وجهة النظر هذه - أو فلسفة الحياة. لعب المنطق والتأمل دوراً في تكوين وجهة النظر هذه وإن انبعث معظمها من تجاربي الخاصة. على ذكر التجارب، علمتني سلسلة أحداث مؤلمة أن نقل وجهة نظري إلى الآخرين لم يكن أسهل ما في الوجود.

نتج عن كل ذلك أني بدأت، عندما كنت يافعاً، في رسم

حدود خفية بيني وبين الآخرين مهما كان الشخص الذي أتعامل معه. حافظت على مسافة فاصلة مراقباً بحذر سلوك الآخر حتى لا يدنو مني أحد. لم أقتنع بما أخبرني به الناس. كانت الكتب والموسيقى ما رغبت به فقط. وكما يمكنكم التوقع، عشت حياة وحيدة.

عائلتي ليست مميزة، في الواقع هي عادية ولا أدري من أين أبدأ. تخرّج والدي من الجامعة المحلية حيث حصل على شهادة في العلوم وعمل في مختبر أبحاث تابع لمصنع ضخم مختص بالطعام. كان يحب رياضة الغولف ويذهب كل يوم أحد إلى الملعب. كانت أمي مغرمة بشعر تنكا وكثيراً ما تحضر حفلات إلقاء الشعر. كانت تسر لأيام مثل قبرة كلما ذكر اسمها في قسم الشعر في الصحيفة. كانت تحب التنظيف وتكره الطهي. أما أختي التي تكبرني بخمس سنوات فلم تكن تحب التنظيف ولا الطهي. قررت أن هذه أشياء يفعلها الآخرون وليس هي. ما يعني بقائي في المطبخ منذ أن بلغت سناً مناسبةً لأحضّر كل وجباتي. اشتريت بعض كتب الطهي وتعلمت كيف أحضّر كل شيء تقريباً. كنت الطفل الوحيد الذي أعرفه والذي يعيش هكذا.

ولدت في سوجينامي، لكننا انتقلنا إلى تسودانوما في مقاطعة سيبا عندما كنت صغيراً ونشأت هناك. كان الحي مكتظاً بعائلات الياقات البيضاء مثلنا. كانت أختي الأولى في فصلها دوماً، إذ لم تتحمل أن لا تكون الأفضل ولم تخط

خطوة خارج دائرة اهتمامها. لم تأخذ كلبنا قط - ولا حتى مرة - إلى الخارج. تخرجت من كلية الحقوق في جامعة طوكيو ونجحت في امتحان المحكمة في السنة التالية، ليس عملاً خارقاً. زوجها مستشار إداري عدواني. يعيشان في شقة من أربع غرف اشترياها في بناية مشتركة أنيقة قرب حديقة يويوجي، وإن كانت في الداخل مثل زريبة خنازير.

كنت نقيض أختي، لست أولاً في الدراسة ولا علاماتي تثير اهتماماً. لم أطلب أي تعاطف من والدي، لذا كنت أذهب إلى المدرسة وأقوم بأقل قدر ممكن من الدراسة وأداء الواجبات للنجاح فقط. في ما تبقى من الوقت كنت ألعب كرة القدم وأستلقي على فراشي حين أصل إلى البيت لأقرأ رواية تلو أخرى، دون قضاء الساعات المعتادة من حشو الدماغ بالمعلومات بعد ساعات الدراسة مع مدرس خصوصي. مع ذلك لم تكن علاماتي سيئة جداً. فكرت أنه وفق هذه المعطيات يمكنني دخول كلية محترمة دون قتل نفسي بالدراسة لامتحانات الدخول. وهذا بالضبط ما حدث.

بدأت الدراسة الجامعية وعشت وحدي في غرفة صغيرة. حين كنت أعيش في بيتي في تسودانوما، كنت بالكاد أتحدث بصراحة من القلب إلى القلب مع عائلتي. كنا نعيش معاً تحت سقف واحد، غير أن والديَّ وأختي كانوا غرباء بالنسبة لي، ولم تكن لدي فكرة عما يريدون من الحياة. الأمر نفسه يصدق فيهم - لم تكن لديهم فكرة عن أي نوع من البشر أنا

وما أرنو إليه. لا يعني هذا أني كنت أعرف ما أريده من الحياة - لم أعرف. أحببت قراءة الروايات للتسلية، لكني لم أكتب بشكل جيد لأصبح روائياً، كما لم يكن من الوارد أن أصبح محرراً أو ناقداً حيث إن ذوقي كان متطرفاً. قررت أن الروايات للمتعة الشخصية الخالصة، وليست جزءاً من العمل أو الدراسة، ما يفسر عدم دراستي الأدب بل التاريخ. لم أهتم بالتاريخ بشكل خاص، لكن ما إن شرعت في دراسته حتى وجدته موضوعاً ساحراً. لم أخطط للذهاب إلى مدرسة عليا وتكريس حياتي للتاريخ أو شيء من هذا القبيل، وإن اقترح مستشاري في الدراسة ذلك. استمتعت بالقراءة والتفكير، لكني لم أكن من النوعية الأكاديمية. كما قال بوشكين:

لم تكن لديه رغبة في الكد سعياً وراء عظمة
عميقاً في قذارة الأيام.

لم يعن كل ذلك أني كنت على وشك العثور على وظيفة في شركة عادية، شاقاً طريقي عبر منافسة قاسية والتقدم صاعداً خطوة تلو خطوة المنحدرات الزلقة للهرم الرأسمالي. وهكذا انتهيت إلى اختيار أن أصبح مدرساً. كانت المدرسة تبعد بضع محطات فقط بالقطار. حدث أن كان عمي عضواً في المجلس التعليمي لتلك البلدة وسألني إن كنت أود أن أصبح مدرساً. لم آخذ كل دورات تدريب المدرسين، لذا

وظفت كمساعد مدرس. بعد فترة قصيرة من التصفيات تأهّلت كمدرس. لم أخطط لأن أصبح مدرساً. غير أني اكتشفت بعد أن أصبحت مدرساً احتراماً أعمق ومحبة للمهنة أكثر مما تصورت. في الواقع وبدقة أعظم ينبغي القول إني اكتشفت نفسي.

أقف أمام طلاب الفصل، يشتمل التعليم الابتدائي على أساسيات اللغة وحقائق الحياة والعالم، فأجد أني أتعلم هذه الحقائق مرة أخرى - مصفّاة عبر عيون وعقول هؤلاء الأطفال. إذا قدمت بشكل صحيح، فإن هذه تجربة تعيد النشاط والحيوية. وهي حتى عميقة. انسجمت مع تلاميذي وأمهاتهم وزملائي المدرسين.

مع ذلك، بقي السؤال الرئيس عالقاً بي: من أنا؟ ما الذي أبحث عنه؟ إلى أين أنا ذاهب؟

أدنو من الإجابة على هذه الأسئلة أكثر عندما أتكلم مع سوماير. أصغي إلى ما تقوله بانتباه أكثر مما أتكلم عن نفسي. تطرح عليَّ كل أنماط الأسئلة التي لا أستطيع الإجابة عليها أو إذا كانت إجابتي غير معقولة، صدقوني إنها تخبرني بذلك. على نقيض الآخرين، تود بصدق وإخلاص الاستماع لما أقوله. بذلت قصارى جهدي لإجابتها وساعدتني أحاديثنا على الانفتاح أكثر والحديث عن نفسي معها - وفي الوقت نفسه مع نفسي.

كلما التقينا، سوماير وأنا، كنا نقضي ساعات في الحديث دون كلل، ولم تنتهِ المواضيع التي نتحدث عنها - الروايات، العالم، المشاهد الجميلة، اللغة. كانت أحاديثنا أكثر انفتاحاً وحميميّة من أي عاشقين.

فكرت دائماً، كم هو رائع لو كنا حبيبين فعلاً. تقت إلى ملامسة دفء بشرتها لبشرتي. تصورت أننا زوجان ونعيش معاً. لكن كان عليَّ قبول حقيقة أن ليس لدى سوماير مشاعر رومانسية تجاهي، ناهيك عن الاهتمام الجنسي. أحياناً كانت تمكث في شقتي بعد أن نتكلم حتى ساعة متأخرة، لكن لم تكن هناك أدنى إشارة رومانسية. حين تبلغ الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، تتثاءب، تنسل إلى فراشي، يغطس رأسها في وسادتي وتنام بسرعة. أفرش بعض الأغطية على الأرض، أستلقي دون قدرة على النوم وذهني مليء بالتخيلات والأفكار المرتبكة والاشمئزاز من ذاتي. أحياناً تسبب ردود الفعل الجسدية التي لا مفر منها الحزن لي، فأستلقي مستيقظاً تعيساً حتى الفجر.

كان من الصعب قبول أنها لا تملك مشاعر إلى حد ما، ربما لا شيء قط، نحوي كرجل. سبّب ذلك ألماً لي أحياناً وشعرت كما لو أن شخصاً يثقب أحشائي بسكين. مع ذلك، كان الوقت الذي أقضيه معها أثمن من أي شيء آخر. ساعدتني على نسيان مسحة الوحدة في حياتي. وسّعت الأطراف الخارجية لعالمي وساعدتني على استنشاق نفساً

هميقاً مسكّناً. كان بإمكان سومايرٍ وحدها فعل ذلك لي.

لكي أخفف من الألم، وكما أملت، التخلص من أي توتر جنسي بيني وبين سوماير، رحت أنام مع نساء أخريات. ليس لأني رجل خارق مع النساء. لم أكن كذلك. لم أكن ما يمكن تسميته رجل السيدات، ولا أدعي التحلي بأي مفاتن خاصة. لكن لأسباب ما جذبت بعض النساء نحوي، واكتشفت أني إذا تركت الأمور تسير على سجيتها، فليس من الصعب النوم معهن. لم تثر هذه العلاقات القصيرة قط رغبة جامحة في داخلي، كانت في أفضل الأحوال نوعاً من الراحة.

لم أخفِ علاقاتي عن سوماير. لم تعرف كل التفاصيل الدقيقة، بل مجرد الخطوط العامة الرئيسة. لم يبدُ أن ذلك يزعجها. إذا كان هناك ما يزعج في علاقاتي، فهو أن تلك النساء كنّ أكبر مني سناً أو متزوجات أو مخطوبات أو لهن أصدقاء. آخر عشيقاتي كانت أم أحد تلاميذي. كنا ننام معاً مرتين في الشهر.

حذرتني سوماير مرة: «قد يكون في ذلك هلاكك.»

وافقتها الرأي، لكن لم يكن هناك ما بوسعي فعله إزاء ذلك.

ذات يوم سبت من مطلع شهر يوليو/تموز اصطحبت

تلاميذي في نزهة. أخذت تلاميذي الخمسة والثلاثين كلهم لتسلق جبل في أوكوتاما. بدأ اليوم بجو من الإثارة المبهجة، لكنه انتهى إلى فوضى عارمة. عندما وصلنا القمة، اكتشف طفلان أنهما نسيا وضع وجبة غدائهما في حقيبة الظهر، ولم تكن هناك أي دكاكين في الجوار، لذا أجبرت على تقاسم غدائي الذي زودتني به المدرسة معهما، ما لم يترك لي شيئاً لتناوله. أعطاني تلميذ بعض الشوكولا، وكان هذا كل ما تناولته طوال النهار. علاوة على ذلك قالت فتاة إنها غير قادرة على السير أكثر من ذلك، لذا حملت حقيبتها طوال فترة هبوط الجبل. ثم راح طفلان يتعاركان، في ما يشبه المزاح، فوقع أحدهما وصدم رأسه بصخرة ما أدى إلى رضة طفيفة في الجمجمة ونزيف في الأنف. لم يكن الأمر خطيراً، لكن قميصه غطي بالدم كما لو كان في مسلخ. فوضى عارمة، كما قلت.

حين عدت إلى البيت، كنت تعباً مثل عارضة خشبية في خط السكة الحديد. استحممت، احتسيت شراباً بارداً وهجعت في الفراش غير قادر على التفكير. أطفأت النور وداهمني سبات عميق. رن الهاتف بعد حين، مكالمة من سوماير. نظرت إلى الساعة القريبة من سريري. كنت قد نمت قرابة الساعة، لكني لم أتذمر من شدّة تعبي. تكون بعض الأيام هكذا.

سألتني: «هل يمكن أن أراك غداً بعد الظهر؟»

كانت صديقتي قادمة إلى شقتي الساعة السادسة بعد الظهر، ويفترض أن تضع عربتها التويوتا سيليكا في مكان في آخر الشارع. قلت: «أنا غير مشغول حتى الساعة الرابعة.»

كانت سومابر ترتدي قميصاً أبيض اللون دون أكمام وتنورة زرقاء قصيرة زرقاء داكنة، ونظارة شمسية صغيرة. زينتها الوحيدة كانت دبوس شعر صغيراً من البلاستيك. حلة بسيطة. لم تكن تضع المساحيق تقريباً، بل معروضة على العالم في شكلها الطبيعي. لم أتعرف عليها في البدء. كنا قد تقابلنا قبل ثلاثة أسابيع آخر مرة، غير أن الفتاة التي تجلس قبابلي بدت كمن ينتمي إلى عالم مختلف تماماً عن سومابر التي عرفتها. لوصف ذلك ببساطة أقول إنها ككل كانت جميلة، ويزهر شيء في داخلها.

طلبتُ كأس جعة وطلَبُت هي عصير عنب.

قلت: «بالكاد أعرفك هذه الأيام».

قالت دون اهتمام وهي ترشف شرابها بواسطة مصاصة: «إنه ذلك الفصل.»

سألت: «أي فصل؟»

«المراهقة المتأخرة، على ما أعتقد. حين أستيقظ في الصباح وأرى وجهي في المرآة، أبدو كشخص آخر. إذا لم أتوخَّ الحذر، فقد أُترك في المؤخرة.»

قلت: «إذاً، أليس من الأفضل أن تدعي الأمر يمر على سجيته؟»

«لكن إذا خسرت نفسي، فإلى أين يمكنني الذهاب؟»

«إذا كان ليومين، يمكنك البقاء في شقتي. أنت دوماً على الرحب والسعة - أنت التي فَقَدَتْ أنت.»

ضحكت سوماير.

قالت: «لندع المزاح جانباً. إلى أين أنا سائرة؟»

«لا أدري. انظري إلى الجانب المتفائل - لقد توقفت عن التدخين، وترتدين ملابس نظيفة - حتى جواربك متناسقة الآن، وتستطيعين تكلم الإيطالية. تعلمت الحكم على النبيذ واستخدام الكومبيوتر. على الأقل تذهبين الآن للنوم في الليل والاستيقاظ في الصباح. لا بد أنك سائرة إلى مكان ما.»

«لكن ما زلت عاجزة عن كتابة سطر واحد.»

«لكل شيء صعود وهبوط.»

ضمت سوماير شفتيها «هل يمكن وصف ما أمرّ به الآن ردة؟»

«ردة؟» لم أفهم للحظة ما عنت.

«ردة. خيانة لمعتقداتك وقناعاتك.»

«تقصدين الحصول على وظيفة، واللبس الجيد والتخلي عن كتابة الروايات؟»

«صحيح».

هززت رأسي: «لقد كتبت دوماً لأنك أردت ذلك. إذا كنت لا ترغبين في الكتابة، لا تقومي بذلك؟ هل تعتقدين أن عدم كتابتك سيتسبب في حرق قرية وتدميرها؟ وغرق سفينة؟ وحصول فيضانات مخرّبة؟ أو إعادة الثورة خمس سنوات إلى الوراء؟ لا أعتقد أن أحداً سيلاحظ هذه الردة.»

«ماذا أدعوها إذاً؟»

هززت رأسي مرة أخرى. «كلمة ردة قديمة الآن ولا أحد يستخدمها. إذا ذهبت إلى كوميون من بقايا الماضي ربما تجدين هناك من يستعمل هذه الكلمة. لا علم لي بالتفاصيل، لكن إذا كنت لا تريدين الاستمرار في الكتابة، فإن ذلك يعود لك.»

«كوميون؟ تعني الأماكن التي أنشأها لينين؟»

«تلك تسمى كولوخوز، ولم يبق منها شيء.»

قالت سومير: «ليس أني أريد ترك الكتابة» ثم بعد لحظة تفكير «لكن حين أحاول الكتابة لا أستطيع. أجلس خلف مكتبي ولا شيء يأتي - لا أفكار ولا كلمات ولا مشاهد. صفر. ليس قبل فترة طويلة، كانت لدي ملايين الأشياء لأكتب عنها. ماذا حدث لي؟»

«تسأليني؟»

أومأت سومير برأسها.

رشفت قليلاً من شرابي ولملمت أفكاري. «أعتقد أنك

الآن تتأهبين لوضع نفسك في إطار روائي جديد. أنت منهمكة فيه، لذا لا داعي لوضع مشاعرك على الورق. علاوة على ذلك، أنت مشغولة جداً الآن.»

«هل تقوم أنت بذلك؟ تضع نفسك في إطار روائي؟»

«أعتقد أن معظم الناس يعيشون في رواية وأنا لست حالة استثنائية. فكري في ذلك كجهاز نقل حركة العربة، فهو يشبه جهاز نقل حركة يقف بينك وبين حقائق الحياة القاسية. تأخذين الطاقة الخام من الخارج وتستخدمين ناقل الحركة لتعديل ذلك ليصبح كل شيء جيداً في الترتيب المتزامن للأحداث. هكذا تُبقين جسدك الهش سليماً. هل لهذا الكلام معنى؟»

أومأت سوماير برأسها قليلاً «أنا لست مهيأة تماماً لإطار العمل هذا. هذا ما تود أن تقوله؟»

«المشكلة الكبرى الآن أنك لا تعرفين أي نوع من الروايات تتعاملين معه. لا تعرفين الموضوع كما أن الأسلوب لم يتبلور بعد. الشيء الوحيد الذي تعرفينه هو اسم الشخصية الرئيسة. مع ذلك، هذه الرواية الجديدة تعيد تكوينك. امنحيها بعض الوقت، ستظلك تحت جناحها وقد تلمحين بصيص نور عالم جديد، لكنك لم تصلي إلى تلك المرحلة بعد، ما يجعلك في موضع قلق وعدم استقرار».

«تعني أني تخلصت من جهاز نقل الحركة القديم، لكني

لم أنته من ضبط الجهاز الجديد؟ المحرك ما زال يعمل، أليس كذلك؟»

«يمكنك قول ذلك.»

تجهم وجه سوماير كالعادة وضربت الثلج التعيس بالمصاصة محاولة إذابته في قعر كأسها. أخيراً رفعت نظرها إلى أعلى.

«أفهم ما تعني بالقلق وعدم الاستقرار. أحياناً أشعر، لا أدري، بالوحدة. ذاك الشعور بالعجز حين يتمزق كل شيء أنت معتاد عليه، كما لم تعد هناك جاذبية، وتركت لأهيم في الفضاء الخارجي دون معرفة إلى أين أنا ذاهبة.»

«مثل سبوتنيك صغير ضائع؟»

«أظن ذلك. نعم»

قلت: «لكن لديك ميو!»

«على الأقل الآن.»

ساد الصمت برهة.

سألت: «هل تعتقدين أن ميو تبحث عن ذلك أيضاً.»

أومأت سوماير: «أعتقد ذلك. ربما مثلي تماماً.»

«بما في ذلك النواحي الجسدية؟»

«من الصعب قول ذلك. ليس بوسعي معرفة ذلك بعد. أعني ما هي مشاعرها. يشعرني ذلك بالضياع والارتباك.»

قلت: «لغز كلاسيكي.»

عوض الإجابة، ضمت سومايز شفتيها ثانية.

قلت: «لكن فيما يعنيك أنت، هل أنت مستعدة للذهاب؟»

أومأت سومايز برأسها مرة أخرى بشكل جلي. لم يكن من الممكن أن تكون أكثر جدية. غصت عميقاً في مقعدي وضممت يديَّ خلف رأسي.

قالت سومايز: «بعد كل ذلك، لا تشرع في كرهي!»

كان صوتها مثل جملة في أحد أفلام جان لوك جودار القديمة بالأبيض والأسود، يدلف ما وراء إطار وعيي.

«بعد ذلك لن أشرع في كرهك.»

رأيت سومايز بعد ذلك بأسبوعين ذات يوم أحد، حين ساعدتها في الانتقال. قررت الانتقال فجأة وكنت الوحيد الذي جاء لمساعدتها. ما عدا الكتب، لم تكن تملك أشياء كثيرة لذلك أنجزنا المهمّة بسرعة. على الأقل كان ذلك الشيء الجيد في كون المرء فقيراً.

استعرت عربة نقل صغيرة من نوع تويوتا من صديق ونقلت حاجياتها إلى المكان الجديد في يويوجي- أهيرا.

لم تكن الشقة جديدة ولا جميلة، لكن مقارنة ببنايتها الخشبية القديمة في كيشيجوجي، بناية ينبغي وضعها في قائمة

المواقع التاريخية، كانت ولا ريب خطوة إلى الأمام. وجد ركيل تأجير بنايات من أصدقاء ميو الشقة لها، وبالرغم من موقعها المناسب كانت أجرة الشقة معقولة وتطل على منظر جميل. علاوة على ذلك، كانت مساحتها ضعف مساحة الشقة القديمة. كانت تستحق الانتقال إليها دون شك، كما كان موقف سيارات يويوجي قريباً وبإمكانها الذهاب إلى عملها سيراً على الأقدام إذا رغبت في ذلك.

قالت: «بدءاً من الشهر القادم، سأبدأ في العمل خمسة أيام في الأسبوع. ثلاثة أيام في الأسبوع تبدو لا هنا ولا هناك، ومن السهل تحمل الذهاب والعودة من العمل إذا قمت بذلك كل يوم. يجب أن أدفع أجرة أعلى الآن وقد أخبرتني ميو أن من الأفضل إذا أصبحت موظفة كاملة. أعني إذا بقيت في البيت، فلن أستطيع الكتابة في كل الأحوال.»

قلت: «تبدو فكرة جيدة.»

«ستنتظم حياتي إذا عملت كل يوم، وربما لن أتصل بك الساعة 3:30 صباحاً. وهو أمر جيد أيضاً.»

قلت: «نقطة جيدة جداً. لكن من المحزن التفكير في أنك تسكنين بعيداً عني.»

«هل تشعر بذلك حقاً؟»

«طبعاً. هل تريدين أن أفتح قلبي وأريك ما فيه!»

كنت أجلس على الأرضية العارية في شقتها الجديدة

وأستند إلى الحائط. كانت سوماير تفتقر إلى حاجيات البيت فبدا المكان الجديد مهجوراً. لم تكن هناك ستائر على النوافذ وتراكمت الكتب التي لم تناسب الرفوف في أكوام على الأرضية كمجموعة من المثقفين المهاجرين. كانت المرآة الطويلة على الحائط، هدية متنقلة من ميو، الشيء الوحيد المنتصب. دلف نعيب غربان الحديقة مع نسيم الشفق. جلست سوماير بجانبي. قالت: «هل تعلم؟»

«ماذا؟»

«إذا كنت سحاقية تافهة، فهل ستبقى صديقي؟»

«سواء كنت سحاقية تافهة أو لا، لا أهمية لذلك. تصوري شريط «أفضل أغاني بوبي دارين» من دون أغنية «ماك ذا نايف» هكذا ستكون حياتي من دونك.»

أغمضت سوماير عينيها قليلاً ونظرت إليَّ «لست متأكدة من فهمي للمجاز، لكن ما تعنيه أنك قد تشعر بالوحدة؟»

«تقريباً».

أسندت سوماير رأسها إلى كتفي، كان شعرها مربوطاً إلى الخلف بدبوس شعر وبإمكاني رؤية أذنيها الصغيرتين الجميلتين، أذنين جميلتين لدرجة يحسب المرء أنهما خلقتا قبل وهلة، ناعمتين سهلتي الجرح. كنت أحس بتنفسها على بشرتي. كانت ترتدي سروالاً قصيراً قرنفلي اللون وقميصاً رياضياً أزرق داكناً باهتاً بسيطاً يظهر حلمتيها الصغيرتين.

وهناك رائحة عرق خفيفة، عرقها وعرقي، اختلطت الرائحتان برقة.

أردت أن أحضنها واستحوذت عليَّ رغبة عنيفة بطرحها أرضاً في التو واللحظة، لكني كنت أعلم أن ذلك جهد بلا طائل. فجأة وجدت صعوبة في التنفس وضاق مدى رؤيتي. لقد الزمن وقعه ودارت عجلاته. تعاظمت الرغبة منتفخة في بنطلوني صلبة كالصخر. ارتبكت وتحيّرت. حاولت السيطرة على نفسي. استنشقت هواء ملء رئتيّ. أغمضت عيني وفي تلك العتمة غير المفهومة رحت أعد ببطء. كانت رغباتي مفرطة حتى أن الدموع بللت عيني.

قالت سوماير: «أميل إليك أيضاً في هذا العالم الكبير أكثر من أي شخص آخر.»

قلت: «تعني بعد ميو!»

«ميو مختلفة قليلاً».

«كيف ذلك؟»

«مشاعري نحوها مختلفة عن مشاعري نحوك. ما أعنيه... كيف أعبّر عن ذلك؟»

قلت: «نحن التافهين الراغبين في الجنس الآخر لدينا مصطلح لذلك. نقول لديك انتصاب.»

ضحكت سوماير «ما عدا رغبتي في أن أصبح روائية، لم أرغب قط في أي شيء آخر بهذه القوّة. كنت دوماً راضية عن

القليل الذي أملكه، لكن الآن، في هذه اللحظة، أنا أشتهي ميو، أُريدها، بقوّة. أريدها وأريد أن تكون لي. يجب أن تكون لي. ما من خيار آخر، على الإطلاق. ليست لدي فكرة لماذا تسير الأمور هكذا. . . هل لهذا معنى؟»

أومأت برأسي وكان عضوي ما يزال محافظاً على انتصابه القوي. تمنيت أن لا تلاحظ سوماير ذلك.

قلت: «هناك قول مأثور لجروشو ماركس - إنها تحبني ولا تعرف شيئاً، لهذا تحبني.»

ضحكت سوماير.

قلت: «أتمنى أن تسير الأمور على ما يرام. لكن ابذلي قصارى جهدك لتبقي يقظة. تذكري أنك ما زلت غير حصينة.»

دون أن أنبس بحرف أخذت سوماير يدي وشدت عليها بلطف. كانت يدها الصغيرة مكسوّة بريقٍ خفيف من العرق. تخيلت يدها تمس عضوي الصلب كالصخر. حاولت عدم التفكير في ذلك، لكني لم أستطع. لم تكن هناك خيارات، كما قالت سوماير. تصورت أني أخلع قميصها الرياضي وسروالها القصير وملابسها الداخلية، أحس بحلمتَي نهديها الصلبين المتوترين تحت لساني. أفتح ساقيها وأدخلُ الموضعَ الرطبَ بطيئاً إلى العتمة العميقة التي تغويني بالدخول لتلفني

لم تدفعني إلى الخارج. . . استحوذ التصور عليَّ ولم يود مفارقتي. أغمضت عيني بشدة مرة أخرى وتركت برهة زمنية مركزة تغمرني. خفضت وجهي وانتظرت بصبر ريثما يهبّ عليّ هواء حار ثم يبتعد.

سألتني «لم لا نتناول العشاء معاً؟» لكن كان عليَّ إعادة العربة إلى هينو قبل نهاية النهار، وكان عليَّ البقاء وحيداً مع رغباتي الملحة العنيفة. لم أود أن تدخل سوماير أكثر مما هي فيه. لم أدر كم يمكنني السيطرة على نفسي إن كانت بجانبي. إذا تجاوزت نقطة اللاعودة، فقد أفقد السيطرة على نفسي تماماً.

«حسناً، إذن دعني أدعوك إلى عشاء راقٍ قريباً، غطاء مائدة ونبيذ، ربما الأسبوع القادم.»

وعدت سومايو أثناء وداعها لي قائلة: «لا تنشغل الأسبوع القادم!»

«حسناً» قلت.

نظرت إلى المرآة الطويلة عندما مررت ولمحتُ وجهي، الذي اعتلاه تعبير غريب. صحيح أنه وجهي، لكن من أين جاءت تلك النظرة؟ لم أشعر بالعودة إلى تتبع خطواتي وإجراء مزيد من التقصي.

وقفت سومایر في مدخل شقتها الجديدة لتودعني. لوحت لي بيدها مودعة، الأمر الذي نادراً ما تفعله.

في النهاية ومثل عديد من الوعود الجميلة في حياتنا، لم يحصل هذا العشاء، إذ في بداية شهر أغسطس/آب استلمت منها رسالة طويلة.

6

كان على الرسالة طابع بريد إيطالي كبير ملون وختم روما وإن لم أتبيَّنْ متى أرسلت.

خرجت في اليوم الذي وصلت فيه الرسالة إلى شينجوكو للمرة الأولى منذ فترة واشتريت كتابين جديدين من مكتبة كينوكوينيا، ثم شاهدت فيلماً من إخراج لوك بيسون. عرجت بعد ذلك على قاعة شراب واستمتعت ببيتزا سمك آنشوفي وقدح كبير من الجعة السوداء.

سبقت ساعة الزحام بقليل، أخذت قطار خط شيو ورحت أقرأ أحد كتابيّ الجديدين حتى وصلت إلى البيت في كونيتاشي. خططت لعشاء بسيط ومشاهدة مباراة في التلفزيون. الطريقة المثلى لقضاء عطلة صيفية تأتي عبر الشعور بالدفء وحيداً وحراً دون أن تزعج أحداً أو يزعجك أحد.

عندما عدت إلى البيت وجدت الرسالة على ممسحة العتبة. لم يذكر اسم المرسل على الرسالة لكن نظرة إلى

الخط أنبأتني أنها من سوماير. كتابة هيروغليفية مكتنزة قاسية ومتصلبة. كتابة ذكرتني بالخنافس التي اكتُشفت داخل الأهرام في مصر. كما لو أنها ستبدأ الزحف ثم اختفت عائدة إلى عتمة التاريخ.

روما؟

وضعت الطعام الذي اشتريته من السوبرماركت في الثلاجة وسكبت لنفسي كأساً طويلة من الشاي المثلج. جلست على كرسي في المطبخ، فتحت المغلف بسكين تقشير خضار وقرأت الرسالة. خمس ورقات عليها شارة فندق اكسلزيور روما مسوّدة بكتابة منمنمة الحروف، مدوّنة بالحبر الأزرق. لا بد أن كتابتها استغرقت وقتاً طويلاً. في الصفحة الأخيرة، وفي إحدى الزوايا، كانت هناك بقعة قهوة.

كيف حالك؟

يمكنني تصور كم ستدهش لاستلامك رسالة فجأة مني مرسلة من روما. أنت بارد الأعصاب، ربما تحتاج إلى أكثر من روما لإدهاشك. روما مدينة سياحية. كان من المفترض أن تأتيك من مكان مثل جرينلاند، تيمبوكتو أو مضيق ماجلان لتدهشك، أليس كذلك؟ مع ذلك يمكنني أن أخبرك أني أجد صعوبة في تصديق أنني هنا في روما.

على أي حال، آسفة لعدم تمكني من دعوتك على العشاء

كما خططنا. جاءت هذه الرحلة إلى أوروبا مفاجئة بعد انتقالي بقليل. ثم مرت بضعة أيام مجنونة من الركض للحصول على جواز سفر وشراء حقائب وإنجاز بعض الأعمال التي كنت قد شرعت بها. لست جيدة في تذكر الأشياء - لا حاجة لي بإخبارك بذلك، أليس كذلك؟ لكنني أبذل كل ما بوسعي للوفاء بوعودي التي أذكرها. لهذا أود الاعتذار لعدم وفائي بما قطعت من وعد.

أستمتع حقاً بشقتي الجديدة. كان الانتقال بالطبع صعباً (أعلم أنك قمت بمعظم العمل، وأنا شاكرة لذلك، مع ذلك كان صعباً)، لكن عندما يستقر المرء يصبح ذلك ممتعاً. ليس هناك صياح ديكة في محل إقامتي الجديد كما في كيشيجوجي، عوض ذلك هناك كثير من الغربان تُحدث صخباً مثل بعض العجائز الباكيات.

تجتمع مجموعة منها في الصباح في حديقة يويوجي، وتُحدث ضجيجاً يجعلك تحسب أن العالم على وشك النهاية. لا حاجة هنا إلى ساعة منبهة، حيث إن الصخب يوقظني دوماً. شكراً لأني أصبحت مثلك أعيش نمط حياة مزارع، أذهب إلى الفراش باكراً وأنهض في الصباح باكراً. بدأت أفهم ما معنى أن يتصل بك شخص في الثالثة والنصف صباحاً، أذكرك بدأت في الفهم.

أكتب هذه الرسالة من على شرفة مقهى في شارع فرعي في روما، أحتسي قهوة اكسبرسو ثقيلة مثل عرق الشيطان،

ويستحوذ عليَّ شعور غريب بأني لم أعد كما كنت. يصعب عليّ أن أجد العبارات المناسبة، لكني أظن كما لو أني كنت مستغرقةً في النوم وجاء شخص وفككني قطعاً ثم أعاد تركيبي ثانية بسرعة. شعور كهذا، هل تدرك ما أرمي إليه؟

عيناي تخبرانني بأني الشخص القديم نفسه، لكن بشيء مختلف عن المعتاد. لا يعني ذلك أن بإمكاني تذكر كيف كان هذا «المعتاد» بوضوح. منذ أن هبطت من الطائرة، ليس بوسعي زعزعة هذا الوهم الحقيقي المدمر. الوهم؟ أعتقد أن هذه هي الكلمة...

أسأل نفسي وأنا جالسة هنا «لماذا أنا في روما من بين كل الأماكن الأخرى؟» ويبدأ كل شيء حولي في الظهور كأنه غير حقيقي. بالطبع إذا تتبعت تفاصيل كيف وصلت إلى هنا يمكن أن أتوصل إلى تفسير، لكن على المستوى الداخلي ما زلت غير مقتنعة. أنا الجالسة هنا وتصوري لنفسي ليسا متطابقين. بعبارة أخرى، لست بحاجة لأن أكون هنا على وجه الخصوص، غير أني مع ذلك هنا. أعلم أن كلامي مبهم، لكنك تفهمني، أليس كذلك؟

ثمة شيء يمكنني قوله وأنا متأكدة. أتمنى لو أنك معي الآن هنا. بالرغم من وجود ميو معي، أشعر بالوحدة لبعدي عنك. أعلم لو كنا أبعد بعضنا عن بعض، كنت سأشعر بوحدة أعظم. يروق لي التفكير أن لديك الشعور نفسه.

بأية حال، ها أنا وميو نتسكع في أوروبا. لدى ميو بعض الأعمال لتقوم بها وكانت تخطط في الأصل للذهاب إلى إيطاليا وفرنسا وحدها لمدة أسبوعين، لكنها طلبت مني مصاحبتها كسكرتيرة شخصية. قالت ذلك في صباح يوم فأخذتني على حين غرة. قد يكون مسمى وظيفتي «سكرتيرة خاصة» وإن كنت غير ذي فائدة لها، مع ذلك التجربة جيدة بالنسبة لي وتخبرني ميو أن الرحلة هدية منها لي لتوقفي عن التدخين، وهكذا كان ثمن كل العذاب الذي مررت به جيداً في النهاية.

هبطنا أولاً في ميلانو وذهبنا لمشاهدة المكان، ثم استأجرنا سيارة ألفا روميو زرقاء اللون وانطلقنا في الطريق السريع. زرنا بضع مزارع كروم عنب في توسكاني، وبعد الانتهاء من العمل قضينا بضع ليالٍ في فندق ساحر صغير قبل الذهاب إلى روما. العمل يتم دوماً إما باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، لذا ليس لي دور كبير، وإن كانت لغتي الإيطالية مفيدة في المعاملات اليومية أثناء السفر. لو ذهبنا إلى إسبانيا (ما لم يحدث في هذه الرحلة من سوء الحظ) لكانت ميو قد استفادت مني أكثر.

كانت سيارة ألفا روميو بناقل سرعات يدوي، لذا لم أنفعها إطلاقاً. قامت ميو بالقيادة طوال الوقت. كان بإمكانها القيادة لساعات دون أن يبدو أن ذلك يزعجها. توسكانا كلها

تلال ومنحنيات، وكم كان مدهشاً سلاسة تبديلها الغيار صعوداً وهبوطاً. يرتعش جسدي لمشاهدتها تفعل ذلك (وأنا لا أمزح هنا). كوني بعيدة عن اليابان وبجانبها كافيان لإرضائي. لو كان بإمكاننا البقاء هنا إلى الأبد.

سأكتب في المرة القادمة عن كل الوجبات الرائعة والنبيذ الذي تناولناه في إيطاليا، لأن ذلك قد يستغرق وقتاً طويلاً الآن. في ميلانو تنقلنا من محل إلى آخر لشراء الحاجيات: فساتين، أحذية، ملابس داخلية. باستثناء بيجاما (حيث إني نسيت أخذ واحدة معي) لم أشتر شيئاً. لم تكن لدي نقود كافية، علاوة على ذلك، كانت هناك أشياء جميلة كثيرة فلم أعرف من أين أبدأ. هذا هو الوضع الذي جعلني أتوتر. كانت رفقة ميو أثناء تسوقها كافياً بالنسبة لي، إذ إنها أستاذة في التسوق، ولا تشتري سوى القليل. ذلك مثل لقمة من ألذ جزء في الطبق. كانت في غاية الذكاء والفتنة. عندما رأيتها تختار بعض أغلى الجوارب والملابس الداخلية الحريرية صَعُبَ عليَّ التنفس وغطت نقاط العرق جبهتي. هذا غريب إذا فكرت فيه ملياً، فأنا فتاة قبل كل شيء. أظن أن هذا كاف حول التسوق- الكتابة عن كل شيء سيطيل الرسالة أيضاً.

في الفندق ننزل في حجرتين منفصلتين. يبدو أن ميو تصر على ذلك. مرة في فلورنسا، حين حدث خطأ في حجزنا أجبرنا على النزول في حجرة واحدة بسريرين

منفصلين، لكن مجرد النوم في حجرة معها جعل قلبي يقفز فرحاً. لمحتها أثناء خروجها من الحمام وهي تلف نفسها بمنشفة وأثناء تبديلها ملابسها. بالطبع، تظاهرت بعدم النظر وقراءة كتابي، غير أني نجحت في سرقة لمحة. تملك ميو قواماً رائعاً. لم تكن عارية تماماً، بل كانت ترتدي ملابس داخلية صغيرة، مع ذلك كان جسدها كافياً لقطع تنفسي. نحيلة جداً واستدارات صلبة، حقاً، امرأة في غاية الجاذبية. أتمنى لو كان بإمكانك رؤيتها - مع أن قول ذلك غريب بالنسبة لي.

تخيلت هذا الجسد النحيل اللدن يحضنني. جالت في ذهني كل أصناف التخيلات البذيئة وأنا مستلقية في الفراش في الحجرة نفسها معها، شعرت أن هذه الأفكار تدفعني تدريجياً إلى مكان آخر. أظن أني استُثِرت - إذ إن عادتي الشهرية بدأت في تلك الليلة قبل موعدها بكثير. كم كان ذلك مؤلماً. أعلم أن إخبارك بذلك لن يوصلني إلى شيء. لكن سأستمر في تدوين الحقائق على الورق.

حضرنا ليلة الأمس حفلاً موسيقياً. لم أتوقع شيئاً خارقاً لأن الحفل كان خارج الموسم الموسيقي. غير أننا استمتعنا بأداء يفوق الوصف، حيث عزفت مارثا آرجيريش الكونشيرتو الأول لليست، وأنا أعشق هذه القطعة. قاد جيوسيبي سينوبولي الفرقة. يا للأداء الرائع! لا يمكن الشعور بالملل

عند سماع مثل هذه الموسيقى- كانت أكثر موسيقى رحابة وروعة سمعتها في حياتي. حين أفكر في الحفل، ربما كان أكثر كمالاً مما يتحمل ذوقي. يحتاج ليست لأن يكون مراوغاً مختلساً - مثل موسيقي في مهرجان قروي. احذف المقاطع الصعبة ودعني أحس بالإثارة - هذا ما أحب. اتفقت وميو في هذه النقطة. هناك مهرجان ليفيالدي في البندقية، ونحن نفكر في حضوره. كما أتكلم وإياك في الأدب، يمكن لميو وأنا الحديث في الموسيقى إلى وقت متأخر (حين يعود البقر إلى المزرعة).

طالت الرسالة، أليس كذلك؟ حين أمسك بقلم وأشرع في الكتابة لا يمكنني التوقف في منتصف ذلك. طالما كنت على هذه الشاكلة. يقال إن الفتيات حسنات التربية لا يمكثن طويلاً عند الزيارة، لكن حين يتعلق الأمر بالكتابة (ربما ليس بالكتابة فقط) فإن سلوكي ميؤوس منه. يرمقني النادل المرتدي الجاكيت الأبيض أحياناً بنظرة ازدراء. أعترف أن يدي تتعب من كثرة الكتابة. علاوة على ذلك، لم تعد عندي أوراق للكتابة.

ذهبت ميو لزيارة صديقة قديمة في روما. تجولت في الشوارع قرب الفندق، ثم قررت التوقف بمقهى صادفته للراحة وها أنا منهمكة بالكتابة لك، كما لو كنت في جزيرة

نائية وأرسل لك رسالة في زجاجة. الغريب في الأمر أني حين لا أكون مع ميو، لا أشعر برغبة في الذهاب إلى أي مكان. قطعت كل تلك المسافة إلى روما (ومن المرجح أن لا أعود إليها ثانية)، لكني غير قادرة على النهوض وزيارة تلك الآثار - ماذا يدعونها؟ - أو تلك النافورة الشهيرة، أو حتى الذهاب للتسوق. يكفيني الجلوس هنا في مقهى لأشم رائحة المدينة كما يفعل كلب، وأستمع إلى الأصوات والضجيج وأحدق في وجوه العابرين من المشاة.

فجأة داهمني الشعور، وأنا أكتب هذه الرسالة، أن ما وصفته في البداية، الشعور بأني أتحلل - قد بدأ يخبو ولم يعد يقلقني كثيراً الآن. إنه مثل الشعور الذي ينتابني عندما أتصل بك في منتصف الليل وأنهي المكالمة وأخرج من كشك الهاتف. ربما تملك أنت التأثير نفسه عليَّ!

ما رأيك؟ على أي حال ادعُ لسعادتي وحسن حظي. أحتاج إلى دعائك.

وداعاً الآن.

ملاحظة: ربما سأعود بتاريخ 15 أغسطس/آب، عندها يمكننا تناول العشاء معاً - أعدك بذلك - قبل نهاية الصيف.

بعد خمسة أيام وصلت رسالة ثانية أرسلت من قرية فرنسية نائية. كانت الرسالة أقصر من الأولى. تركت ميو

وسومايز السيارة المستأجرة في روما وذهبتا بالقطار إلى البندقية، حيث استمعتا إلى يومين كاملين من موسيقى فيفالدي. أقيمت معظم الحفلات الموسيقية في الكنيسة التي عمل فيها فيفالدي قسيساً. كتبت سومايز «إذا لم أستمع إلى فيفالدي ستة أشهر، لا بأس!». كان وصفها للطعام البحري المشوي اللذيذ والملفوف بورق القصدير واقعياً لدرجة جعلتني أود الانطلاق إلى البندقية لتذوق بعضٍ منه بنفسي.

بعد البندقية ذهبتا إلى ميلانو، ثم إلى باريس بالطائرة حيث استراحتا قليلاً وقامتا بالتسوق ثم ذهبتا بالقطار إلى بورجندي، حيث أقامتا في بيت ضخم، في الواقع عزبة، تملكها إحدى صديقات ميو المقربات. كما في إيطاليا، قامت ميو بجولات في بعض كروم العنب الصغيرة لعقد الصفقات. بعد الظهر كانتا تأخذان سلة نزهة وتذهبان للمشي في الغابات القريبة مع زجاجتي نبيذ لإتمام الوجبة طبعاً. كتبت سومايز في ذلك «النبيذ هنا رائع وليس من هذا العالم.»

مع ذلك، يبدو أن خطتنا الأصلية في العودة إلى اليابان في 15 أغسطس ستتغير. حين ينتهي عملنا في فرنسا، قد نذهب في عطلة قصيرة إلى جزيرة يونانية. السيد الإنجليزي الذي قابلناه هنا سيد حقيقي ويملك بيتاً في الجزيرة، دعانا للنزول فيه لأي فترة نشاء. أنباء عظيمة! أعجبت ميو بالفكرة أيضاً. نحن بحاجة إلى راحة من العمل، فترة قصيرة من

الراحة والاستجمام. نستلقي على شواطئ بحر إيجة ناصعة البياض، نهدان جميلان مصوبان نحو السماء، احتساء نبيذ تشوبه رائحة صمغ الصنوبر ومشاهدة السحب العابرة. ألا يبدو هذا رائعاً؟

بالطبع، فكرتْ.

ذهبتُ بعد الظهر إلى المسبح العام، وسبحت قليلاً، ثم توقفت بمقهى مكيف لطيف في طريق عودتي إلى البيت، حيث قرأت قليلاً. استمعت عند عودتي إلى بيتي إلى وَجْهَيْ أسطوانة قديمة وأنا أكوي ثلاثة قمصان. شربت بعد الانتهاء من ذلك بعض النبيذ الرخيص الذي اشتريته في تنزيلات ومزجته بماء بيرييه، ثم شاهدت مباراة كرة قدم كنت قد سجلتها على شريط. فكرت كلما مرت تمريرة أني لن أقوم بها، أهز رأسي وأتنهد. الحكم على أخطاء الآخرين في منتهى السهولة ويمنح المرء شعوراً جيداً.

غصت في مقعدي بعد المباراة، حدقت في السقف وتخيلت سوماير في قريتها الفرنسية. الآن، أصبحت في تلك الجزيرة اليونانية، مستلقية على الشاطئ وتحدق في السحب العابرة. في الحالتين هي بعيدة عني. روما، اليونان، تومبكتو، أروندا - لا أهمية في أي منها، فهي بعيدة، بعيدة جداً ومن المرجح أن المستقبل، بكلمات موجزة، يشي بأن سوماير ستزداد بعداً عني. أشعرني ذلك بالحزن، شعرت أني

حشرة صغيرة عديمة المعنى متشبثة دون سبب ظاهر بسور حجري مرتفع في ليلة عاصفة، دون خطط أو معتقدات. قالت سومابر إنها تشتاق إليَّ، لكنها مع ميو وأنا لا أحد معي. كل ما أملك - نفسي. كالعادة.

لم تعد سومابر في 15 أغسطس/آب وبقيت على هاتفها رسالة قصيرة مسجلة تقول إنها مسافرة. كان آخر ما اشترته بعد انتقالها إلى الشقة الجديدة هاتفاً مع آلة تسجيل للمكالمات، كي لا تخرج في الليالي الماطرة وهي تحمل مظلة إلى كشك الهاتف. فكرة رائعة وإن لم تكن لدي رسالة لأسجلها.

اتصلت بها ثانية في 18 أغسطس/آب. وسمعت الإجابة نفسها. بعد الرنين الساكن تركت اسمي ورسالة بسيطة لها لتتصل بي عندما تعود. لعلها وجدت وميو جزيرتهما اليونانية ممتعة لدرجة صعب عليهما مغادرتها.

في الفترة بين المكالمتين قمت بتدريب فريق كرة القدم مرة ونمت مع صديقتي مرة. كانت الشمس قد لوحت بشرتها بعد عودتها من عطلة في بالي مع زوجها وطفليها. فكرت في سومابر وأنا أحضنها في جزيرتها اليونانية. لم أستطع عدم تخيل جسد سومابر وأنا داخلها.

لو لم أعرف سوماير لكنت قد أحببت بسهولة هذه المرأة التي تكبرني بسبع سنوات (وابنها أحد طلابي). كانت امرأة جميلة مفعمة بالحيوية ولطيفة تضع كثيراً من المساحيق التي لا تنسجم وذوقي، لكنها أنيقة. كانت قلقة بما يخص وزنها وإن لم يتوجب عليها ذلك. بالتأكيد لم أتذمر إذ إن جسدها مغر جداً. كانت تعرف كل شهواتي وكل ما أريده وتعلم إلى أي حد تسير وأين تتوقف في الفراش وخارجه. جعلني ذلك أشعر كأني مسافر في الدرجة الأولى.

باحت لي أثناء نومها بين ذراعي: «لم أنم مع زوجي منذ عام تقريباً. أنت الوحيد الذي أنام معه.» لكني عجزت عن حبها. لسبب ما، تلك الحميميّة غير المشروطة والطبيعية التي أتقاسمها مع سوماير لم تكن هناك. ثمة حجاب شفاف رقيق يفصلنا. ظاهر أم لا، إلا أنه يبقى حاجزاً. الصمت الغريب يحل بيننا دوماً، خاصة عندما نودع بعضنا بعضاً. لا يحدث هذا إطلاقاً مع سوماير. أكد وجودي مع هذه المرأة حقيقة لا يمكن نكرانها: أحتاج إلى سوماير أكثر من أي وقت مضى.

بعد أن غادرت المرأة ذهبت للسير وحيداً. همت على وجهي بعضَ الوقت ثم توقفت في بار قرب المحطة حيث شربت كأساً. كالعادة في مثل هذه الأوقات، شعرت أني أكثر مخلوقات الأرض تعاسة. احتسيت كأسي الأول بسرعة وطلبت آخر. أغمضت عيني وفكرت في سوماير. سوماير عارية الصدر تأخذ حمام شمس فوق الرمال البيضاء في جزيرة

يونانية. إلى الطاولة المحاذية لي كان أربعة من الطلاب والطالبات الجامعيين يشربون الجعة ويضحكون مستمتعين بوقتهم، وأغنية لهيو لويس آند ذا نيوز تعزف. كان بإمكاني شم رائحة بيتزا في الفرن.

متى هُدِرَ شبابي؟ فجأة فكرت. انتهى، أليس كذلك؟ بالأمس كنت نصف بالغ ولهيو لويس أغنيتان ناجحتان آنذاك. ليس ذلك قبل وقت طويل. ها أنا الآن داخل دائرة مغلقة أدير دولاب مغزلي. كنت أدري أني لن أبلغ مكاناً، مع ذلك داومت على الغزل. وجب علي ذلك، عليَّ الحفاظ على ذلك وإلا لن يكون بإمكاني البقاء على قيد الحياة.

تلقيت تلك الليلة مكالمة هاتفية من اليونان الساعة الثانية صباحاً.

لم تكن من سوماير. كانت من ميو.

7

كان أول ما سمعت صوت رجل بدا عميقاً ينطق اسمي بلكنة إنجليزية ثقيلة ثم نادى «لقد وجدت الشخص المطلوب، نعم؟» كنت أغط في سبات عميق وذهني خال كحقل أرز وسط عاصفة ماطرة، فلم أتبين ما كان يجري. كانت ملاءات السرير ما تزال تحتفظ بذكرى واهنة لممارسة الحب بعد ظهر ذلك اليوم والواقع بعيد خطوة عني كسترة صوف أزرارها مقفلة بشكل خاطئ. ذكر الرجل اسمي مرة ثانية «لقد وجدت الرجل المطلوب، نعم؟»

أجبت «نعم لقد فعلت.» لم يكن لفظه يشبه اسمي، لكن لا أهمية. لم أسمع سوى أصوات تشويش كما لو تصادمت كتلتان من الهواء معاً. فكرت لا بد أن سوماير تحاول إجراء مكالمة من اليونان. أبعدت سماعة الهاتف عن أذني قليلاً منتظراً سماع صوتها، غير أن الصوت الذي سمعته لم يكن صوت سوماير، بل ميو.

«أنا متأكدة أنك سمعت عني من سومايرِ؟»

أجبت «نعم، سمعت.»

جاء صوتها مشوَّشاً عبر الهاتف، لكني استشعرتُ التوتر فيه. تسرّب شيء صارم وقاس عبر الهاتف إلى حجرتي كسحب جليد جاف، وأيقظني بسرعة. جلست في الفراش منتصباً كسهم مستقيم وعدلت قبضتي على السماعة.

قالت ميو متهدّجة الأنفاس: «يجب أن أتكلم بسرعة. أتصل من جزيرة يونانية من شبه المستحيل الاتصال منها بطوكيو، حتى عندما ينجح الاتصال يقطع الخط. حاولت الاتصال بك عدة مرات وأخيراً نجحت، لذا سأتخلى عن الرسميات وأدخل في الموضوع إذا لم يكن عندك مانع؟»

قلت: «لا مانع لدي!»

«هل يمكنك القدوم إلى هنا؟»

«هنا، تعنين اليونان؟»

«نعم، بأسرع وقت ممكن!»

قلت أول ما تبادر إلى ذهني: «هل حدث مكروه لسوماير؟»

صمتٌ كأنما ميو تأخذ نفساً. «ما زلت لا أدري، لكني أظن أنها تريد منك القدوم إلى هنا. أنا واثقة من ذلك.»

«تظنين أنها تود ذلك؟»

«ليس بوسعي شرح ذلك على الهاتف. لا ندري متى سنتوقف، علاوة على ذلك، هذه مسألة حساسة نوعاً ما، لذا

أفضل الحديث فيها معك عندما تأتي. سأدفع ثمن تذكرة العودة. تعال الآن، وكلما كان الوقت أبكر كان أفضل. درجة أولى أو أي شيء تريد.»

كان الفصل الدراسي سيبدأ بعد عشرة أيام. وعليَّ العودة قبل ذلك، وإذا أردت لم تكن رحلة إلى اليونان غير ممكنة. كان من المقرر أن أذهب إلى المدرسة مرتين في العطلة للقيام ببعض الأعمال، لكن بإمكاني العثور على من يقوم بذلك عوضاً عني.

قلت: «أنا على يقين أن بإمكاني القدوم. نعم، أظن أن بإمكاني فعل ذلك. لكن إلى أين بالضبط من المفترض أن أذهب؟»

أخبرتني باسم الجزيرة. كتبت ما قالته على غلاف كتاب كان بجانب سريري. بدا الاسم مألوفاً إلى حد ما.

«تستقل طائرة من أثينا إلى رودس، ثم تركب عبّارة. هناك عبّارتان في اليوم إلى الجزيرة، واحدة في الصباح وأخرى في المساء. سأذهب إلى الميناء كلما وصلت عبارة. هل ستأتي؟»

«أعتقد أن بإمكاني القدوم. كل ما في الأمر» شرعت في القول عندما انقطع الخط فجأة وبعنف كما لو أن شخصاً قطع السلك بفأس. مرة أخرى حل ذاك السكون المريع. جلست في مكاني دقيقة أخرى ظاناً أن الاتصال قد يعود ثانية

والسماعة على أذني، لكن كل ما سمعته كان ذلك الصوت الخشن. أعدت السماعة إلى مكانها وغادرت الفراش. شربت في المطبخ شاي شعير بارداً، واتكأت على الثلاجة في محاولة لجمع أفكاري.

هل سأركب الطائرة حقاً وأطير كل المسافة إلى اليونان؟

كان الجواب نعم. ليس لدي خيار آخر.

أخذت أطلساً ضخماً من على رف مكتبتي لتحديد مكان الجزيرة التي أخبرتني ميو عنها. قالت إنها قرب رودس، لكن لم يكن العثور عليها أمراً سهلاً بين آلاف من الجزر في بحر إيجه. أخيراً تمكنت من العثور على اسم المكان الذي أبحث عنه مطبوعاً بحروف صغيرة. جزيرة صغيرة قرب الحدود التركية. كانت صغيرة لدرجة لا يمكن معرفة شكلها.

أخذت جواز سفري من الدرج وتثبتّ من تاريخ صلاحيته. جمعت بعد ذلك كل النقود التي بحوزتي في البيت ووضعتها في محفظتي. لم يكن مبلغاً كبيراً، غير أنه بإمكاني سحب المزيد من البنك في الصباح. كان لدي حساب توفير وبالكاد استخدمت علاوة الصيف. كل ذلك مع بطاقة الائتمان سيمكنني من جمع ما يكفي لشراء بطاقة سفر إلى اليونان. في حقيبة رياضية وضعت بعض الملابس ولوازم الحمام وروايتين لجوزف كونراد أردت قراءتهما مرة أخرى.

ترددت في أخذ ملابس السباحة، أخيراً أخذتها. قد أذهب إلى هناك وقد تحل أي مشكلة ويكون الجميع بصحة جيدة وسعداء والشمس معلقة في كبد السماء بسلام، وسأتمتع بسباحة مريحة مرة أو مرتين قبل العودة إلى هنا - بالطبع قد يكون هذا أفضل لكل من له علاقة بالأمر.

بعد فراغي من ذلك، أطفأت النور وألقيت رأسي على الوسادة ليغوص فيها ثانية، وحاولت العودة إلى النوم. كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحاً وبإمكاني أخذ قسط من الراحة قبل الصباح، لكني لم أستطع النوم. كانت ذكريات ذاك السكون القاسي تنسل في دمي كخيط مغزل. كان بإمكاني سماع صوت ذلك الرجل عميقاً في رأسي وهو يصيح باسمي بصوت مرتفع. أضأت النور، غادرت الفراش ثانية، عدت إلى المطبخ، حضّرت بعض الشاي المثلج وشربته. ثم استعدت الحوار كله مع ميو، كل كلمة بالترتيب. كانت كلماتها مبهمة، مجردة ومليئة بالغموض. لكن هناك حقيقتان في ما قالته، دوّنتهما على قصاصة ورق.

1. شيء حدث لسوماير، لكن ميو لا تعرفه.

2. ينبغي عليَّ الذهاب بأسرع وقت ممكن. تعتقد ميو أن سوماير تريديني أن أفعل ذلك.

حدقت في الورقة ووضعت خطاً تحت عبارتين.

1. شيء حدث لسوماير، لكن ميو لا تعرفه.
2. ينبغي عليَّ الذهاب بأسرع وقت ممكن. تعتقد ميو أن سومايرتريديني أن أفعل ذلك.

لم أستطع تصور ما حدث لسومايرفي تلك الجزيرة اليونانية الصغيرة، لكني كنت متأكداً أنه أمر سيّئ. كان السؤال ما مدى سوئه؟ لم يكن هناك ما بوسعي فعله قبل الصباح. جلست في مقعدي رافعاً قدميّ على المنضدة ورحت أقرأ كتاباً منتظراً ظهور أول النور. استغرق ذلك دهراً.

ركبتُ قطار شو عند بزوغ أول خيوط الفجر إلى شينجوكو ثم قطار ناريتا السريع حتى وصلت المطار. جلت عند التاسعة على كل مكاتب خطوط الطيران لشراء بطاقة. علمت أن ليس هناك أي طيران مباشر بين ناريتا وأثينا. بعد محاولات حجزت بطاقة رجل أعمال على الطيران الهولندي إلى أمستردام، حيث يمكنني التبديل في رحلة إلى أثينا، ومن هناك أطير مع خطوط الأولمبيك المحلية إلى رودس. قام موظفو الطيران الهولندي بإجراء كل الترتيبات. إذا لم تحدث أي مشاكل فسيمكنني القيام بالتبديلين بسهولة. كانت هذه أسرع طريقة للذهاب إلى هناك. كانت لدي تذكرة عودة

مفتوحة، حيث يمكنني الرجوع في غضون الأشهر الثلاثة القادمة. دفعت ثمن التذكرة ببطاقة الائتمان. هل لديك حقائب؟ سألوني. أجبت بالنفي.

كان لدي بعض الوقت قبل الإقلاع، لذا تناولت الإفطار في مطعم المطار. سحبت بعض النقود واشتريت بعض الشيكات السياحية، ثم اشتريت دليل سفر إلى اليونان من مكتبة. لم تكن الجزيرة التي ذكرتها ميو موجودة في الدليل الصغير، لكني كنت بحاجة إلى معرفة بعض المعلومات عن البلاد: العملة، الطقس والأشياء الأساسية. باستثناء تاريخ اليونان القديم والدراما الكلاسيكية، لم يكن هناك كثير لمعرفته عن البلاد، وليس أكثر مما أعرفه عن جغرافيا جوبيتر أو نظام تبريد سيارة الفيراري الداخلي. لم أفكر مرة واحدة في حياتي بزيارة اليونان، على الأقل ليس قبل الثانية صباحاً من ذلك اليوم.

قبل الظهر اتصلت بزميلة مدرِّسة وأخبرتها بحدوث أمر مؤسف لأحد أقربائي. سأغادر طوكيو مدة أسبوع، وأتمنى إن كان بإمكانها الاهتمام بأمور المدرسة حتى عودتي. أجابت «ليس هناك مشكلة.» لقد ساعد واحدنا الآخر عدة مرات على هذا النحو، ولم تكن تلك مسألة كبيرة. سألتني: «إلى أين أنت ذاهب؟» أجبت إلى شيكوكو، إذ لم أستطع أن أخبرها أني ذاهب إلى اليونان.

قالت: «يؤسفني سماع ذلك، على أي حال، تأكد من عودتك قبل بدء الفصل الدراسي الجديد، واجلب هدية تذكارية لي معك إذا استطعت، حسناً؟»

قلت: «طبعاً.» سأفعل ذلك في وقت لاحق.

ذهبت إلى بهو رجال الأعمال واستلقيت على أريكة وغفت عيني قليلاً في نوم غير مستقر. كان العالم قد فقد كل حس بالواقع. الألوان غير طبيعية والتفاصيل غير واضحة المعالم، الخلفية من الورق المعجن والنجوم من ورق القصدير. كان بالإمكان رؤية الصمغ ورؤوس المسامير التي تثبتها معاً. كانت إعلانات المطار تمرق في وعيي قبل أن تتلاشى. «على كل المسافرين على الخطوط الفرنسية رحلة رقم 275 المتجهة إلى باريس.» في غمرة هذا الحلم غير المنطقي - أو اليقظة غير المؤكدة - فكرت في سوماير. مثل فيلم تسجيلي قديم، وردت شذرات من الأوقات والأمكنة التي عشناها إلى ذهني. في صخب المطار والمسافرون يمرون بسرعة من هنا وهناك، بدا العالم الذي أتقاسمه مع سوماير مهلهلاً، يائساً وغير مؤكد. لم يعرف أي منا شيئاً له أهمية حقيقية ولا نملك القدرة على تصحيح ذلك. لم يكن هناك شيء صلب نعتمد عليه. كنا إلى حد ما أصفاراً غير محددة، مجرد مخلوقات صغيرة يرثى لها تندفع من نسيان إلى آخر.

استيقظت غارقاً في عرق مزعج وقميصي ملتصق

بصدري. كان جسمي واهناً وساقيّ منتفختين. شعرت كما لو أنني ابتلعت سماءً ملبدة بالغيوم. لابد أني بدوت شاحباً. سألتني موظفة في حجرة الانتظار بقلق إن كنت على ما يرام. أجبت «لا بأس، الحر يزعجني.» سألت إن كنت بحاجة إلى شراب بارد. فكرت لحظة وطلبت جعة. جلبت لي منشفة وجه باردة، جعة من نوع هاينكان وكيساً من الفستق المملح. بعد أن مسحت وجهي المغطى بالعرق وشربت الجعة شعرت بالتحسن، وصار بإمكاني النوم قليلاً.

أقلعت الطائرة من ناريتا في الوقت المحدد وسلكت وجهة القطب إلى أمستردام. أردت النوم أكثر، لذا شربت كأسين من الويسكي وعندما استيقظت تناولت عشاءً خفيفاً. لم تكن لدي شهية ولم أتناول وجبة الإفطار. أردت أن أحافظ على ذهني خالياً، لذا ركزت على قراءة كونراد عندما استيقظت.

في أمستردام بدلت الطائرة ووصلت إلى أثينا، حيث ذهبت إلى قسم الخطوط المحلية ودون إضاعة لحظة ركبت طائرة 727 متجهة إلى رودس. كانت الطائرة مكتظة بشباب مفعمين بالحيوية من كل بلد يمكن تخيله، والشمس قد لوحت بشرتهم ويلبسون القمصان الرياضية وسراويل الجينز المقطعة. أطلق معظم الشباب لحاهم (أو ربما نسوا حلقها) وكانت شعورهم غير ممشطة ومربوطة على شكل ذيل

حصان. كنت أرتدي سروالاً لونه بيج وقميصاً أبيض بنصف أكمام وجاكيتاً قطنياً داكن الزرقة، فبدوت خارج السرب. نسيت أن أجلب نظارة شمسية. لكن من يمكنه أن يلومني؟ كنت منذ ساعات قليلة في شقتي في كزنيتاشي قلقاً بخصوص ما ينبغي عمله بالنفاية.

في مطار رودس سألت مكتب الاستعلامات عن المكان الذي يمكنني أن أجد فيه عبّارة إلى الجزيرة. كانت في ميناء قريب. إذا أسرعت فقد أتمكن من أخذ عبّارة المساء. سألت حتى أتاكد: «ألا تحجز كل الأماكن أحياناً؟» عبست المرأة مدببة الأنف غير محددة العمر الجالسة في مكتب الاستعلامات ولوحت لي بيدها للانصراف قائلة: «يمكنهم دوماً إيجاد مكان لراكب، ليست هذه مصعداً.»

أوقفت سيارة أجرة واتجهت إلى الميناء. أخبرت السائق: «أنا في عجلة من أمري.» لكن لم يبد أنه فهم ما قصدت. لم تكن العربة مكيفة ودلفت نفحة ريح حارة مغبرة عبر النافذة. داوم السائق على إلقاء خطبة لاذعة ساخرة كئيبة بلغة إنجليزية مرهقة غير مستساغة عن اليورو. أظهرت له بأصوات وإشارات مؤدبة لأظهر أني أتابعه، لكني لم أكن أصغي له. عوض ذلك رحت أنظر بعينين نصف مغمضتين إلى مناظر رودس اللامعة وهي تمر في الخارج. كانت السماء صافية بلا سحب ولا إشارة لسقوط المطر. كانت الشمس

تصلي حجارة جدران البيوت بلهيبها، وطبقة من الغبار تغطي الشجر كثير العقد الكائن على جنب الطريق، والناس يجلسون في ظل الأشجار أو تحت خيام مفتوحة ويحدقون بصمت تقريباً في العالم. بدأت أتساءل إن كنت في المكان الصحيح. أخبرتني الإشارات المبهرجة بالحروف اليونانية التي تعلن مع ذلك عن السجائر والأوزو وتملأ الطريق من المطار إلى البلدة أن هذه هي اليونان بالفعل.

كانت عبّارة المساء ما تزال في الميناء وأكبر مما حسبت. كان في مؤخرة السفينة مكان لنقل العربات، وشاحنتان متوسطتا الحجم مليئتان بالطعام والمواد المجففة وعربة بيجو. كلها تنتظر إبحار العبّارة من الميناء. اشتريت بطاقة وصعدت وما كدت أجلس على مقعد فوق السطح حتى حل الحبل الذي يربط العبّارة وزمجر صوت المحركات بالحياة. تنهدت ونظرت إلى السماء، كان كل ما بوسعي فعله الآن انتظار أن تأخذني العبّارة إلى حيث كنت ذاهباً.

خلعت جاكيتي القطني المبلل بالعرق والمغبر، وطويته ووضعته في حقيبتي. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، لكن الشمس كانت ما تزال في كبد السماء وضوؤها طاغياً. هب نسيم من مقدمة السفينة تحت القماش الذي يظلّلني، فبدأت أشعر بالانتعاش تدريجياً. اختفت المشاعر الكئيبة التي داهمتني في قاعة انتظار مطار ناريتا، بالرغم من أنها خلّفت شيئاً من مذاق مر.

كان هناك عدد قليل من السياح على متن العبّارة، لذا قدرت أن الجزيرة التي أقصدها ليست بقعة سياحية معروفة جداً. كان معظم المسافرين من أهالي الجزيرة، خاصة كبار السن الذين ذهبوا إلى رودس لإنجاز بعض الأعمال وهم عائدون الآن إلى بيوتهم. كانت الحاجيات التي اشتروها موضوعة بحرص قرب أقدامهم كحيوانات هشة، وملء وجوه كبار السن الخالية من التعبير، تجاعيد عميقة، كما لو أن الشمس الطاغية وحياة العمل الشاق قد سرقتا منها كل تعبير.

كان هناك بعض الجنود الشبان أيضاً، ويجلس اثنان من الهيبز المسافرين بحقائب ظهر ثقيلة على السطح، سيقانهم نحيلة ووجهاهما عابسان. كانت هناك فتاة جميلة مراهقة أيضاً ترتدي تنورة طويلة، عيناها سوداوان عميقتان، شعرها الطويل يتطاير مع النسيم أثناء تحدثها مع صديقتها وابتسامة لطيفة على أطراف ثغرها كما لو أن شيئاً رائعاً على وشك الحدوث، وأقراطها الذهبية تشع لامعة في الشمس. بدا الجنود الشباب المتكئون على حافة سطح السفينة مرتاحين وهم يدخنون وينظرون صوب الفتاة بين فينة وأخرى.

شربت صودا الليمون التي اشتريتها من مقصف السفينة ورحت أحدق في البحر الأزرق العميق والجزر الصغيرة العابرة، التي معظمها مجرد صخور في البحر مهجورة تماماً وليست جزراً حقيقية، وحطت طيور البحر البيضاء في أعلاها باحثة عن سمك البحر ومتجاهلة سفينتنا. كانت الأمواج

تتحطم في أسفل المنحدرات، والبيوت بيضاء الجدران كالنقط على المنحدرات، والقوارب زاهية الألوان تتمايل في الخلجان الصغيرة وصواريها الطويلة ترسم أقواساً في انسيابها مع الأمواج. قدم لي رجل عجوز تملأ التجاعيد وجهه ويجلس بجانبي، سيجارة. شكرته وابتسمت مؤشراً بيدي إشارة إلى أني لا أدخن. عرض عليَّ علكة نعناع عوض ذلك، أخذتها شاكراً وداومت على التحديق في البحر أثناء علكها.

وصلت السفينة بعد الساعة السابعة، حيث كانت الشمس الحارقة قد تجاوزت ذروتها، غير أن السماء بقيت مضيئة كما كانت. في الواقع زاد نور الصيف من لمعانها. كتب اسم الجزيرة بحروف ضخمة على الجدران البيضاء لبناية في الميناء، كما لو كانت لافتة إعلان. دنت السفينة إلى جانب الرصيف، وهبط الركاب واحداً تلو الآخر فوق خشبة العبور وحقائبهم في أيديهم. كان هناك مقهى مقابل الرصيف ينتظر الناس فيه قدوم العبّارة حتى يراهم من هم في انتظارهم.

نظرت باحثاً عن ميو ما إن هبطت، لكن لم يكن هناك من يبدو أنه يشبهها. جاءني عدد من أصحاب الفنادق وسألوني إن كنت أبحث عن مكان أنزل فيه هذه الليلة. أخبرتهم جميعاً هازاً رأسي: «كلا، لا أبحث عن مكان.» بالرغم من ذلك قدموا لي بطاقة بعناوينهم قبل أن يغادروا.

تفرق من قدموا معي على متن العبّارة في كل اتجاه. سار من اشتروا الحوائج بثقل إلى بيوتهم وذهب المسافرون إلى

الفنادق والنّزل. حين تقع عيون من جاؤوا للترحيب بأصدقائهم العائدين كانوا يعانقونهم بحرارة ويسلمون عليهم ثم يذهبون في سبيلهم. كما أُنزلت الشاحنتان وسيارة البيجو وغابتا في البعيد. حتى القطط والكلاب التي تجمعت بدافع حب الاستطلاع ذهبت منذ حين ولم يبق هناك سوى مجموعة من كبار السن الذين لوحتهم الشمس وليس لديهم ما يفعلونه، وأنا الذي بيدي حقيبة رياضية خارج المكان ولا أمت إليه بصلة.

جلست في مقهى وطلبت شاياً مثلجاً متسائلاً ما هي خطوتي التالية. لم يكن هناك كثير بإمكاني فعله، فالليل يدنو بسرعة ولا أعرف شيئاً عن الجزيرة ولا من فيها. إذا جاء أحد بعد قليل، فسأنزل في حجرة في مكان ما وآتي في صباح اليوم التالي إلى الميناء على أمل مقابلة ميو. وفق سوماير، ميو امرأة منظمة، لذا لم أصدق أنها لن تفي بوعدها. إذا لم تستطع القدوم إلى الميناء فلا بد أن هناك سبباً وجيهاً لذلك. لعلها حسبت أني لن أصل إلى هنا بهذه السرعة.

كنت أتضور جوعاً وشعرت أن مثل هذا الجوع المفرط لابد أنه بادٍ عليَّ. لابد أن هواء البحر المنعش جعل جسمي يدرك أنه لم يتناول طعاماً مغذياً منذ الصباح. لم أرغب في أن تفوتني مقابلة ميو، لذا قررت أن أنتظر مدة أطول في المقهى. كان أحد أهالي الجزيرة يمر بين الفينة والأخرى ويرمقني بنظرة فضول.

اشتريت من كشك صغير قرب المقهى نشرة إنجليزية صغيرة حول تاريخ وجغرافيا الجزيرة. تصفحتها وأنا أحتسي الشاي المثلج عديم الطعم. يتراوح عدد سكان الجزيرة بين 3000 و 6000 نسمة حسب الموسم. يرتفع عدد السكان في الصيف مع قدوم السائحين ويتقلص في الشتاء حين يذهب الناس إلى أمكنة أخرى بحثاً عن العمل. لم تكن في الجزيرة صناعة يمكن الحديث عنها والزراعة محدودة إلى حد ما، بعض أشجار الزيتون ونوعان من الفاكهة. كان هناك صيد سمك وجمع إسفنج من قعر البحر، ولعل هذا يفسر هجرة معظم سكان الجزيرة إلى أمريكا في بداية القرن العشرين. انتقل معظمهم إلى فلوريدا حيث أمكنهم بشكل جيد استثمار خبرتهم في الصيد والغوص لجمع الإسفنج. هناك حتى في فلوريدا بلدة تحمل اسم هذه الجزيرة.

يوجد على قمة تل جهاز رادار عسكري، وقرب الميناء المدني ثمة ميناء أصغر ترسو فيه سفن الدوريات العسكرية. ولما كانت الحدود التركية قريبة، أراد اليونانيون منع العبور غير القانوني والتهريب، ولعل هذا يفسر وجود بعض الجنود في البلدة. كانت حركة الدخول والخروج من الجزيرة تزداد كلما حدث نزاع مع تركيا، في الواقع لم تكن أكثر من حوادث على نطاق محدود.

قبل أكثر من ألفي سنة حين كانت الحضارة اليونانية في أوجها، كانت الجزيرة تقع على الطريق الرئيس إلى آسيا،

فازدهرت كمركز تجاري. كانت التلال آنذاك ما تزال مغطاة بالأشجار الخضراء وتستخدم كثيراً في صناعة السفن المزدهرة. لكن حين انحدرت الحضارة اليونانية وقطعت كل الأشجار (لم تعد الخضرة قط بعد ذلك)، انهار اقتصاد الجزيرة بسرعة هائلة. أخيراً، جاء الأتراك الذين كان حكمهم شديد القسوة، وفق ما ورد في النشرة. إذا لم يعجبهم شيئاً، كانوا يقطعون أنوف وآذان الناس بسهولة كما يشذبون الأشجار. في نهاية القرن التاسع عشر وبعد معارك دموية لا تحصى، حصلت الجزيرة على استقلالها من تركيا، ورفرف العلم اليوناني الأبيض والأزرق فوق الميناء. بعد ذلك جاء هتلر. شيد الألمان محطة رادار ومرصداً للطقس في أعلى التلال لمراقبة البحر القريب، حيث إن التلال توفر أفضل منظر ممكن. قصفت المركز قوة قصف إنجليزية من مالطا، وكذلك الميناء وقمة التل وأغرقت عدداً من قوارب الصيد البريئة، وقتلت بعض الصيادين سيئي الطالع. قتل في القصف من اليونانيين أكثر من الألمان، وما زال بعض كبار السن يشكون من الحادثة.

مثل معظم الجزر اليونانية، ثمة مساحة صغيرة من الفراغ هنا، ومعظم ما تبقى تلال منحدرة بلا رحمة. إضافة إلى بلدة واحدة فقط على الشاطئ جنوب الميناء، يوجد شاطئ جميل بعيداً عن البلدة، لكن على المرء تسلق تلٍّ مرتفع للوصول

إليه. المناطق التي يمكن الوصول إليها بسهولة ليس فيها شواطئ جميلة، لعل هذا يفسر قلة عدد السائحين. هناك بعض الصوامع اليونانية الأرثوذكسية فوق التلال، لكن الرهبان يعيشون حياة صارمة ولا يسمح بزيارتهم.

يمكنني القول مما قرأته في النشرة أن هذه جزيرة يونانية جميلة عادية. مع ذلك ولسبب ما وجد البريطانيون الجزيرة ساحرة (يتصف البريطانيون ببعض الغرابة). في غمرة حماسهم للمكان، أقاموا مستعمرة من الأكواخ الصيفية على تلٍّ قريب من الميناء. في أواخر ستينات القرن العشرين، عاش عدد من الكتاب البريطانيين هنا وكتبوا بعض الروايات وهم يحدقون في البحر الأزرق والغيوم البيضاء. حققت بعض أعمالهم نجاحاً وشهرة فذاع صيت الجزيرة في الوسط الأدبي البريطاني كبقعة رومانسية. في ما يخص هذا الوجه المرموق لثقافة الجزيرة، فإن السكان اليونانيين المحليين لم يبدُ عليهم الاهتمام.

قرأت كل ذلك لأنسى مقدار جوعي. أغلقت الكتيّب ونظرت حولي مرة أخرى. كان كبار السن الجالسون في المقهى يحدقون بلا كلل في البحر، كما لو كانوا متسابقين في مسابقة تحديق. كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساءً وتحول جوعي إلى نوعٍ من الألم الجسدي. جاءت رائحة شواء لحم وسمك من مكان ما، ومثل عذاب طيب هيمنت

على أحشائي. لم أقدر على تحمل المزيد، فوقفت. وفي اللحظة التي رفعت فيها حقيبتي وكنت على وشك البحث عن مطعم، ظهرت امرأة بصمت أمامي.

الشمس، التي راحت تغرق أخيراً في البحر، انعكس ضياؤها مباشرة على المرأة التي كانت تنورتها البيضاء البالغة ركبتها تموج قليلاً وهي تخطو هابطة الدرجات الحجرية. ترتدي حذاءً رياضياً صغيراً وساقاها كساقي فتاة يافعة. ترتدي بلوزة خضراء دون أكمام، وقبعة ضيقة الحواف وتحمل حقيبة ظهر صغيرة من القماش. كانت طريقة سيرها طبيعية جداً وعادية جداً، وتختلط بالمشهد حتى حسبت في البدء أنها من أهالي الجزيرة. لكنها كانت مقبلة صوبي مباشرة، وعندما اقتربت لاحظت ملامحها الآسيوية. فعاودت الجلوس نصف جلسة ثُم وقفت مجدّداً. خلعت المرأة نظارتها الشمسية ونطقت اسمي.

قالت: «آسفة لتأخري. كان عليَّ الذهاب إلى مركز الشرطة واستغرقت الإجراءات الورقية وقتاً طويلاً، ولم أتصور قط أنك ستأتي اليوم إلى هنا. توقعت غداً عند الظهر كأقرب وقت ممكن.»

قلت: «استطعت عمل كل ما يمكن لأصِل.»

نظرت ميو إليَّ مباشرة وابتسمت بوهن. «إذا لم يكن

عندك مانع، لم لا نذهب إلى مكان لنأكل ونتكلم. اليومَ تناولت الإفطار فقط. وأنت، هل أنت جائع؟»

أجبت بالتأكيد.

اصطحبتني إلى حانة في شارع جانبي قرب الميناء. كان هناك شواء على الفحم قرب المدخل حيث تُشوى على شبكة حديد كل أصناف الطعام البحري الطازج. «هل تحب السمك؟» سألت ميو. أجبت بالإيجاب. تكلمت مع النادل طالبة طعاماً بلغة يونانية ركيكة. في البدء جلب إبريق زجاج من النبيذ الأبيض والخبز والزيتون. دون نخب أو ضجة سكبنا لأنفسنا نبيذاً وشرعنا في الشرب. أكلت بعض الخبز الجاف وحبات الزيتون لأخفف من شدة جوعي.

كانت ميو جميلة، وانطباعي الأول هو هذه الحقيقة البسيطة الجلية. كلا، ربما لم تكن بهذا الجلاء أو هذه البساطة. ربما كنت تحت تأثير خاطئ مرعب. ربما لسبب ما ابتلعني حلم راسخ لشخص آخر. حين أفكر في ذلك الآن لا يمكنني إلغاء هذا الاحتمال. كل ما بوسعي تأكيده في تلك اللحظة هو أني وجدتها امرأة في غاية الجمال.

كانت تلبس عدة خواتم في أصابعها، أحدها خاتم عرس ذهبي بسيط. أثناء محاولتي ضبط انطباعي الأول بسرعة حدقت فيَّ بعينين ناعمتين وهي تحتسي النبيذ بشكل عادي.

قالت: «أشعر كأني قابلتك من قبل، ربما لأني سمعت عنك كثيراً.»

قلت: «أخبرتني سوماير كثيراً عنك أيضاً.»

كانت ميو مشرقة وعندما تبتسم تظهر خطوط صغيرة ساحرة على طرفي عينيها. «أعتقد أن بإمكاننا تجاوز المقدمات إذن.»

أومأت برأسي.

أكثر ما أحببت في ميو أنها لم تحاول إخفاء عمرها الذي وفق سوماير يبلغ 38 أو 39 سنة. وبالفعل تبدو في هذا العمر. بقوامها النحيل المشدود وبعض المساحيق يمكن أن تبدو في العشرينات بسهولة، لكنها لم تحاول بذل جهد في ذلك. تركت عمرها يطفو على وجهها بشكل طبيعي، وقبلته كما هو وتصالحت معه.

ألقت ميو بحبة زيتون في فمها. أمسكت بالنواة بأصابعها ومثل شاعر يضع الحركات في مكانها الصحيح وضعتها برشاقة في منفضة السجائر.

قالت: «آسفة على الاتصال بك في منتصف الليل. كنت أتمنى شرح الأمور بشكل أفضل، لكني كنت منزعجة ولم أدر من أين أبدأ. لم يهدأ روعي بعد، لكن ارتباكي الأول هدأ قليلاً.»

سألت: «ما الذي حدث بحق السماء؟»

وضعت ميو يديها على المنضدة منفصلتين ثم جمعتهما معاً ثانية.

«سوماير اختفت!»

«اختفت؟»

قالت ميو: «مثل الدخان.» ورشفت قليلاً من نبيذها. ثم أردفت: «إنها قصة طويلة، لذا يستحسن أن أبدأ من البداية وأقصها عليك بالترتيب، وإلا لن تظهر بعض الأشياء الصغيرة التي لا تكاد تدرك. القصة نفسها في غاية الدقة، لكن دعنا نتناول الطعام أولاً، فليست كل ثانية محسوبة الآن، ومن الصعب التفكير بشكل سليم إذا كنا جائعين، كما وأن الضجيج هنا لا يسمح بالحديث.»

كان المطعم يعج بالإيماءات اليونانية والحديث المرح الصاخب، وحتى لا نصرخ أثناء الحديث ملنا إلى الأمام عبر المائدة واقترب رأسانا حين نتكلم. جلب النادل طبقاً عامراً بالسلطة اليونانية وسمكة بيضاء كبيرة مشوية. رشت ميو بعض الملح على السمكة وعصرت نصف حبة ليمون ووضعت بعض زيت الزيتون على الجزء الذي أمامها. فعلت الشيء نفسه. تركز اهتمامنا على الأكل الآن. كما قلت الأمور الملحّة أولاً، لذا كان علينا أن نملأ بطنينا.

سألت «كم يمكنني البقاء هنا؟» أجبت «يبدأ الفصل

الجديد بعد أسبوع، لذا عليَّ العودة في غضون ذلك التاريخ، وإلا تصعب الأمور.» أومأت ميو برأسها متقبلة الوضع. زمّت شفتيها وبدا أنها تفكر في شيء ما. لم تقل أي شيء متوقع مثل «لا تقلق، ستعود قبل ذلك» أو «أعجب إن كانت الأمور ستحل قبل ذلك.» وصلت إلى استنتاجها الخاص الذي أخفته في سرّها وعادت إلى تناول طعامها بصمت.

بعد العشاء ونحن نشرب القهوة فتحت موضوع ثمن تذكرة السفر. سألت إن لم يكن لدي مانع في أخذ المبلغ بالدولار في شيكات سياحية أو تحويلها المبلغ إلى حسابي بالين بعد عودتي إلى طوكيو. أيهما أفضل؟ أجبت أنني غير محتاج لذلك ويمكنني دفع الثمن بنفسي، غير أن ميو أصرت على الدفع. قالت إنها من طلب مني القدوم إلى هنا.

هززت رأسي قائلاً: «ليست المسألة أنني مؤدب أو شيء من هذا القبيل. ربما كنت سآتي طوعاً بعد فترة. هذا ما أحاول أن أقوله.»

أطرقت ميو مفكرة للحظة وأومأت برأسها «أشكر لكَ مجيئك. وقد لا يسعني التعبير عن مقدار امتناني.»

كانت السماء حين غادرنا المطعم بقع ألوان فاقعة والهواء من النوع الذي يشعرك إن استنشقته أن رئتيك ستصطبغان بالطيف الأزرق نفسه. نجوم صغيرة بدأت تتلألأ. غير قادرين على انتظار انتهاء يوم صيف طويل، خرج أهالي الجزيرة للسير حول الميناء بعد العشاء. عائلات، أزواج،

ومجموعات من الأصدقاء. غمرت رائحة المد والجزر اللطيفة في نهاية النهار الشوارع. سِرْتُ وميو في البلدة حيث اصطفت المحلات التجارية والفنادق الصغيرة والمطاعم بموائدها الموضوعة على الأرصفة على الجانب الأيمن من الشارع. سطع ضوء أصفر دافئ من النوافذ الصغيرة الخشبية المصراع، وبثت موسيقى يونانية من مذياع. امتد البحر في الجهة اليسرى وتحطمت الأمواج الداكنة بهدوء على رصيف الميناء.

قالت ميو: «بعد قليل سيصبح الدرب صعوداً، ويمكننا إما صعود درج شاهق أو صعود منحدر لطيف. الدرج أسرع إن لم يكن لديك مانع.»

أجبت: «كلا، لا مانع لدي.»

وازت درجات حجرية ضيقة انحدار التل. كانت طويلة وشاهقة، لكن قدمَي ميو المدربة لم يبد عليها أي إشارة لتعب، ولم تبطئ قط من سرعة خطواتها. كان طرف ثوبها السفلي يحف أمامي من جانب إلى آخر، وبطتا ساقيها الجميلتين اللتين لوحتهما الشمس تشعان في ضوء البدر شبه الكامل. أصابني التعب أولاً، توقفت لآخذ نفساً عميقاً. أصبحت أضواء الميناء أثناء صعودنا أصغر وأبعد، وامتص خط الأضواء المجهول كل أنشطة الناس الذين كانوا من وهلة بجانبي. كان منظراً مدهشاً، شيئاً أود قطعه بمقص وتعليقه على جدار الذاكرة.

كان المكان الذي تنزل فيه ميو وسوماير كوخاً صغيراً بشرفة على البحر. الجدران بيضاء والسقف قرميد أحمر والباب مدهون بلون أخضر غامق. نما نبات بوغنفليلية غزير على الجدار الحجري المحيط بالبيت. فتحت ميو الباب غير المقفل ودعتني للدخول.

كان جو الكوخ منعشاً وفيه حجرة معيشة وأخرى متوسطة الحجم للطعام ومطبخ. كانت الجدران من الجص الأبيض، معلق عليها لوحتان مجردتان. في حجرة المعيشة كانت هناك أريكة ورف كتب وجهاز ستيريو. لم تكن أي قطعة من الأثاث قريبة من النفس، لكنها مريحة.

خلعت ميو قبعتها ووضعت حقيبة يدها على قاطع المطبخ. سألت: «هل تود أن تشرب شيئاً؟ أو تفضل الاستحمام أولاً.»

قلت: «أظن أنني سأستحم أولاً.»

غسلت شعري وحلقت ذقني، ثم جففت شعري وبدلت قميصي الرياضي والسروال القصير، ما أشعرني بالعودة إلى حد ما إلى الحالة الطبيعية. كانت هناك فرشاتا أسنان تحت مرآة الحمام، إحداهما زرقاء والأخرى حمراء. عجبت أيهما فرشاة سوماير.

عدت إلى حجرة المعيشة لأجد ميو جالسة على مقعد مريح وفي يدها كأس براندي. دعتني لمشاركتها الشراب،

لكني فضلت جعة باردة. أخذت جعة أمستيل من الثلاجة وسكبتها في كأس طويلة. بقيت ميو صامتة فترة طويلة وهي غائصة في مقعدها. لم يبد أنها تبحث عن الكلمات المناسبة التي تود قولها، بل كانت غارقة في بعض الذكريات الشخصية، بعضها دون بداية وأخرى بلا نهاية.

تجرأت على السؤال: «كم مضى على وجودك هنا؟»

قالت ميو بعد تفكير: «اليوم هو اليوم الثامن.»

«وسوماير اختفت من هنا؟»

«هذا صحيح، مثل الدخان كما قلت لك.»

«متى حدث ذلك؟»

قالت: «في الليل قبل أربعة أيام.» ثم جالت بنظرها على أرجاء الحجرة كأنها تبحث عن مفتاح لحل لغز: «لا أدري من أين أبدأ.»

قلت: «أخبرتني سوماير في رسالتها أنها ذاهبة إلى باريس من ميلانو، ثم أخذ القطار إلى بيرجوندي. نزلتما في بيت ضخم لصديق في قرية بيرجوندي.»

قالت: «حسناً، إذن سأبدأ من هناك.»

8

«أعرف منتجي النبيذ حول القرية منذ وقت طويل، وأعرف نبيذهم كما أعرف تصميم بيتي. ما نوع نبيذ عنب منحدر ما في حقل ما. كيف أثر مناخ هذه السنة على نكهته، وأي المنتجين يعمل أكثر، وابن من يحاول أن يساعد والده. كم المبلغ الذي أخذه المنتجون كقرض، من اشترى سيارة سيتروان جديدة. أمور كهذه. النبيذ مثل تربية الخيول الأصيلة، عليك أن تعرف النسل وآخر المعلومات عنها. لا يكفي لشراء النبيذ الاعتماد على كون المذاق جيداً أم لا.»

توقفت ميو لحظة لالتقاط نَفَسِها، وبدت غير قادرة على أخذ قرار بالذهاب أم لا، ثم تابعت الحديث.

«هناك مكانان في أوروبا يمكنك الشراء منهما، لكن تلك القرية بيرجوندي هي مصدري الرئيس. لذا أحاول أن أقضي وقتاً طويلاً إلى حد ما هناك مرة على الأقل في السنة لتجديد الصداقات وجمع آخر الأخبار. أذهب دوماً وحيدة، لكن هذه المرة أردت الذهاب لزيارة إيطاليا أولاً، فقررت أخذ سوماير

معي. من المريح أحياناً أن يكون معك في رحلات كهذه شخص آخر، علاوة على ذلك طلبت منها دراسة الإيطالية. في النهاية قررت الذهاب وحيدة واختلاق عذر ما كي تعود سوماير إلى البلاد قبل أن أذهب إلى فرنسا. لقد اعتدت على السفر وحدي منذ الصغر ومهما كنت قريباً من الآخرين فليس من السهل أن تكون مع شخص آخر كل يوم.

كانت كفاءة سوماير مدهشة، إذ أنجزت كثيراً من المهمات مثل شراء بطاقات السفر، حجز الفنادق، مناقشة الأسعار، الاحتفاظ بسجل للمصروفات، البحث عن مطاعم محلية جيدة، وأمور من هذا القبيل. كانت لغتها الإيطالية قد تحسنت وأعجبت بحب استطلاعها الصحي، ما ساعدني على خوض تجارب ما كنت أقوم بها لو كنت وحيدة. أعتقد أني شعرت بشيء خاص يجمعنا.

أذكر جيداً المرة الأولى التي تقابلنا فيها وتحدثنا عن سبوتنيك. كانت تتكلم عن كتاب البيتنيك، وأخطأت في الكلمة وحسبت أنها قالت سبوتنيك. أضحكنا ذلك وكسر الجليد الكائن بيننا. هل تعرف ما معنى كلمة سبوتنيك في الروسية؟ «رفيق السفر»، أخرجت الكلمة من القاموس قبل وقت ليس بالطويل. مصادفة غريبة إذا فكرت في الأمر. أعجب لماذا أطلق الروس هذا الاسم الغريب على مركبتهم الفضائية، إنها مجرد قطعة معدنية صغيرة تدور حول الأرض.»

صمتت ميو برهة قصيرة ثم أكملت.

«بأية حال، انتهى بي الأمر أن أصطحب سوماير إلى بيرجوندي. أثناء زيارتي لمعارفي القدامى والاهتمام بأمور العمل، استعارت سوماير، التي لا تعرف الفرنسية إطلاقاً، السيارة للتجول في المنطقة. قابلت في قرية سيدة عجوز إسبانية ثرية. تبادلتا الحديث بالإسبانية وأصبحتا صديقتين. السيّدة الأسبانية عرّفت سوماير على رجل إنجليزي ينزل في الفندق نفسه عمره يناهز الخمسين، كاتب من نوع ما، وسيم ومهذب جداً. أنا متأكدة أنه شاذ. كان معه سكرتير بدا أنه عشيقه.

دَعَيانا لتناول العشاء معهما. كانا في منتهى اللطف. اكتشفنا أثناء الحديث أن هناك معارف مشتركين لدينا، وشعرت بأني وجدت أرواحاً أليفة شقيقة.

أخبرنا الرجل الإنجليزي أنه يملك كوخاً صغيراً في جزيرة يونانية ويسرّه أن نذهب إلى هناك. كان يذهب عادة مدة شهر واحد في الصيف فقط، لكن عملاً شغله هذا الصيف عن الذهاب. أخبرنا أن البيوت أفضل أن تكون مأهولة، وإلا سيصيب من يعتني بها الكسل. لذا، يرجونا استخدام المكان، أي هذا الكوخ بعبارة أخرى، إن لم يكن هناك إزعاج.»

حدقت ميو حولها في الحجرة. وقالت: هكذا جئنا إلى هنا.

ثم أكملت:

«زرت اليونان حين كنت أدرس في الجامعة. كانت تلك من جولات الزوبعة حيث تثب من ميناء إلى آخر، ومع ذلك تحب البلد الذي تزوره. لذا كان عرضاً مغرياً أن تجد بيتاً تنزل فيه بالمجان في جزيرة يونانية وتنزل فيه كما تريد ولأي مدة ترغب. انتهزت سوماير الفرصة أيضاً. عرضت دفع أجرة مناسبة لكن الرجل الإنجليزي رفض قائلاً إن الكوخ ليس للإيجار. ناقشنا بعض الأفكار لوقت قصير واتفقنا أن اشكره بإرسال صندوق من النبيذ الأحمر إلى بيته في لندن.

كانت الحياة في الجزيرة كالحلم. لم أعرف لأول مرة كم سأستمتع بعطلة حقيقية دون أي برنامج أقوم به. الاتصالات متخلفة قليلاً هنا - كما تدري خدمة الهاتف مروعة - وليس هناك أي فاكس أو إنترنت. قد تسبب العودة إلى طوكيو بعد الموعد المحدد أصلاً مشكلة للآخرين، لكن ما إن وصلت إلى هنا لم يعد للأمر أهمية تذكر.

كنت وسوماير ننهض باكراً كل صباح، نحزم حقيبة بالمناشف والماء ومساحيق الحماية من الشمس ونذهب إلى الشاطئ في الجهة الأخرى من الجبال. الشاطئ جميل ويستحوذ على الألباب، الرمل أبيض صاف وبالكاد توجد موجة. صحيح أنه بعيد عن الطريق وقليل من الناس يذهبون هناك، خاصة في الصباح. الجميع يسبحون هناك عراة،

ونحن فعلنا ذلك أيضاً. يا له من شعور رائع أن تسبح في البحر الأزرق الصافي في الصباح عارياً كما ولدت. تشعر بأنك في عالم آخر.

حين كنا نتعب من السباحة، كنت وسومايرنستلقي على الشاطئ لتلوح الشمس بشرتنا. في البدء يشعر المرء بالخجل قليلاً حين يكون عارياً أمام الآخرين، لكن عندما يعتاد على الأمر، لا يعود للأمر أهمية. أعتقد أن طاقة المكان كانت قد بدأت تؤثر علينا. كنا نساعد بعضنا بعضاً في وضع مساحيق الحماية من الشمس على جسدينا، ونستلقي باسترخاء تحت الشمس، نقرأ وننام ونتحدث. شعرت بالحرية هنا.

كنا نعود إلى البيت فوق الجبال ونستحم ونتناول وجبة خفيفة ثم نهبط الدرج إلى البلدة حيث نتناول الشاي في مقهى الميناء، نقرأ الصحيفة الإنجليزية، نشتري بعض الطعام من الدكان، نذهب إلى البيت ثم نقضي وقتنا كما نريد حتى المساء - نقرأ على الشرفة أو نستمع إلى الموسيقى. أحياناً تمكث سومايرفي حجرتها حيث يبدو أنها تكتب. كنت أسمعها تفتح جهاز كتابتها وأسمع نقر أصابعها على مفاتيح الأحرف. في المساء قد نذهب إلى الميناء لمشاهدة قدوم العبّارة، نشرب شيئاً بارداً ونراقب الناس وهم يهبطون من السفينة.

كنا نجلس بهدوء على حافة العالم، ولا يمكن لمخلوق أن يرانا. هكذا كان الشعور - سومايروأنا الوحيدتان هنا

وليس هناك ما يشغل تفكيرنا. لم أرغب في الحركة ولم أرغب في الذهاب إلى أي مكان. كل ما أردته هو البقاء هنا إلى الأبد. كنت أدري أن هذا مستحيل - كانت حياتنا هنا مجرد وهم مؤقت، ويوماً ما سيعيدنا الواقع إلى العالم الذي قدمنا منه، لكن حتى ذلك الوقت أردت أن أستمتع بكل يوم حتى الثمالة دون التفكير في أي شيء آخر. أحببت حياتنا هنا حتى أربعة أيام خلت».

في يومهما الرابع في الجزيرة، ذهبتا إلى الشاطئ كالعادة، استلقيتا تحت الشمس وعادتا إلى البيت، ثم غادرتا ثانية إلى الميناء. تذكرهما نادل المقهى - لم ينسَ البخشيش الدسم الذي كانت ميو تتركه - وحياهما بحرارة. أطرى جمالهما بأدب. ذهبت ميو إلى كشك الصحف واشترت صحيفة إنجليزية تصدر في أثينا، كانت صلتهما الوحيدة بالعالم الخارجي. كانت وظيفة سوماير قراءة الصحيفة مراجعة أسعار صرف العملة، ثم تترجم وتقرأ بصوت مرتفع لميو أي أخبار مهمة أو مقال مثير للاهتمام تصادفه.

كانت المقالة التي اختارتها سوماير للقراءة بصوت مرتفع ذاك الصباح تدور حول سيدة في السبعين من عمرها أكلتها قططها. حدث ذلك في ضاحية صغيرة في أثينا. كانت السيدة العجوز قد فقدت زوجها، رجل أعمال، قبل إحدى عشرة سنة وتعيش منذ ذلك اليوم حياة هادئة في شقة مكونة من

طابقين مع عدد من القطط كأصدقائها الوحيدين. في أحد الأيام سقطت المرأة على الأريكة ووجهها إلى الأسفل إثر سكتة قلبية وتوفيت. لم يعرف كم مضى من الوقت بين السكتة وموتها. على أي حال مرت روح المرأة بكل مراحل توديع رفيقها القديم: الجسد الذي سكنته سبعين سنة. لم يكن لديها أقارب أو أصدقاء يزورونها بشكل منتظم، ولم يكتشف جثمانها إلا بعد أسبوع. كانت الأبواب مغلقة وكذلك النوافذ فلم تستطع القطط الخروج بعد موت صاحبتها. لم يكن هناك أي طعام في الشقة. لابد أن شيئاً كان موجوداً في الثلاجة لكن القطط لم تملك المهارة الضرورية لفتح باب الثلاجة، ومن شدة جوعها التهمت جثمان السيدة.

وهي ترشف من فنجان قهوتها، ترجمت سوماير المقالة على مراحل. حام نحل حول المنضدة وراح يلعق المربى الذي سكبه زبون سابق. حدقت ميو بالبحر عبر قدحها وهي تصغي لسومايز بانتباه.

سألت ميو: «وما حدث بعد ذلك؟»

قالت سومايز وهي تطوي الصحيفة من الوسط وتضعها على المنضدة: «هذا كل ما في الأمر. هذا كل ما تقوله الصحيفة.»

«ماذا حدث للقطط؟»

قالت سومايز: «لا أدري...» ثم زمّت شفتيها جانباً

وفكرت في الأمر «الصحف كلها متشابهة، لا تخبرك ما تود معرفته.»

طار النحل كما لو أحس بشيء في الهواء، وحوّم بأزيز احتفالي برهة ثم حط ثانية على المنضدة وعاد للعق المربى.

قالت سوماير وهي تشد ياقة قميصها الرياضي الواسع وتملس ثنياته: «يتساءل المرء ما مصير القطط!»

كانت ترتدي قميصاً رياضياً وسروالاً قصيراً، وكما كانت ميو تعلم لا ملابس داخلية.

«القطط التي تذوق اللحم البشري قد تتحول إلى أكلة لحوم بشر. لذا ربما قتلوها أو ربما قالت الشرطة إنها عانت بما فيه الكفاية وأطلقت سراحها.»

«إذا كنت مديرة البلدية أو رئيسة البوليس في البلدة ماذا كنتِ تفعلين؟»

فكرت سوماير في الأمر. «ما رأيك بوضعها في إصلاحية وجعلها نباتية؟»

«ليست فكرة سيئة» قالت ميو ضاحكة وخلعت نظارتها الشمسية والتفتت لتواجه سوماير. «تذكرني هذه القصة بأول محاضرة سمعتها عندما دخلت المدرسة الثانوية الكاثوليكية. هل سبق وأن أخبرتك أنني درست في مدرسة بنات كاثوليكية متزمّتة لمدة ست سنوات؟ دخلت مدرسة ابتدائية عادية، لكن ذهبت إلى تلك المدرسة في المرحلة الثانوية. بعد احتفال

الدخول مباشرة أخذت راهبة عجوز مقعدة كل الطالبات الجديدات إلى المسرح وألقت علينا خطاباً حول الأخلاق الكاثوليكية. كانت راهبة فرنسية لكن لغتها اليابانية كانت طلقة. تكلمت عن كل شيء لكن ما أذكره قصة القطة والجزيرة المهجورة.»

قالت سوماير: «يبدو هذا مثيراً للاهتمام.»

«تحطمت سفينتك وأخذتك الأمواج إلى جزيرة مهجورة. أنت وقطة فقط في قارب نجاة. همتما فترة في البحر وانتهى بكما المطاف في تلك الجزيرة، جزيرة صخرية لا يوجد فيها ما يؤكل ولا حتى ماء أيضاً. كان في قارب النجاة بسكويت يكفي لعشرة أيام وماء لشخص واحد. هذا كل ما في الأمر وهكذا تنتهي القصة.»

جالت عينا الراهبة في أرجاء المسرح وقالت بصوت قوي واضح: «أغمضن عيونكن وتصورن المشهد التالي. قذفت بك الأمواج إلى جزيرة مهجورة مع قطة. جزيرة معزولة في منطقة غير مأهولة، ومن المستحيل تقريباً أن ينقذك أحد في غضون عشرة أيام. حين ينتهي الطعام والماء الذي معك ستموتين. حسناً، ماذا ستفعلين؟ حيث إن القطة تعاني مثلك، هل عليك اقتسام طعامك القليل معها؟»

صمتت الراهبة ثانية ونظرت في وجوهنا جميعاً. «كلا، قد يكون هذا خطأ.» ثم أضافت: «أريد منكن أن تفهمن أن

اقتسام طعامك مع القطة خطأ. السبب أنكن مخلوقات مكرمة مختارة من الله والقطة ليست كذلك. لهذا السبب يجب أن تتناولي كل الطعام وحدك.» بدت نظرة جدية مرعبة على وجه الراهبة.

«في البدء ظننت أن هذه نكتة. انتظرت بيت القصيد، لكنها لم تضف شيئاً. حوّلت خطابها إلى موضوع الكرامة الإنسانية وقيمة الإنسان. جعلني كل ذلك أطرح سؤالاً حول فائدة رواية مثل هذه القصص لأطفال دخلوا المدرسة حديثاً! لم أجد جواباً وما زلت غير قادرة على العثور على واحد حتى الآن؟»

فكرت سوماير في الأمر «هل تقصدين إن كان لا بأس في النهاية أكل القطة؟»

«حسناً، لا أدري. لم تصل إلى هذا الحد.»

«هل أنت كاثوليكية؟»

هزت ميو رأسها «حدث وأن كانت المدرسة قرب بيتي، لذا التحقت بها، كما أحببت زيهم المدرسي. كنت الطالبة الوحيدة غير اليابانية.»

«هل مررت بتجارب سيئة؟»

«لأنني كنت كورية؟»

«نعم.»

هزت ميو رأسها ثانية. «كانت المدرسة متحررة وإن

كانت القوانين صارمة، وبعض الراهبات غريبات الأطوار. لكن الجو بشكل عام كان تقدمياً. كلا لم أواجه أي تعصب. كونت بعض الصداقات الجيدة. إجمالاً يمكنني القول إنني استمتعت بالمدرسة. مررت ببعض التجارب السيئة، لكن ذلك كان حين خرجت للعالم الحقيقي. هذا شيء ليس غير عادي، ويحدث مع معظم البشر.»

«سمعت أنهم يأكلون القطط في كوريا. هل هذا صحيح؟»

«سمعت الشيء نفسه، لكني لا أعرف أحداً يفعل ذلك.»

كان ذلك أشد أوقات النهار حرارة، وساحة البلدة تقفر في الفترة الأولى من ما بعد الظهيرة. كل من في الجزيرة تقريباً في بيته حيث الحرارة أقلّ يأخذ قيلولة. الأجانب الفضوليون وحدهم تجرّأوا على الخروج في تلك الساعة من النهار.

كان في الساحة تمثال بطل قاد تمرداً في اليونان وحارب الأتراك الذين سيطروا على الجزيرة، لكن ألقي القبض عليه وأعدم بالخازوق. وضع الأتراك خازوقاً حاداً في الساحة وأجلسوا البطل المسكين عليه عارياً ببطء شديد ودخل الخازوق من شرجه حتى خرج من فمه واستغرق موته عدة ساعات. أقيمت الساحة في المكان الذي حدث فيه ذلك.

لابد أن التمثال كان مبهراً عندما نصب، لكن مع تعاقب السنوات وريح البحر والغبار ونفايات طيور النورس صار من الصعب التعرف على ملامح الرجل، وبالكاد يلقي أهالي الجزيرة نظرة عليه، وبدا أن التمثال نفسه قد أعطى ظهره للعالم.

قالت سومايرا بشكل عفوي «على ذكر القطط، لدي ذكرى مع واحدة. حين كنت في الصف الثاني الابتدائي، كانت عندنا قطة صغيرة جميلة عمرها ستة أشهر. كنت في الشرفة مساء يوم ما أقرأ كتاباً حين راحت القطة تركض بهياج حول جذع شجرة صنوبر في الحديقة. القطط تفعل ذلك، بالرغم من عدم وجود شيء تصدر مواءً، تحني ظهورها، تقفز، يقف شعرها، يرتفع ذيلها وتأخذ وضعاً هجومياً.

كانت القطة منهمكة فلم تلاحظ أنني أراقبها من الشرفة. كان منظراً غريباً فوضعت كتابي جانباً ورحت أراقبها. لم يبد أن لعبتها تتعبها، في الواقع، ازداد إصرارها مع مرور الوقت كما لو كانت مسكونة.»

شربت سومايرا وحكت أذنها بلطف.

«كلما زادت مراقبتي، ازداد خوفي. لقد رأت القطة شيئاً لم أره. ما الذي سبب لها الهياج؟ أخيراً، راحت القطة تركض حول جذع الشجرة بسرعة هائلة مثل النمر الذي تحول إلى زبدة في قصة الأطفال. أخيراً وبعد ركض طويل قفزت

فوق جذع الشجرة. كنت أرى وجهها الصغير من بير الأغصان من ذلك المكان المرتفع. ناديت عليها من الشرفة بصوت مرتفع لكنها لم تسمعني.

أخيراً غربت الشمس وهبت ريح أواخر الخريف. جلست على الشرفة في انتظار هبوط القطة. كانت قطة وديعة وحسبت أني إذا جلست هناك برهة فقد تهبط لكنها لم تفعل، ولم أعد أسمع حتى مواءها. زادت العتمة وداهمني الخوف فأخبرت عائلتي. قالوا: «لا تقلقي، دعيها لحالها وستهبط سريعاً.» لكن القطة لم تعد قط».

سألت ميو: «ماذا تقصدين بأنها لم تعد قط؟»

«اختفت مثل الدخان. أخبرني الجميع أن القطة لا بد أن تكون قد هبطت أثناء الليل من فوق الشجرة وذهبت إلى مكان ما. تصعد القطط وتتسلق الأشجار الباسقة ثم تخاف عندما تدرك كم هي عالية ولا تهبط، أمر يحدث طوال الوقت. قالوا إذا كانت القطة ما تزال في مكانها فسيسمع مواؤها ليعلمنا بأنها هناك، لكني لم أصدق ذلك. فكرت ربما تعلقت بغصن ومن شدة خوفها لم تقو على المواء. حين عدت من المدرسة، جلست على الشرفة ونظرت إلى شجرة الصنوبر ورحت أنادي على القطة بين الفينة والأخرى، لكن لا جواب. بعد أسبوع توقفت عن فعل ذلك. أحببت هذه القطة الصغيرة التي سببت لي حزناً شديداً. كلما نظرت إلى شجرة الصنوبر يمكنني تصور تلك القطة المسكينة ميتة باردة متحجرة

ومتعلقة بغصن. لم تذهب القطة إلى أي مكان وجاعت حتى الموت وهي ترتجف فوق الشجرة.

لم أمتلك قطة بعد ذلك وإن كنت لا أزال أحب القطط، لكني قررت آنذاك أن القطة الصغيرة المسكينة التي تسلقت الشجرة ولم تعد قط ستكون الأولى والأخيرة. لم أقدر على نسيان تلك القطة الصغيرة وعلى حب قطة أخرى.»

قالت ميو: «هذا ما تحدثنا عنه بعد ظهر ذلك اليوم في المقهى. حسبت أنها مجرد ذكريات غير مؤذية، لكن الآن يبدو أن كل شيء مهم. ربما كانت تلك مخيلتي فقط.»

التفتت ميو ونظرت إلى النافذة. حرك النسيم الذي هب من البحر الستائر المطوية. بدا أن الحجرة أثناء تحديقها في العتمة في الخارج قد غمرت بصمت أعمق.

قلت: «هل تمانعين إذا طرحت سؤالاً؟ آسف إن كان خارج الموضوع، لكنه يقلقني. قلتِ إن سوماير اختفت وتلاشت مثل الدخان، وثم ذهبتِ إلى البوليس، صحيح؟»

أومأت ميو برأسها.

«لماذا طلبت مني القدوم عوض الاتصال بأهل سوماير؟»

«لم تكن لدي أدنى فكرة عما حدث لها وبدون دليل قوي لم أدر إن كان عليَّ إزعاج والديها. أربكني الأمر بعض الوقت فقررت الانتظار لرؤية ما سيحدث.

حاولت تخيل والد سوماير الوسيم يركب العبّارة إلى الجزيرة. وهل سترافقه زوجة والدها، التي يفهم انزعاجها من الحدث؟ قد يكون ذلك أمراً مربكاً. بالنسبة لي كان الأمر بالفعل مربكاً. كيف يمكن لأجنبية الاختفاء في مثل هذه الجزيرة الصغيرة مدة أربعة أيام؟»

«لكن لماذا اتصلت بي؟»

ضمت ميو ساقيها العاريتين مرة أخرى، وأمسكت بحافة ثوبها بين أصابعها وشدته إلى أسفل.

«أنت الوحيد الذي يمكنني الاتكال عليه.»

«لكن لم يسبق لك أن قابلتني!»

«تثق سوماير بك أكثر من أي شخص آخر. قالت إنك تفكر في الأمور ملياً مهما كان الموضوع.»

«أخشى أن يكون ذلك بالتأكيد رأي الأقلية.»

أغمضت ميو عينيها قليلاً وابتسمت فظهرت تلك التجاعيد حول عينيها.

وقفتُ وسرتُ أمامها ثم أخذتُ كأسها الفارغة. ذهبت إلى المطبخ وسكبت بعض الكورفوازييه فيها، ثم عدت إلى حجرة الجلوس. شكرتني وأخذت الكونياك. مر الوقت وتحركت الستارة بصمت. كان للنسيم رائحة مكان آخر.

سألتني ميو: «هل تريد فعلاً معرفة الحقيقة؟» بدا صوتها جافاً كما لو اتخذت قراراً مختلفاً.

رفعت نظري وحدقت في وجهها. قلت: «شيء يمكنني قوله بتأكيد مطلق. لو كنت لا أريد معرفة الحقيقة لما قدمت إلى هنا».

حولت ميو نظرها صوب الستائر وتكلمت أخيراً بصوت هادئ.

«حدث ذلك في تلك الليلة بعد أن تحدثنا عن القطط في المقهى.»

9

عقب حديثهما عن القطط في مقهى الميناء، ذهبت ميو وسوماير للتسوق وعادتا إلى الكوخ. كالعادة، استراحتا حتى موعد العشاء. كانت سوماير في حجرتها تكتب على جهاز حاسوبها المحمول وميو مستلقية على الأريكة في حجرة الجلوس واضعة يديها خلف رأسها، مغمضة عينيها تستمع إلى تسجيل من عزف جوليوس كاتشين لأغاني برامز الخفيفة. كانت أسطوانة قديمة غير أن الأداء كان جميلاً عاطفياً لا ينسى.

سألت ميو مرة وهي تنظر إلى باب حجرة سوماير: «هل تزعجك الموسيقى؟» كان الباب مفتوحاً على مصراعيه.

قالت سوماير ملتفتة نحوها: «برامز لا يزعجني بتاتاً.»

كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى ميو فيها سوماير تكتب بهذا القدر من التركيز. كان فمها مزموماً مثل حيوان يجوس بحثاً عن فريسته، وعيناها أعمق غوراً من المعتاد.

سألت ميو: «ماذا تكتبين؟ رواية سبوتنيك جديدة؟»

ارتخى التوتر الكائن حول فم سوماير قليلاً: «ليس شيئاً يذكر. مجرد أشياء جالت في فكري قد يستفيد منها شخص ما.»

عادت ميو إلى أريكتها وغاصت في عالم الموسيقى المنمنم الذي ينسج في شمس بعد الظهيرة. فكرت، ما أروع أن يعزف برامز بشكل جميل. في الماضي كنت أجد دوماً مشاكل في أعمال برامز الصغيرة، خاصة الأغاني الخفيفة. لم يكن بوسعي الاستسلام تماماً لعالم النزوات هذا والفروق الدقيقة سريعة الزوال التي لا تكاد تُدْرَك والتنهدات. الآن، ينبغي أن أتمكن من عزف برامز بشكل أجمل من قبل. لكن ميو كانت تعلم جيداً أن ليس بإمكانها عزف أي شيء بتاتاً إلى الأبد.

في السادسة والنصف أعدتا العشاء في المطبخ وتناولتاه على الشرفة. حساء سمك شبوط بحري مع أريج الأعشاب وسلطة وخبز. شربتا بعض النبيذ ولاحقاً قهوة حارة. شاهدتا قارب صيد ظَهَرَ قرب الجزيرة ورسم قوساً قصيراً أبيض اللون أثناء إبحاره متجهاً إلى الميناء. لا ريب أن وجبة ساخنة كانت تنتظر البحارة في بيوتهم.

سألت سوماير وهي تغسل الأواني: «بالمناسبة متى سنغادر هذا المكان؟»

أجابت ميو وهي تنظر إلى التقويم المعلق على الحائط:

«أود البقاء أسبوعاً آخر، وهذا أكثر ما يمكنني فعله. لو رجع الأمر لي لبقيت هنا إلى الأبد.»

قالت سوماير بابتهاج: «لو قدر لي لبقيت أيضاً، لكن ليس باليد حيلة. الأشياء الرائعة تنتهي دوماً.»

كالعادة وفق الروتين الذي اعتادتا عليه، ذهبت كل منهما إلى حجرتها قبل العاشرة. ارتدت ميو بيجامة طويلة الأكمام من القطن الأبيض ونامت ما إن وضعت رأسها على الوسادة.

سرعان ما استيقظت كما لو هزها نبض قلبها. نظرت إلى ساعة السفر المنبهة بجانبها التي تشير إلى 12:30 والحجرة غارقة في عتمة دامسة وصمت مطبق. أحست بوجود شخص في الجوار مختبئ، حابس الأنفاس. سحبت ميو الغطاء إلى رقبتها وأصغت. كان خفقُ قلبها عالي الوجيب بحيث أغرق كل شيء آخر. لم يكن حلماً مرعباً تسلل إلى اليقظة - من المؤكد أن شخصاً معها في الحجرة. مدت يدها إلى الستارة بحذر كي لا تحدث صوتاً وجذبتها جانباً مقدار إنش أو اثنين. تسلل ضوء قمر شاحب إلى الحجرة. ألقت نظرة على الحجرة كلها دون أن تبدي أي حركة.

حين اعتادت عيناها على العتمة، استطاعت أن تتبين خطوط شيء يتشكل تدريجياً في ركن من أركان الحجرة. في ظل خزانة الملابس قرب الباب حيث العتمة أعمق، كان ذلك

الجسم مهما كان منخفضاً متكوراً ككرة سميكة مثل حقيبة بريد ضخمة منسية منذ أمد طويل. حيوان؟! كلب ضخم؟! لكن البوابة الخارجية مغلقة وباب حجرتها مقفل ولا يمكن لكلب أن يدخل.

تنفست ميو بهدوء وحدقت بتركيز. كان فمها جافاً وبإمكانها الإحساس بتأثير ضئيل من البراندي الذي تناولته قبل نومها. مدت يدها وسحبت الستارة أكثر ليدلف الحجرة مزيد من ضوء القمر. ببطء كخيط محلول متشابك أمكنها أن تتبين الخطوط الخارجية للقطعة السوداء. بدت كجسم بشري، الشعر مدلى إلى الأمام وساقان نحيلتان منحنيتان في زاوية قائمة. امرأة تجلس على الأرض متكورة والرأس بين الساقين. كانت معصورة كما لو أنها تحمي نفسها من شيء سيقع من السماء.

لقد كانت سوماير مرتدية بجامتها الزرقاء المعتادة، جاثمة كحشرة بين الباب وخزانة الملابس. لا تتحرك ولا حتى تتنفس، كما يمكن لميو أن ترى.

تنهدت ميو بارتياح. لكن ما الذي تفعله سوماير هنا بحق السماء؟ جلست ميو بهدوء في الفراش وأضاءت النور. عم الحجرة كلها نور أصفر، غير أن سوماير لم تتزحزح قيد أنملة. لم يبد أنها لاحظت أن النور مضاء.

«ما الخطب؟» سألت ميو بصوت منخفض أولاً، ثم بصوت أعلى.

لم تكن تبدر عنها إجابة. لم يبد أن صوت ميو قد وصل سوماير. غادرت ميو الفراش وذهبت إليها. كان الإحساس بالسجادة أخشن من أي وقت مضى تحت قدميها.

سألت ميو وهي تجلس بجانب سوماير: «هل أنت مريضة؟»

لا إجابة أيضاً.

لاحظت ميو أن سوماير تمسك بشيء في فمها. كانت تلك فوطة الوجه القرنفلية المعلقة دوماً في الحمام. حاولت ميو سحبها منها، لكن فم سوماير كان قابضاً عليها بقوة. كانت عيناها مفتوحتين، وزائغتين. استسلمت ميو ووضعت يدها على كتف سوماير التي كانت بيجامتها مبتلة تماماً.

قالت ميو: «من الأفضل أن تخلعي بيجامتك. العرق ينضح منك وستصابين بالبرد.»

بدت سوماير مخدرة لا تسمع ولا ترى شيئاً. قررت ميو خلع بيجامة سوماير، وإلا سيتجمد جسدها. كان ذلك في شهر أغسطس/آب لكن ليالي الجزيرة تكون أحياناً باردة. كانتا تسبحان عاريتين كل يوم ومعتادتين على رؤية الواحدة لجسد الأخرى، لذا فكرت ميو أن سوماير لا تمانع إذا خلعت عنها ملابسها.

حلت ميو أزرار بيجامة سوماير وهي تسند جسدها، واستطاعت بعد حين خلع القطعة العلوية منها ثم السفلية.

كان جسد سومايِر متصلباً لكنه بدأ في الاسترخاء وفي آخر الأمر أصبح رخواً. انتزعت ميو فوطة الوجه من فمها. كانت مبتلة بريقها وعلامة بارزة لموضع الأسنان عليها.

لم تكن سومايِر ترتدي ملابس داخلية تحت البيجاما. أخذت ميو منشفة قريبة ومسحت العرق عن جسد سومايِر. ظهرها أولاً ثم الإبطان وصدرها. مسحت بطنها وبعد ذلك بسرعة المنطقة بين خصرها وفخذيها. كانت سومايِر مستسلمة دون مقاومة. بدت فاقدة للوعي، لكن حين نظرت ميو إلى عينيها عِلِمَتْ أنها مدركة لما يجري.

لم تكن ميو قد لمست جسد سومايِر من قبل. بشرتها مشدودة وناعمة كبشرة طفل. حين رفعت جسدها وجدته أثقل مما تصورت ويفوح برائحة العرق. شعرت ميو أن قلبها يخفق وهي تمسح العرق عن جسد سومايِر، وتجمع الريق في فمها وراحت تبتلعه مرة تلو أخرى.

تلألأ جسد سومايِر وقد غسله ضوء القمر مثل رخام قديم. كان نهداها صغيرين لكنهما جيدا الشكل بحلمتين حسنتي التشكيل، وشعر عانتها الأسود مبتلاً بالعرق ويتلألأ كالعشب في ندى الصباح. كان جسدها المنهك مختلفاً تماماً عن الذي رأته ميو تحت لهيب الشمس على الشاطئ، جسد يمزج عناصر طفولة راسخة وبراعم بلوغ انتزعت قسراً بفعل انسياب الزمن المؤلم دون معرفة النتائج.

شعرت ميو أنها تتطلع على أسرار شخص آخر، أسرار

محظورة لا ينبغي أن تراها. تجنبت النظر إلى بشرتها العارية وهي مستمرة في مسح العرق عن جسد سوماير. راحت تعيد عزف قطعة لباخ في ذهنها حفظتها عن ظهر قلب في طفولتها. مسحت أطراف سومايير التي تصبب منها العرق والتصق بجبهتها وحتى داخل أذنيها الصغيرتين.

شعرت ميو بذراع سومايير تلتفّ حول جسدها بصمت، وتنفسها يمسّ رقبتها مساً خفيفاً.

سألت: «هل أنت على ما يرام؟»

لم تجب سومايير، غير أن شدة ذراعها ازدادت قليلاً. ساعدتها ميو وحملتها إلى سريرها، حيث مددتها وغطتها. استلقت سومايير في سرير ميو دون حراك وعيناها مغمضتان.

راقبتها ميو فترة لكن سومايير لبثت ساكنة. بدا أنها نامت. ذهبت ميو إلى المطبخ وشربت بضع كؤوس من الماء المعدني. تنفّست مراراً بعمق حتى استعادت سكينتها. توقف قلبها عن الخفقان بسرعة وإن آلمها صدرها بسبب توتر اللحظات الأخيرة. لفّ الصمت الخانق كل شيء. لا أصوات ولا حتى نباح كلب. لا أمواج ولا صوت ريح. تعجبت ميو لسكون كل شيء كلّ شيء من حولها، سكون موت؟

ذهبت ميو إلى الحمام وأخذت بيجامة سومايير المبتلة بالعرق والمنشفة التي استخدمتها لمسح العرق عنها، وقطعة

القماش التي عليها آثار موضع أسنان سوماير وألقت بها في سلة الغسيل. غسلت وجهها وحدقت في انعكاسه في المرآة. لم تصبغ شعرها منذ أن قدمت إلى الجزيرة حتى صار الآن أبيض مثل ثلج سقط منذ حين.

حين عادت ميو إلى الحجرة كانت عينا سوماير مفتوحتين. بدا أن حجاباً رقيقاً شفافاً يغطيهما، لكن قليلاً من الوعي قد عاد إليها. كانت مستلقية والأغطية تصل حتى كتفيها.

قالت ببحة: «آسفة، أحياناً أكون كذلك.»

جلست ميو على حافة السرير مبتسمة ومدت يدها لتلمس شعر سوماير الذي كان مبلولاً: «ينبغي أن تأخذي حماماً طويلاً. لقد تعرّقتِ كثيراً.»

قالت سوماير: «شكراً، أريد أن أستلقي هنا فقط.»

أومأت ميو برأسها وقدمت منشفة استحمام جديدة لسوماير، وأخذت بيجاما جديدة من خزانة الأدراج ووضعتهما بجانب سوماير. «يمكنك استخدام هذه. لا يمكنني تصورك في بيجامة أخرى، هل يمكنك ذلك؟»

قالت سوماير: «هل يمكنني النوم هنا الليلة؟»

«حسناً، نامي وأنا سأنام في سريرك.»

قالت سوماير: «لا بد أن سريري مبتلّ. الأغطية وكل

شيء، ولا أريد أن أكون وحيدة. لا تتركيني هنا. هل يمكنك أن تنامي بجانبي؟ لا أريد مزيداً من الكوابيس.»

فكرت ميو في الأمر، ثم أومأت برأسها. «لكن ارتدي بيجاما أولاً. لا أعتقد أني أحب وجود شخص آخر عارياً مستلقياً بجانبي- خاصة في مثل هذا السرير.»

نهضت سوماير ببطء ورفعت الأغطية. وقفت عارية وشدت بيجامة ميو بقوة. مالت إلى الأمام وارتدت القطعة السفلية ثم العلوية. استغرق إقفال الأزرار وقتاً. لم تكن أصابعها تعمل بكفاءة. لم تساعدها ميو، بل اكتفت بالجلوس ومراقبتها. أقفلت سوماير أزرار البيجاما بتروٍّ كأنها تؤدّي طقساً دينياً، ما أدهش ميو. أضفى ضوء القمر صلابة غريبة على حلمتي نهديها.

ربما تكون عذراء، فكرت ميو فجأة.

بعد ارتداء البيجاما الحريرية، استلقت سوماير على السرير ثانية منتحيةً أحد طرفيه. دلفت ميو إلى السرير حيث كانت رائحة العرق لا تزال باقية.

بادرت سوماير: «هل يمكنني احتضانك قليلاً؟»

«احتضاني؟»

«نعم.»

وميو تسأل نفسها كيف تجيب، مدت سوماير يدها

وامسكت بيد ميو. كانت راحتها الدافئة والناعمة تنضح بالعرق. مدت سومايرِ كلتا يديها خلف ميو، ضغطت صدرها على بطن ميو وخدها بين نهديها. بقيا على تلك الشاكلة مدة طويلة. بدا أن سوماير ترتجف ببطء. لابد أنها تبكي، خطر ببال ميو، لكن ليس بوسعها التعبير عن كل ذلك. مدت ميو يديها حول كتف سوماير وشدتها نحوها. فكرت أنها لا تزال طفلة مثل تلك القطة المتشبثة بغصن صنوبر.

رفعت سوماير جسمها إلى أعلى قليلاً. لامَس طرف أنفها رقبة ميو وضُغط صدراهما معاً. بلعت ميو ريقها وجالت يد سوماير على رقبة ميو.

قالت سوماير بصوت خفيض: «أميل إليك بالفعل.»

قالت ميو: «وأنا كذلك.» لم تجد شيئاً آخر تقوله، وهذه هي الحقيقة.

راحت أصابع سوماير تفتح أزرار بيجامة ميو. حاولت ميو أن تصدّها، لكنها لم تفلح.

قالت: «قليلاً فقط. قليلاً فقط من فضلك.»

استلقت ميو دون مقاومة. دارت أصابع سوماير بلطف على محيط نهدي ميو وترجرج أنفها على رقبتها إلى الأمام والخلف. لمست حلمتي ميو وضربتهما بلطف ثم أمسكت بهما بين أصابعها بتردد في البدء ثم بجرأة أكثر.

توقفت ميو عن الكلام . رفعت نظرها نحوي باحثةً وقد توردت وجنتاها قليلاً .

«ثمة شيء ينبغي أن أفسره لك. مررت قبل مدة طويلة بتجربة غير عادية شاب لها شعري وابيضّ تماماً في ليلة واحدة، وصرت أصبغه منذ ذلك الحين. تعلم سوماير أني أصبغه وحيث إنه مشكلة كبيرة منذ أن قدمنا إلى هذه الجزيرة، تخليت عن صبغه. لا أحد يعرفني هنا لذا لا أهمية للأمر. حين علمت بقدومك صبغته ثانية، فلم أود أن أترك لديك انطباعاً أولياً غريباً.»

انساب الوقت بصمت تلقائي.

«لم أمر قط بتجربة علاقة مثلية، ولم أفكر قط بوجود هذه الميول لدي، لكن إذا كان هذا ما تريده سوماير حقاً، فكرت أن باستطاعتي أن أرغم نفسي على مجاراتها. على الأقل لم أجد ذلك مثيراً للاشمئزاز. وإذا كان لا بد من خوض التجربة مع سوماير، فليكن. لذا لم أقاوم عندما راحت تتحسس كل جسدي ودسّت لسانها في فمي. كان ذلك شعوراً غريباً، لكني حاولت التعود عليه. تركتها تفعل ما تريد. أحببت سوماير وشعرت أن ذلك يسعدها، فلم أهتم بما تفعل.

«لكن جسدي وعقلي كانا في حال من التناقض. جزء مني كان سعيداً بأن سوماير تلمسه بمحبة، لكن جسدي قاوم

دون اعتبار لسعادة ذهني الذي رفض الاستسلام لها. قلبي وفكري أثيرا، غير أن ما تبقى كان قاسياً كحجر جاف. كان ذلك محزناً، لكن لم يكن بوسعي فعل أي شيء آخر. بالطبع أنعش ذلك سوماير، إذ إن جسدها تورد ورُطِّب بنعومة، غير أني عجزت عن التفاعل مع ذلك.

«أخبرتها عن مشاعري وكيف أني لا أرفضها، ولكني عاجزة عن الخوض في أمور مماثلة. منذ أن حدث ذلك لي منذ 14 سنة، لم أستطع أن أهب نفسي لأي شخص في العالم. إنه شيء خارج عن طاقتي وقُرِّر في مكان آخر. أخبرتها إذا كان هناك ما يمكنني فعله سأقوم به، كما تعلمين بإصبعي أو فمي. لكن هذا لم يكن ما أرادته، وإن كنت أعلم ذلك سلفاً.»

«قبلتني على جبهتي وقالت إنها متأسفة». قالت: «أنا أميل إليك فقط، وكنت قلقة مدة طويلة، وكان عليَّ المحاولة». قلت: «أميل إليك أيضاً، لذا لا تقلقي. ما زلت أريدك أن تبقي معي.»

«بكت سوماير كما لو كانت سداً تفجر ودفنت رأسها في وسادتها مدة طويلة. دلكت ظهرها العاري وهي تبكي من أعلى كتفها إلى خصرها، متحسّسة كل عظامها. أردت أن أبكي معها، لكني عجزت عن ذلك.

أدركت حينها أننا رفيقتا سفر رائعتان، غير أننا في المحصلة الأخيرة لسنا سوى قطعتي معدن وحيدتين تدور كل

منا في فلكها الخاص المنفصل. تبدوان من بعيد كشهابين جميلين، لكنهما في الواقع ليسا أكثر من سجينتين، فكلٌّ منا سجينة وحدتها، ونسير دون هدف معين. حين يتقاطع مدارا قمرينا الاصطناعيين يمكننا آنذاك أن نكون معاً، غير أن هذا لن يدوم طويلاً، وفي اللحظة التالية قد نصبح في عزلة مطلقة، إلا أن نحترق ونغدو لا شيء».

قالت ميو: «بعد أن بكت بكاءً مريراً، نهضت سوماير وأخذت البيجاما التي كانت قد سقطت على الأرض وارتدتها. قالت إنها تريد أن تكون وحيدة وإنها عائدة إلى حجرتها. أخبرتها أن لا تفكر ملياً في الأمر، غداً يوم جديد وسترين أن الأمور ستعود كما كانت عليه من قبل. أجابت سوماير: «أظن ذلك». انحنت ووضعت خدها على خدي. كان خدها مبتلاً ودافئاً. أعتقد أنها همست بشيء في أذني، لكن بصوت خفيض فلم أتبين ما قالته. كنت على وشك الاستفسار عمّا قالت، غير أنها غادرت الحجرة.»

«مسحت سومايرر دموعها بمنشفة الحمام وغادرت الغرفة. أقفلت الباب وعدت تحت الأغطية طلباً للدفء وأغمضت عيني. بعد تجربة كهذه، حسبت أن النوم سيجافيني، ولكن سرعان ما غرقت في سباتٍ عميق.

حين استيقظت عند السابعة من صباح اليوم التالي لم تكن

سوماير موجودة في البيت. لعلها استيقظت باكراً - أو ربما لم تنم وذهبت إلى الشاطئ وحدها. قالت إنها تود أن تكون وحيدة بعض الوقت. من الغريب أنها لم تترك رسالة موجزة، لكن مع أخذ ما حدث ليلة الأمس بعين الاعتبار، حسبت أنها ما تزال منزعجة ومرتبكة.

غسلت الملابس، علقت ملاءات سريرها خارجاً كي تجف وجلست على الشرفة أقرأ وأنتظر عودتها. مر الصباح بأكمله لا أثر لسوماير. قلقت، لذا بحثت في حجرتها وإن كنت أعلم أنه لا ينبغي لي فعل ذلك. خشيت أن تكون قد غادرت الجزيرة، لكن حقائبها كانت مفتوحة وجواز سفرها ما زال في حقيبة يدها، المايّو وجواربها معلقة لتجف في ركن من حجرتها. وانتشرت على منضدتها قطع نقدية وملاحظات مكتوبة على ورق صغير ومجموعة مفاتيح، كان أحدها مفتاح الباب الخارجي للكوخ.

شعرت أن الأمر غريبٌ. أعني أننا كلما كنا نذهب إلى الشاطئ كنا دوماً نرتدي طقماً رياضياً وقميصاً رياضياً فوق مايو السباحة، أما إذا سرنا في الجبال، فكنا نحمل جراباً فيه مناشف ومياه معدنية. لم تأخذ شيئاً من ذلك - حقيبتها، حذائها، ومايو السباحة. لم يختف سوى صندل رخيص اشترته من دكان في الجزيرة وبيجاما خفيفة أعرتها إياها. حتى لو أرادت السير في الحي ما كانت لتبقى طويلاً في الخارج بهذه الملابس، أليس كذلك؟

جلتُ بعد الظهر في نواحي المنطقة بحثاً عنها. جبتُ المنطقة القريبة مرّتين، ذهبت إلى الشاطئ، ثم سرت جيئة وذهاباً في شوارع المدينة، وأخيراً عدت إلى البيت. لكن سوماير لم تعد. غابت الشمس وحل الليل، واشتدّت الريح وكنت أسمع صوت الأمواج طوال الليل. أي صوت يوقظني. تركت البوابة الخارجية مفتوحة. حل الفجر ولا أثر لسوماير، سريرها على حاله كما تركته. لذا ذهبت إلى مركز الشرطة المحلي قرب الميناء.

شرحت كل شيء لأحد رجال الشرطة الذي كان يتكلم الإنجليزية. أخبرته أن الفتاة التي كانت مسافرة معي اختفت، ولم تعد منذ ليلتين. لم يأخذ الأمر على مَحْمَل الجد. قال إن صديقتي ستعود. هذا يحدث طوال الوقت. الكل يسير على حل شعره هنا. هذا صيف وهم شباب، ماذا تتوقعين؟ عدت في اليوم التالي، هذه المرة أبدوا اهتماماً أكثر قليلاً. لم يعن ذلك أنهم سيقومون بفعل شيء. اتصلت بالسفارة اليابانية في أثينا وشرحت لهم الوضع. من حسن الحظ أن الموظف هناك كان لطيفاً. قال شيئاً باصطلاحات غامضة باليونانية لرئيس الشرطة، أخيراً بدأ البوليس في التحري والركض.

«افتقروا ببساطة لأي شيء لحل اللغز. استجوبوا الناس في الميناء وحول الكوخ، لكن أحداً لم ير سوماير. لم يتذكر قبطان العبّارة والرجل الذي يبيع التذاكر رؤية أي فتاة يابانية شابة تصعد إلى القارب في اليومين الأخيرين. لا بد أن

سوماير ما زالت موجودة في الجزيرة. لم يكن معها أي نقود لتشتري تذكرة على أي حال. في هذه الجزيرة الصغيرة لا يمكن لفتاة يابانية تتجول ببيجاما إلاّ أن تلفت نظر الناس. استجوب البوليس زوجين ألمانيين كانا يسبحان طوال الوقت على الشاطئ ذلك الصباح. لم يريا أي فتاة يابانية على الشاطئ ولا عند الطريق. وعدني البوليس أنهم سيبذلون كلّ المستطاع، وأظن أنهم فعلوا، ولكن مرّ الوقت ولم يهتدِ أحدٌ إلى خيطٍ يساعد في حلّ هذا اللغز.»

أخذت ميو نفساً عميقاً وغطت نصف وجهها بيديها.

«كل ما كان بوسعي أن أفعله هو الاتصال بك في طوكيو والطلب منك القدوم. كنت قد استنفدت كل فكرة.»

تخيلت سوماير وحيدة تتجول في التلال الوعرة ببيجاما حريرية خفيفة وصندل.

سألت: «ما لون البيجاما؟»

قالت ميو ونظرة شك على وجهها «لون ماذا؟»

«البيجاما التي كانت سوماير ترتديها عندما اختفت.»

«ما لونها؟ لست متأكدة. اشتريتها من ميلانو ولم أكن قد لبستها بعد. لون فاتح، أخضر باهت ربما؟ كانت خفيفة من دون جيوب.»

«أود أن أتصل بالسفارة في أثينا مرة أخرى والطلب منهم إرسال شخص إلى هنا. سأصر على ذلك. ثم تقوم السفارة بالاتصال بوالدَيْ سوماير. سيكون الخبر قاسياً عليهم، لكن لا يمكن حجبه عنهما طويلاً.»

أومأت ميو برأسها قليلاً.

قلت: «يمكن لسوماير أن تكون أحياناً مسرفةً في جرأتها، كما تعلمين. وقد تأتي بأفعال بالغة الحماقة. لكن لن تغادر مدة أربع أيام دون كلمة. ليست غير مسؤولة إلى هذا الحد. لن تختفي إلا إذا كان هناك سبب وجيه لذلك. أي سبب، لا أدري، لكنه جدي. ربما سقطت في بئر في البراري وتنتظر من ينقذها. ربما خطفها شخص ما. ربما تكون قد قتلت ودفنت في مكان ما. فتاة شابة تتجول في الليل ببيجاما- أي شيء يمكن أن يحدث. في كل الأحوال، علينا وضع خطة، لكن لندع ذلك للغد الذي سيكون يوماً طويلاً.»

سألت ميو: «هل تعتقد... أن سوماير ربما... قتلت نفسها؟»

«لا يمكننا حذف هذا الاحتمال، لكن كانت ستترك رسالة. لن تترك كل شيء ملقىً هكذا لكي تقومي أنت بجمعه. كانت تميل إليك، وأعلم أنها تأخذ مشاعرك بعين الاعتبار.»

مضمومة اليدين، نظرت ميو إليَّ برهة: «هل تعتقد ذاك حقاً؟»

أومأت برأسي. «طبعاً، هكذا هي.»

«شكراً. هذا ما أردت سماعه.»

قادتني ميو إلى حجرة سوماير. كانت خالية من الديكور، ذكّرتني الحجرة الشبيهة بالصندوق بمكعب كبير. كان هناك سرير خشبي، مكتب للكتابة، خزانة ملابس ومكان لتغيير الملابس، وقرب المكتب حقيبة حمراء عادية الحجم. كانت النافذة مفتوحة على التلال القريبة، وفوق المكتب جهاز مكنتوش جديد.

«رتبت حاجياتها حتى يمكنك النوم هنا.»

أما وقد أصبحت وحيداً فقد رغبت في النوم فجأة. كان الوقت قد قارب منتصف الليل. خلعت ملابسي ودلفت تحت الأغطية، لكنني لم أستطع النوم. فكرت أن سوماير كانت تنام في هذا السرير قبل فترة قصيرة. تردد صدى إثارة الرحلة الطويلة في جسدي. وراودتني فكرة أنني أقوم برحلة بلا نهاية.

استرجعت وأنا مستلقٍ على الفراش كل ما قالته ميو، ووضعت لائحة في ذهني للنقاط المهمة. غير أن عقلي لم يعمل جيداً، كنت عاجزاً عن التفكير المنطقي. قلت لنترك

الأمر إلى الغد. من حيث لا أدري، تخيلت لسان سوماير في فم ميو. لننس ذلك، أمرت عقلي. لنترك ذلك إلى الغد أيضاً، إلا أن احتمالات أن يكون الغد أفضل من اليوم، لسوء الحظ، ضئيلة. الأفكار المتشائمة لن تُجدي نفعاً. قررت أن أغمض عيني، وسرعان ما غرقت في سبات عميق.

10

عندما استيقظت كانت ميو تجلس إلى مائدة الإفطار على الشرفة، والساعة تشير إلى الثامنة والنصف، وشمس جديدة تغمر العالم بنورها. جلست وميو على الشرفة نتناول الطعام المكوَّن من الخبز المحمص والبيض والقهوة، بينما كنا نتأمّل البحر وطيرين أبيضين ينحدران باتجاه الساحل. كان صوت مذيع يقرأ الأخبار باليونانية بسرعة يتناهى عبر مذياع قريب.

سرى في رأسي خَدَرٌ غريب بسبب فارق الزمن فلم أستطع التفريق بين ما هو حقيقي وما بدا أنه حقيقي. ها أنذا في جزيرة يونانية صغيرة أتناول وجبة مع امرأة جميلة، أكبر مني، قابلتها قبل يوم واحد فقط. أحبت هذه المرأة سوماير، لكنها لم تقدر على الشعور بأي رغبة جنسية نحوها، وأحبت سوماير هذه المرأة واشتهتها، وأنا أحببت سوماير وشعرت برغبة جنسية نحوها، وسوماير مالت إليّ، لكنها لم تحبني ولم تشتهني. شعرت بميل جنسي نحو امرأة ستبقى دوماً

مجهولة، لكنني لم أحبها. كان كل شيء معقداً مثل شيء خارج من مسرحية عبثية. كل شيء يصل إلى طريق مسدود دون أن يترك أي خيار مفتوح، وسومايرر خرجت من المسرح.

ملأت ميو كوبي بالقهوة. شكرتها.

سألتني: «أنت تميل إلى سومايرر، أليس كذلك؟ أعني كامرأة.»

أومأت برأسي قليلاً وأنا أضع الزبدة على قطعة خبزي المحمص. كانت الزبدة باردة وقاسية فاستغرق وضعها على الخبز بعض الوقت. رفعت بصري وقلت: «طبعاً، هذا ليس شيئاً يمكنك اختياره، بل يحدث تلقائياً.»

داومنا على تناول إفطارنا بصمت. انتهت الأخبار وبدأ المذياع في بث موسيقى يونانية. اشتدّ هبوب الريح فاهتزت نبتات البوغنفيلية. إذا أمعنت النظر أمكنك أن ترى البياض في رؤوسها.

قالت ميو وهي تقشر الفاكهة: «فكرت ملياً وأعتقد أن عليَّ الذهاب إلى أثينا في الحال. ربما لن أحصل على شيء عبر الهاتف، لذا يفضل أن أذهب الآن إلى السفارة والحديث معهم وجهاً لوجه. ربما سيرغب أحد من السفارة العودة معي أو انتظار وصول والديّ سومايرر إلى أثينا والمجيء معهما إلى هنا. على أي حال، أتمنى أن تبقى هنا أطول مدة ممكنة،

ربما تتصل الشرطة وهناك دوماً احتمال عودة سومايز. هل يمكنك فعل ذلك من أجلي؟»

«طبعاً» أجبت.

«سأذهب إلى مركز الشرطة ثانية لأستفسر عن مجريات التحقيق، ثم أذهب بقارب إلى رودس. تستغرق الرحلة إلى أثينا وقتاً طويلاً، لذا يرجح أن أنزل في فندق مدة يومين.»

أومأت برأسي.

انتهت ميو من تقشير البرتقالة ومسحتها جيداً بمنديل.

«هل سبق لك أن قابلت والديّ سومايز؟»

قلت إنني لم أقابلهما قط.

تنهدت ميو كما تُعوِل الريح عند حافة العالم.

«أتساءل كيف سأشرح لهما الأمر.»

كان بمقدوري فهم ارتباكها. كيف يمكن تفسير ما لا يقبل التفسير.

سرت وميو إلى الميناء. كانت تحمل حقيبة ملابس صغيرة وتنتعل حذاءً جلدياً عالي الكعب إضافة إلى حقيبة كتف من صنع ميلاسشون. توقفنا بمركز الشرطة وأخبرناهم بأني أحد أقارب ميو وكنت مسافراً بالجوار. لم يكن لديهم أي شيء بعد، قالوا ببشاشة: «لكن الأمور تسير على ما يرام. لا داعي للقلق. انظرا هذه جزيرة مسالمة. لدينا بعض الجرائم طبعاً، شجار عشاق، سكارى خلاف سياسي. نحن نتعامل

مع الناس طبعاً والأمر سيان أينما ذهبت. لكن هذه مشاجرات داخلية. في السنوات الخمس عشرة الماضية لم يحدث أن وقع أجنبي ضحية جريمة في هذه الجزيرة.»

قد يكون ذلك صحيحاً، لكن حين يأتي الأمر لاختفاء سوماير، لم يكن هناك ما يقال.

قال البوليس: «هناك كهف كلسي ضخم في الشاطئ الشمالي للجزيرة. إذا كانت تتجول هناك، ربما لم تستطع العثور على طريقها، حيث إن الكهف في الداخل يشبه المتاهة، لكن المكان بعيد جداً جداً، ولا يمكن لفتاة مثلها الذهاب إلى هناك.»

سألت: «هل يمكن أن تكون قد غرقت؟»

هز رجال الشرطة رؤوسهم وقالوا «لا يوجد هنا تيار مائي قوي وكان الجو في الأسبوع الماضي معتدلاً والبحر هادئاً، كما ويذهب العديد من الصيادين إلى البحر كل يوم، ولو كانت الفتاة غرقت لعثر أحدهم على جثتها بالصدفة.»

سألت: «ماذا عن الآبار؟ ألا يمكن أن تكون قد وقعت في بئر عميقة في مكان ما حين كانت تتمشى؟»

هز رئيس الشرطة رأسه وقال: «لا توجد آبار في الجزيرة، عندنا كثيرٌ من الينابيع الطبيعية لذا لا حاجة إلى حفر الآبار. علاوة على ذلك، الصخور هنا صلبة والحفر فيها شاق.»

بعد مغادرة مركز الشرطة أخبرت ميو برغبتي في السير على الشاطئ الذي كانت وسومايز تذهبان إليه كثيراً في الصباح إن أمكن. اشتريت خارطة بسيطة للجزيرة من كشك ودلتني على الطريق. حذرتني قائلة إن المسافة إلى هناك تستغرق 45 دقيقة. لذا عليَّ انتعال حذاء متين. ذهبتْ إلى الميناء وبمزيج من الفرنسية والإنجليزية أجرت مفاوضات مع ربّان قارب سريع صغير كي يوصلها إلى رودس.

«أتمنى أن نصل إلى نهاية سعيدة.» قالت ميو أثناء مغادرتها، لكنَّ عينيها كانتا تقولان شيئاً آخر. كانت مثلي تعلم أن الأمور لن تسير بتلك البساطة. حين دار محرك القارب شدت قبعتها بيدها اليسرى ولوحت لي مودعة باليد اليمنى. حين غاب قاربها عن الأنظار شعرت بأن داخلي فقد قطعتين منه. تجولت في الميناء بعض الوقت واشتريت نظارة شمسية سوداء من دكان تحف تذكارية، ثم صعدت الدرج العالي عائداً إلى الكوخ.

ارتفعت درجة الحرارة بشدة حين أصبحت الشمس في كبد السماء. ارتديت قميصاً قطنياً قصير الأكمام ووضعت نظارتي الشمسية ولبست حذاء الرياضة وسرت على الطريق الجبلي الشاهق متجهاً نحو الشاطئ. ندمت بسرعة لعدم جلبي قبعة. شعرت بالظمأ سريعاً أثناء صعودي التل. توقفت وشربت بعض الماء ومسحت وجهي وذراعي بواقي الشمس

الذي أعارتني إياه ميو. كان الدرب أبيض بفعل الغبار الذي كانت تذروه الرياح كلما هبت. كثيراً ما كنت أقابل قرويين مارين على حميرهم. كانوا يلقون التحية بصوت مرتفع «كالي ميرا!» وكنت أردّ عليهم بالمثل. حسبت أن هذا ما ينبغي عمله. كان سفح الجبل مكسواً بشجر قصير ملتف والماعز وخراف الجبل تشق طريقها فوق الصخور المنحدرة والغضب بادٍ على وجوهها بينما الأجراس حول رقابها تبعث رنيناً خفيفاً. كان الرعاة إما من الأطفال أو كبار السن ويحدقون أثناء مرورهم بطرف عيونهم ويرفعون أيديهم نصف رفعة كنوع من التحية. رفعت يدي بالطريقة نفسها محيياً. لا يمكن أن تكون سوماير قد مرت من هذا الدرب وحدها. لم يكن هناك مكان للاختفاء دون أن يراها أحد.

كان الشاطئ مهجوراً. خلعت قميصي وسروالي الرياضي وسبحت عارياً. المياه صافية فشعرت بالروعة. وبالإمكان رؤية الحجارة في قعر البحر. ثمة يخت عند مدخل الميناء، شراعه مطوي وساريته الطويلة تتأرجح إلى الأمام والخلف كبندول ساعة عملاقة. لم يكن هناك أحد على سطحه. كانت المياه تجرف كلما ارتدت إلى الخلف عدداً لا يحصى من الحصباء التي تقعقع بكسل. عدت بعد السباحة إلى الشاطئ واستلقيت هناك عارياً على منشفتي أحدق في السماء الصافية الزرقاء. طيور البحر تحلق فوق المرفأ بحثاً عن الأسماك،

والسماء خالية من الغيوم تماماً. غفوت قرابة نصف ساعة، لم يأت خلالها أحد إلى الشاطئ. غمرني سكون غريب لوقت طويل. الشاطئ في منتهى الهدوء فلا يأتي إليه أحدٌ وقد كان جميلاً وإن جعلني أتخيل طريقة ما للموت. ارتديت ملابسي وسلكتُ الممر الجبلي عائداً إلى الكوخ. أصبح الحر أشد مما كان. حاولت، وأنا أنقل قدماً إثر أخرى بشكل ميكانيكي، تخيل ما كانت سوماير وميو تتحدثان عنه أثناء سيرهما في هذا الدرب. لعل سوماير كانت تفكر في الرغبة الجنسية التي تستبد بها، كرغبتي عندما أكون معها تماماً. لم تكن هناك صعوبة في فهم ما شعرت به. سوماير تتخيل ميو عارية بجانبها ولا تريد شيئاً أكثر من ضمها بقوة. ثمة ترقّب ممزوج بكثير من مشاعر الإثارة والاستسلام والتردد والارتباك والخوف. تكون متفائلاً لحظة ثم يلحق بك الدمار ليقينك أن التفاؤل سيتبدّد، وفي النهاية هذا ما يحدث.

سرت إلى قمة الجبل، استرحت قليلاً وشربت بعض الماء، ثم شرعت في هبوط التل. حين ظهر سقف الكوخ للعيان، تذكرت ما قالته ميو عن كتابة سوماير لشيء حميم في غرفتها عندما عادتا من الشاطئ. ماذا يمكن أن تكون قد كتبت؟ لم تقل ميو شيئاً ولم أضغط عليها لتخبرني. ربما هناك، أقول ربما، رأس خيط لمعرفة مكان سوماير مما كتبته. لمت نفسي لعدم تفكيري في ذلك مسبقاً.

ذهبت إلى حجرة سوماير عندما عدت إلى الكوخ وشغلت الجهاز الذي تستخدمه في الكتابة. لم يظهر ما يبشِّر بالخير. كانت هناك قائمة بمصروفات الرحلة في أوروبا وعناوين وبرنامج. كل الأمور المتعلقة بعمل ميو ولا ملفات شخصية. فتحت قائمة الملفات الأخيرة- لا شيء. ربما لم تود أن يقرأ أحد ما كتبت فمسحته كله، ما يعني أنها حفظت ملفاتها الشخصية على قرص في مكان ما، ومن غير المرجح أنها أخذته معها عندما اختفت، إذ إن بيجامتها كانت بلا جيوب.

بحثت في أدراج المكتب. كان هناك قرصان، لكنهما مجرد نسخ من الملفات الموجودة في الجهاز أو ملفات أخرى تتعلق بالعمل. لا شيء يوحي بالأمل. جلست وراء المكتب وفكرت، لو كُنْتُ سوماير فأين أضع القرص؟ كانت الغرفة صغيرة ولا توجد فيها أماكن كثيرة لإخفاء شيء ما. كانت سوماير دقيقة في قرارها من يمكنه قراءة ما كتبت.

حقيبتها الحمراء هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقفل في الحجرة.

بدت الحقيبة الجديدة فارغة وخفيفة جداً. هززتها فلم يصدر عنها أي صوت. كان القفل ذو الأرقام الأربعة مقفلاً. حاولت فتحها باستخدام أرقام كنت أعرف أن المرجح أن تستعملها سومايرـ تاريخ ميلادها وعنوانها ورقم هاتفها وصندوق البريد، لكن أياً منها لم يفلح في فتحها. لم أدهش

لأن الأرقام التي يسهل التكهن بها بسرعة لا تستخدم كثيراً. لذا ينبغي أن يكون رقماً تستطيع أن تتذكره، ولا يقوم على أمر شخصي. فكرت في ذلك طويلاً ثم لمعت في رأسي فكرة. حاولت وضع أرقام منطقة كينيتاشي - رقم منطقتي بعبارة أخرى 0-4-2-5 .

وفتح القفل.

كانت هناك حقيبة من القماش الأسود صغيرة ملصقة بالجانب الداخلي لجيب الحقيبة. فتحت الجيب فوجدت دفتر مذكرات أخضر اللون وقرصاً مدمجاً في داخله. فتحت دفتر المذكرات أولاً، كان مكتوباً بخط يدها المعتاد. لم يفدني بشيء، مجرد معلومات حول الأماكن التي ذهبتا إليها ومن قابلتا، أسماء وفنادق وأسعار البترول وقوائم العشاء وأنواع النبيذ ومذاقه. مجرد لوائح وقوائم وصفحات عديدة بيضاء. من الجلي أن حفظ دفتر مذكرات لم يكن من خصال سوماير القوية.

لم يكن القرص معنوناً، بل مجرد تاريخ بخط يد سوماير المميز، أغسطس 19-- . وضعت القرص في الجهاز وفتحته، ظهر ملفان ولم يحمل أي منهما عنواناً. فقط الملفّ 1 والملف 2.

قبل فتحهما نظرت ببطء في الحجرة. كان معطف

سوماير معلقاً في خزانة الملابس. رأيت منظار غوصها وقاموساً إيطالياً وجواز سفرها. كان في داخل مقعدها قلم حبر جاف وقلم رصاص. من النافذة التي تعلو المكتب بدا المنحدر اللطيف كثير الصخور. كانت قطة سوداء تسير فوق حائط البيت المحاذي. خيم صمت بعد الظهيرة على الحجرة الصغيرة العارية من الأثاث. أُغمضت عيني وكان باستطاعتي سماع أصوات الموج على الشاطئ الذي كان مهجوراً ذاك الصباح. فتحت عيني ثانية وأصغيت بإمعان للعالم الحقيقي فلم أستطع سماع أي شيء.

وضعت المؤشر على الملف 1 وضغطت مرتين.

11

الملفّ 1

هل سبق أن رأيت من أُطلق عليه الرصاص ولم ينزف دماً؟

قادني القدر إلى نتيجة - نتيجة لها معنى خاص، (وهل هناك أي نوع آخر؟ سؤال مثير للاهتمام، لكن سأتركه لوقت آخر) - ها أنا في جزيرة في اليونان. جزيرة صغيرة لم أسمع قط باسمها حتى وقت قريب. الساعة الآن ... بعد الرابعة صباحاً بقليل. ما زال الظلام مخيّماً في الخارج طبعاً. الماعز البريئة هجعت كلها بسلام. خط شجر الزيتون في الخارج يرشف من قوت العتمة ويمد القمر الراقد فوق السقف يديه إلى البحر كقسيس كئيب. مهما كان المكان الذي أجد نفسي فيه، فإن هذا هو الوقت الذي أفضله وأحبه في اليوم. وقت ملكي وحدي. سيبزغ الفجر قريباً وأنا أجلس هنا أكتب. مثل بوذا الذي ولد من جنب أمه (الجنب الأيسر أم الأيمن لم أعد أذكر) ستتحرك الشمس الجديدة وتختلس نظرة من فوق حافة التلال. ولسوف تستيقظ ميو بهدوء. في السادسة

نحضّر الإفطار معاً وبعدها نذهب عبر التلال إلى شاطئنا الجميل، وقبل أن يبدأ هذا الروتين، أريد أن أشمر عن ساعدي وأنجز بعض الأعمال.

باستثناء بعض الرسائل لم أكتب منذ وقت طويل شيئاً يخصني، ولست متأكدة أن بمقدوري التعبير عن نفسي بالطريقة التي أرغب. لا أعني أني كنت متأكدة من ذلك يوماً، ومع ذلك أشعر دوماً بدافع للكتابة. لماذا؟ الأمر في غاية البساطة حقاً، إذ كي أفكر في شيء ينبغي أن أكتبه أولاً. كان الأمر كذلك منذ نعومة أظافري. حين لم أفهم شيئاً كنت أجمع الكلمات المبعثرة وأصيغ منها جملاً. إذا لم ينجح ذلك، أبعثرها ثانية وأعيد ترتيبها بشكل مختلف. بإعادة فعل ذلك عدة مرات، كان بإمكاني التفكير في الأشياء مثل معظم البشر. لم تكن الكتابة بالنسبة لي يوماً صعبة. كان الأطفال الآخرون يجمعون الحجارة أو البلوط الجميل وأنا أكتب. أخط جملة إثر أخرى بشكل طبيعي كالتنفس، وأفكر.

لا ريب أنكم تظنون أن هذه عملية تستهلك الوقت قبل الوصول إلى نتيجة وقد رأيتم كيف كان عليَّ كلما أفكر في شيء أن أمر بهذه الخطوات، أو ربما لن تفكروا في ذلك. لكن في الواقع كان الأمر يستغرق وقتاً، وعليه فإنني حين التحقت بالمدرسة الابتدائية حسب الناس أنني متخلفة ولا أقدر على التعامل مع الأطفال الآخرين.

تضاءل هذا الشعور بالغربة بشكل ملحوظ عندما أنهيت المدرسة الابتدائية ووجدت آنذاك سبيلاً لمجاراة العالم المحيط بي. ومع ذلك، لبثت هذه الغربة في داخلي - مثل أفعى ساكنة كامنةً في العشب. وهي التي دفعتني إلى ترك الجامعة واعتزال أي صلة بالمجتمع الرسمي.

يبقى أن قناعتي لم تزل هي هي: بالكتابة أجدد إثبات وجودي يومياً.

أليس كذلك؟

طبعاً، بلى!

كتبت كثيراً حتى الآن، كل يوم تقريباً، ذلك يشبه وقوفي في مرعى شاسع حيث كنت أقطع كل العشب وحدي، فيعود نابتاً بالسرعة التي أقطعه فيها إلى حد ما. اليوم أقطع هنا وغداً هناك... في الوقت الذي أقوم فيه بجولة كاملة في المرعى يكون العشب في البقعة الأولى قد عاد كما كان في البداية.

لكن منذ أن قابلت ميو صرت بالكاد أكتب شيئاً. لماذا؟ لأن أطروحة ك. القائلة إن «الرواية=التوصيل» قد تكون مقنعة. وقد تكون صحيحة على نحوٍ ما، لكنها لا تفسر كل شيء، ينبغي أن أبسط تفكيري هنا.

تبسيط، تبسيط.

ما حدث بعد أن قابلت ميو هو أني توقفت عن التفكير. (طبعاً وفق تعريفي الشخصي للتفكير). كنت وميو دوماً معاً، كما لو كنّا قالبين متطابقين، ومعها كنت أهيم في مكان ما ليس بوسعي سبر غوره- فقرّرت أن أسير مع التيار.

بعبارة أخرى، كان عليَّ التخلص من عديد من العادات البالية للتقرب منها، حتى عملية التفكير أصبحت عبئاً. أعتقد أن هذا يفسر الأمر، فمهما بلغ ارتفاع العشب، فلن أقلق. استلقيت على ظهري محدقة في السماء ومراقبة السحب المنتفخة الهائمة، تاركةً مصيري للسحب ومستسلمةً لرائحة العشب اللاذعة وصرير الريح، وبعد قليل لم يعد بإمكاني إعارة أي اهتمام للفرق بين ما عرفته وما لم أعرفه.

كلا، هذا ليس صحيحاً. منذ البداية لم أكن لأبالي. ينبغي أن أكون أكثر دقة في سردي هنا.

الدقة، الدقة.

أرى الآن أن أولى قواعد الكتابة عندي لطالما كانت أن أكتب عن الأشياء كما لو كنت لا أعرفها- وهذا يشمل الأشياء التي أعرفها أو حسبت أني أعرفها. إذا قلت منذ البداية، آه، أعرف ذلك ولا حاجة عندها إلى قضاء وقتي الثمين في الكتابة عنها، وما كان لكتابتي أن تظهر أبداً. على سبيل المثال، إذا فكرت في شخص ما، فأنا أعرفه ولا حاجة عندها إلى التفكير فيه، وهنا أجازف بإمكانية خيانتي (وهذا ينطبق عليك

ايضاً). في الجهة الأخرى من كل شيء، نعتقد أننا نفهم تماماً ويختفي جزء مماثل من غير المعروف.

ما الفهم إلا خلاصة عدم فهمنا.

بيني وبينكم، هذه طريقتي في فهم العالم باختصار.

يشبه ما نعرفه وما لا نعرفه في العالم الذي نعيش فيه التوأم الملتصقين معاً، لا يفترقان ويوجدان في حالة من الارتباك.

ارتباك، ارتباك.

من يستطيع التفريق حقاً بين البحر وما ينعكس فيه؟ أو يعرف الفرق بين المطر المنهمر والوحدة؟

تخليت دون ضجيج بعدها عن التفكير بقلق في الفرق بين المعرفة أو عدمها. كانت تلك نقطة البداية، مكان سيّئ للانطلاق ربما، لكن الناس بحاجة إلى نقطة انطلاق بديلة مؤقتة، أليس كذلك؟ يفسر كل ذلك كيف بدأت أرى الثنائيات مثل الموضوع والأسلوب، الفاعل والمفعول به، المسبب والنتيجة، يديَّ المعقوفتين وبقية جسدي، ليس كشيئين بالأبيض والأسود، بل كشيء واحد يتعذر تمييزه عن الآخر. كل شيء سكب على أرض المطبخ – الملح والفلفل والطحين والنشاء. كلها خلطت معاً.

يداي المعقوفتان وبقية جسدي... لاحظت وأنا جالسة أمام الكومبيوتر بأني عائدة إلى عادتي القديمة في طقطقة مفاصلي. عادت لي هذه العادة السيئة بعد توقفي عن التدخين. أولاً أطقطق مفاصل أصابع يدي اليمنى - طق طق - ثم مفاصل اليد اليسرى. لا أحاول أن أتباهى، لكن يمكنني طقطقة مفاصلي بصوت مرتفع حتى لتحسب أن رقبة شخص ما قد كسرت. كنت بطلة طقطقة المفاصل في المدرسة الابتدائية، ما أحرج الأولاد. أخبرني (ك) حين كنت في الجامعة بعبارات مؤكدة أن هذه ليست مهارة يُفْتَخَرُ بها. عندما تصل الفتاة إلى سن معيّنة، يجب ألا تطقطق أصابعها في كل مكان، خاصة أمام الآخرين وإلا ستصبح مثل لوتي لينيا في فيلم «من روسيا مع الحب». لماذا لم يخبرني أحد بذلك من قبل؟ حاولت التخلص من هذه العادة، أعني أني أحب لوتي لينيا حقاً، لكن ليس بالقدر الذي يجعلني أتمنى أن أصبح هي. أدركت ما إن توقفت عن التدخين أني كلما جلست للكتابة، أطقطق مفاصلي لاشعورياً مرة أخرى. طقطقة سريعة قوية.

اسمي بوند. جيمس بوند.

دعني أعود إلى ما كنت أتكلم عنه. الوقت محدود ولا مكان للانعطافات. لننس لوتي لينيا. آسفة، مجازات - ينبغي التخلص منها. كما أسلفت، في داخلنا يتقاسم ما نعرفه وما لا نعرفه المكان نفسه. يقيم الناس حائطاً بينهم كي يرتاحوا، ما

يجعل الحياة أسهل، لكني تخلصت من كل ذلك. توجب عليَّ القيام بذلك. أكره الجدران. أنا من هذه النوعية.

سأستخدم تشبيه «التوأمان الملتصقان» مرة أخرى، لا يعني ذلك أنهما ينسجمان معاً دوماً، ولا يحاولان دوماً أن يفهم واحدهما الآخر. في الواقع كثيراً ما يكون العكس صحيحاً. لا تحاول اليد اليمنى معرفة ما تفعله اليد اليسرى، والعكس صحيح. الارتباك يهيمن وينتهي بنا الأمر إلى الضياع، ونصدم مباشرة بشيء ما. ضربة بصوت مكتوم.

ما أحاول أن أقوله هو أن الناس يتوصلون إلى إستراتيجية ذكية إذا أرادوا أن يتعايش ما يعرفونه وما لا يعرفونه معاً بسلام. وهذه الإستراتيجية هي التفكير، كما توقعت. ينبغي أن نجد ملاذاً آمناً، وإلا سنسير دون شك إلى تصادم مرعب.

سؤال.

ما الذي على الناس فعله إذا أرادوا تجنب التصادم (ضربة) وفي الوقت نفسه الاستمرار في الاستلقاء في الحقل مستمتعين بالسحب الهائمة ويصغون إلى نمو الأعشاب – أي لا يفكرون، بعبارة أخرى؟ يبدو الأمر صعباً؟ بتاتاً. منطقياً،

الأمر سهل، إنه سهل. الجواب هو الأحلام. الاستمرار في الأحلام. دخول عالم الأحلام وعدم الخروج منه أبداً. العيش في الأحلام ما تبقى من العمر.

في الأحلام ليس عليك التمييز بين الأشياء بتاتاً. لا وجود للحدود، لذا في الأحلام يندر التصادم. حتى لو وجد، فإنه لا يسبب الألم. الواقع مختلف. الواقع يلسع.

الواقع. الواقع.

منذ أمد وفي عرض سام باكنباه الأول لفيلمه «الزمرة الضارية» رفعت صحفية يدها في المؤتمر الصحفي وسألته السؤال التالي: «لماذا عرضت كثيراً من الدماء طوال الفيلم؟» حار أحد الممثلين، إرنست بورغانين، فرد على السؤال بسؤال: «سيدتي، هل سبق لك أن رأيت شخصاً أُطلق عليه الرصاص دون أن ينزف دماً؟» أُنتج الفيلم في ذروة الحرب الفيتنامية.

أحب هذه الإجابة. ينبغي أن تكون إحدى قواعد الواقع. قبول ما يصعب إدراكه وتركه على حاله. والنزيف. إطلاق الرصاص والنزيف.

هل رأيت من أُطلق عليه الرصاص ولم ينزف؟

ما يفسر موقفي ككاتبة؟ هكذا حملتُ حلماً في رحم المملكة التي لا اسم لها والتي تقع في امتداد تفكيري، جنين أعمى يُدعى فهم، يعوم في سائل النخط(*) الكوني الغامر الذي هو عدم الفهم. هذا يفسر لماذا رواياتي طويلة بلا معقولية، حتى الآن على الأقل، ولا تصل إلى نتيجة لائقة. المهارات التقنية والأخلاقية ذات المغزى والمطلوبة للحفاظ على خط إمداد بهذا المستوى تتجاوز قدراتي.

لا أكتب رواية بطبيعة الحال هنا. لا أدري ماذا أسميها. أفكر بصوت مرتفع، لذا لا حاجة لتنسيق الأشياء بأناقة. ليست لدي التزامات أخلاقية. أنا ... أفكر فقط. لم أمعن في التفكير الحقيقي منذ وقت طويل، وربما لن يكون في المستقبل القريب. لكن الآن، في هذه اللحظة بالذات، أفكر وهذا ما سأفعله حتى الصباح. التفكير.

أما وقد قلت ذلك، فليس بإمكاني التخلص من شكوكي السوداء القديمة المألوفة. ألا أصرف كل وقتي وطاقتي في سعي عديم الفائدة؟ حاملةً دلو ماء سائرةً إلى الموضع الذي يكاد أن يغمره السيل؟ ألا ينبغي أن أتخلى عن جهودي غير المجدية وأنساب مع التيار؟

(*) سائل يحيط بالجنين في الرحم - المترجم.

تصادم؟ ما هذا؟

دعني أضع ذلك بشكل آخر.

حسناً – أي طريقة أخرى كنت سأستخدم؟

تذكرت، هذه هي.

إذا كنت سأهيم فقط، ربما عليَّ التماس الدفء تحت أغطية دافئة، أفكر في ميو وأداعب نفسي. هذا ما قصدت.

أحب استدارة مؤخرة ميو، التناقض الفاتن بين شعر عانتها الأسود كالفحم وشعرها الأبيض الثلجي، المؤخرة جميلة التكوين في سروال تحتي أسود صغير. إذا تكلمنا عن إثارتها الجنسية، داخل سروالها التحتي الأسود، شعر عانتها على شكل حرف T وكله أسود.

ينبغي عدم التفكير في ذلك أكثر. اقفلي دائرة التخيلات الجنسية عديمة الفائدة (كْلِيكْ)(*) وركّزي على الكتابة. لا يمكنني ترك لحظات ما قبل بزوغ الفجر الثمينة تمر. سأترك شخصاً آخر، في وضع آخر، يقرر ما هو مؤثر وما هو غير مؤثر. الآن لدي قليل مما يستحق الاهتمام بما قد يقولون.

أليس كذلك؟

طبعاً، بلى؟

(*) Click: حركة الضغط لإقفال ملفّ في الكومبيوتر.

لذا إلى الأمام ونحو الأعلى.

يقال إن وضع الأحلام (الحقيقية أو شيء آخر) في الرواية التي تكتبها تجربة خطرة. قليل من الكتّاب - وأنا أتكلم عن أعظمهم موهبة - يقدرون على استخلاص التركيبة غير العقلانية الموجودة في الأحلام. يبدو الكلام معقولاً، مع ذلك، أود أن أروي حلماً رأيته مؤخراً. أريد أن أدوّن هذا الحلم بكل بساطة كحقيقة تتعلق بي وبحياتي. لا أكترث سواء كانت أدبية أم لا، فأنا مجرد بواب مستودع.

عاودني الحلم نفسه عدة مرات مع اختلاف التفاصيل والمواقع، لكن الحلم تتبع الشكل نفسه. ألم الاستيقاظ منه هو نفسه دوماً. موضوع يتكرر مراراً وتكراراً مثل قطار يصفر قرب منعطف ليلة بعد ليلة.

* * *

حلم سوماير

(كتبت هذا بصيغة الغائب لتبدو أكثر أصالة)

سوماير تصعد درجاً لولبياً للقاء أمها التي ماتت منذ زمن طويل. أمها تنتظر في أعلى الدرج وتود أن تخبر

سومايرشيئاً، معلومات حساسة تحتاج إليها سومايرجداً كي تعيش. لم تقابل سومايرشخصاً ميتاً من قبل، لذا يعتريها الخوف. كما أنها تعرف أي نوع من الناس أمها. ربما أمها تكرهها لسبب لا يمكن لسومايرتصوره- لكن يجب أن تلاقيها وهذه هي فرصتها الوحيدة.

يبدو الدرج بلا نهاية، تصعد وتصعد ولا تبلغ القمة. تنطلق سوماير صاعدة الدرج، لاهثة، وليس لديها الوقت الكافي. أمها لن تكون دوماً في هذه البناية. عيناها تطفحان بالعرق. أخيراً تبلغ نهاية الدرج.

في قمة الدرج فسحة واسعة وأمامها حائط حجري سميك في أقصى المكان. على مستوى النظر كوة مدورة مثل مجرى التهوية. حفرة صغيرة يبلغ قطرها قرابة 20 إنشاً، وأم سوماير متكورة داخل هذه الحفرة كأنها حُشِرت حشراً. تدرك سوماير أن الوقت قصير. أمها تنظر للخارج نحوها في تلك المساحة الضيقة، تنظر إلى سوماير كما لو كانت تناشدها. تعرف سوماير من نظرة واحدة أن هذه أمها، إنها من منحتني الحياة والجسد. لكن لسبب ما هذه المرأة الموجودة هنا ليست الأم الموجودة صورتها في ألبوم العائلة. أمي الحقيقية جميلة وشابة، لذا فكرت سوماير أن المرأة الموجودة في الألبوم ليست أمها حقاً. والدي خدعني.

صاحت سوماير بشجاعة «أمي!» شعرت بأن جداراً قد

ذاب داخلها. ما إن لفظت هذه الكلمة حتى راحت أمها تغوص عميقاً في تلك الحفرة، كأنّ مكنسة كهربائية عملاقة تمتصّها من الطرف الآخر. فم أمها مفتوح وتصيح منادية بشيء على سومايز، لكن الصوت الأجوف للهواء المنطلق من الكوة يبتلع كلماتها. بعد لحظة تغيب أمها في عتمة الحفرة وتختفي.

نظرت سومايز إلى الخلف، كان الدرج قد اختفى وهي محاطة بجدران حجرية، وثمة باب خشبي حيث كان الدرج. أدارت سومايز مقبض الباب وفتحته فرأت السماء وهي فوق قمة برج شاهق يشعرها بالدوخة إن نظرت إلى أسفل. كان عديد من الأجسام الصغيرة كالطائرات تطن في السماء، طائرات صغيرة بسيطة يمكن لأي كان صنعها من خشب الزان وقطع خشب منشور صغيرة خفيفة. في نهاية كل طائرة محرك صغير بحجم قبضة اليد ومروحة. صاحت سومايز بأحد الطيارين العابرين ليأتي وينقذها، غير أن أحداً منهم لم يعرها اهتماماً.

تعتقد سومايز أن مرد ذلك لأنها ترتدي ثياباً فلا يراها أحد في لباس مستشفى مجهول أبيض اللون. قررت خلعه فأصبحت عارية، إذ لم تكن ترتدي شيئاً تحته. تلقي بردائها على الأرض بجانب الباب، ومثل روح غير مغلولة يعصف تيار هواء بها فتبحر بعيداً عن الأنظار. الهواء نفسه يلمس

جسدها ويحف بالشعر بين ساقيها. بلمحة تلاحظ أن الطائرات الصغيرة قد تحولت إلى يعسوب. السماء مليئة باليعاسيب المتعددة الألوان والمحدقة عيونها الضخمة المنتفخة بما حولها. ازداد أزيز أجنحتها مرتفعاً بثبات كمذياع رفع صوته. أخيراً أصبح طنيناً لا يحتمل. جلست سومايِر على الأرض مقرفصة مغمضة عينيها سادّة أذنيها.

واستيقظت.

بإمكان سومايِر تذكر كل تفاصيل الحلم وبمقدورها رسم صوره. ما لم تستطع تذكره كان وجه أمها حيث إنه كان غائراً في تلك الحفرة المظلمة، وضاعت الكلمات الحاسمة التي قالتها أمها في ذاك التيه الفارغ إلى الأبد. في الفراش عضت سومايِر وسادتها بعنف، ثم بكت وبكت.

المزيّن ما عاد يحفر المزيد من الحفر

بعد هذا الحلم، اتخذت قراراً مهماً– أخيراً سيبدأ رأس معولي الجاد في هدم المنحدر الصلب. قررت أن أخبر ميو بما أريد فلا يمكنني البقاء هكذا معلقةً إلى الأبد. لا يمكنني ألاّ أخبر أحداً بحقيقة أني أحب ميو مثل مزيّن ضعيف يحفر

حفرة في حديقته الخلفية. إذا تصرفت هكذا سأفنى ببطء. ستسلبني كل ساعات الفجر والغسق رويداً رويداً من نفسي، ثم سرعان ما تذوي حياتي تماماً - وسوف ينتهي بي الأمر أن أغدوَ لا شيء.

الأمور واضحة كالبلّور.

بلّور، بلّور.

أود أن أمارس الحب مع ميو وأن تحضنني، لقد قدّمت كثيراً مما هو مهم بالنسبة لي ولم يبق هناك ما يمكنني التخلي عنه. لم يفت الوقت بعد. ينبغي أن أكون مع ميو فأدخل بها وتدخل بي أيضاً مثل زوجين من الأفاعي الشرهة المتلألئة.

ماذا لو رفضتني ميو، ماذا سيحدث؟

سأعبر هذا الجسر عندما يحين الوقت.

«هل سبق لك أن رأيت أحداً يطلق عليه الرصاص ولا ينزف دماً؟»

يجب أن تراق الدماء. سأشحذ سكيني لذبح كلب من الحنجرة في مكان ما.

أليس كذلك؟

طبعاً، بلى.

ما كتبته هنا رسالة موجهة إليَّ، ألقيت بها في الهواء مثل البومرنغ(*) التي ترتد لمطلقها. تطير في الظلام لتترك روح كُنغرٍ مسكين ميتة باردة، وأخيراً تعود إليّ. غير أن البومرنغ التي عادت إليَّ ليست تلك التي رميتها.

بومرنغ. بومرنغ.

(*) قطعة خشب معقوفة يقذفها سكان أستراليا الأصليون على هدف معيّن وترتدّ إليهم في حالة عدم إصابتها الهدف ـ المترجم.

12

الملفّ 2

الساعة الآن الثانية والنصف بعد الظهر. في الداخل نور ساطع وحرارة كالجحيم. المنحدرات والسماء والبحر كلها متلألئة. أنظر إليها ملياً فتأخذ الحدود في الزوال، وكل شيء يذوب في مستنقع هلامي. يغرق الوعي في ظلال ناعسة لتجنب الضوء، حتى الطيور تخلت عن الطيران. مع ذلك داخل البيت الجو منعش. ميو في حجرة الاستقبال تستمع إلى برامز وترتدي فستاناً صيفياً مخططاً أزرق اللون. شعرها الأبيض مربوط بكل بساطة إلى الخلف. أنا أجلس خلف مكتبي أكتب هذه الكلمات.

سألتني ميو: «هل تزعجك هذه الموسيقى؟»

أجبت أن برامز لا يزعجني أبداً.

كنت أبحث في ذاكرتي محاولةً استرجاع القصة التي

روتها ميو لي قبل أيام في إحدى قرى بيرجوندي. لم يكن الأمر سهلاً. أخبرتني القصة على نحو متقطع فاختلط الترتيب الزمني تماماً. أحياناً لا يمكنني معرفة ما حدث أولاً وما حدث لاحقاً. ما السبب وما المسبب، مع ذلك لا ألوم ميو. نصل سكين التآمر القاسي المدفون في ذاكرتها جرحها، وكما راح الفجر فوق كروم العنب يذوي، كذلك كانت قوة الحياة تنضب من خدودها وهي تروي حكايتها.

أخبرتني ميو الحكاية بعد إصراري على سماعها. كان عليَّ أن أتوسَّلها مرّات كي تتكلم، وكنت بين الفينة والفينة أشجعها وأمدحها وأدللها وأغويها كي تستمر. كنا نشرب نبيذاً أحمر ونتكلم حتى ساعة السحر. متشابكي الأيدي كنا نتابع ذكرياتها، نربطها معاً ونحلل النتائج، مع ذلك كانت هناك محطات في الذكريات لم تستطع ميو الخروج منها، فما إن تطأها قدمها حتى تصاب بالارتباك، فتحتسي مزيداً من النبيذ. ثمة مناطق خطرة في الذكريات، وكلما صادفناها نتخلى عن البحث ونصعد إلى أرض أعلى بحيوية.

أقنعت ميو بأن تروي القصة لي بعد أن عرفت أنها تصبغ شعرها. ميو حذرة وقليل ممن حولها يعرفون أنها تصبغ شعرها، لكني لاحظت ذلك. السفر الطويل معاً وقضاء كل اليوم معاً يفضي إلى ملاحظة أمور كهذه، أو ربما لم تحاول ميو إخفاء ذلك. كان بإمكانها أن تكون أكثر حذراً

وسرية لو أرادت. لعلها أدركت أن لا مناص من معرفتي لذلك، أو ربما أرادت أن أعرف. (أم م م– حدس تام من طرفي).

سألتها مباشرة. أنا كذلك – لا أحاول الدوران حول الأشياء. كم من شعرك أبيض؟ وكم مضى على صباغتك له؟ أربع عشرة سنة. أجابت. قبل أربع عشرة سنة صار أبيض تماماً، كل خصلة فيه. هل كنت مريضة؟ قالت، كلا، لم يكن الأمر كذلك. حدث شيء وصار كل شعري أبيض بين ليلة وضحاها.

أود أن أسمع الحكاية. قلت. أريد أن أعرف كل شيء عنك. فأنا كما تعلمين لا أخفي عنك شيئاً. غير أن ميو هزت رأسها بهدوء إذ إنها لم تخبر أحداً بالحكاية من قبل. حتى زوجها لم يعرف ما حدث. كان ذلك سرها الشخصي طوال أربع عشرة سنة.

أخيراً، تكلمنا طوال الليل. أقنعتها أن لكل قصة وقتاً تروى فيه، وإلا ستكونين أسيرة السر الذي في داخلك.

نظرت ميو إليَّ كما لو كانت تحدق في البعيد. طفا شيء إلى السطح في عينيها، ثم رسب في القعر ببطء مرة أخرى. قالت: «ليس لدي ما أصفيه. هم من لديهم حسابات ينبغي تصفيتها– ليس أنا.»

لم أفهم ما كانت ترمي إليه.

قالت ميو: «إذا أخبرتك القصة فسنتقاسمها معاً دوماً ولا أدري إذا كان ذلك منصفاً. إذا فتح الغطاء، ستتورطين. هل هذا ما تريدينه؟ هل تريدين حقاً معرفة شيء ضحيت كثيراً في محاولة إخفائه؟»

نعم. قلت، ومهما كانت النتائج. رشفت من النبيذ وأغلقت عينيها. تبع ذلك صمت بدا فيه الزمن منحنياً متعرِّجاً.

أخيراً بدأت في رواية حكايتها قطعة قطعة، جزءاً في كل مرة. بعض عناصر القصة تحلت بحياة خاصة بها، بينما أخرى لم تتشكل بعد. كانت هناك ثغرات ومختصرات لا مناص منها، لبعضها أهمية خاصة. مهمتي الآن كراوية أن أجمع - بحذر وعناية - كل هذه العناصر في قصة واحدة.

قصة ميو والدولاب الدوار الكبير

قضت ميو صيفاً في بلدة صغيرة في سويسرا قرب الحدود الفرنسية. كانت في الخامسة والعشرين وتعيش في باريس حيث تدرس البيانو. جاءت إلى هذه البلدة الصغيرة بناء على رغبة والدها لتقوم ببعض المفاوضات التجارية. كان العمل في حد ذاته بسيطاً، عشاء عمل مرة مع الطرف الآخر

وتوقيع عقد. أحبت ميو البلدة ما إن وقعت عيناها عليها. كانت مكاناً مريحاً محبباً وفيها بحيرة وقلعة من العصور الوسطى بجانبها. حسبت أن العيش هناك سيكون ممتعاً، فغامرت. علاوة على ذلك كان هناك مهرجان موسيقى يُقام في قرية قريبة فإذا استأجرت سيارة يمكنها الذهاب إلى هناك كل يوم.

كانت محظوظة حين وجدت شقة مفروشة استأجرتها لفترة قصيرة في بناية صغيرة أنيقة على قمة تل في طرف البلدة. كان المنظر خلاباً، وفي الجوار مكان يمكنها التدرب فيه على البيانو. لم تكن الأجرة رخيصة، لكن إذا شحت مواردها، كان بإمكانها الاعتماد على والدها.

وهكذا بدأت ميو حياتها المؤقتة والهادئة في البلدة. تحضر الحفلات الموسيقية في المهرجان وتمشّت في المناطق المجاورة، كما كوّنت بعض المعارف بسرعة. وجدت مطعماً صغيراً لطيفاً راحت تتردد إليه. من نافذة شقتها كان بإمكانها مشاهدة حديقة ألعاب تسلية خارج البلدة فيها دولاب دوار عملاق معلق عليه صناديق ملونة بأبواب كلها تدور ببطء في السماء، وما إن ترتفع إلى أقصى مداها حتى تبدأ في الهبوط.

بطبيعة الحال، هذه العجلات لا تتحرك من مكانها. ترتفع وتهبط في رحلة ذهاب وإياب يجدها معظم الناس، لسبب مجهول، مدعاة للسرور. في المساء يتلألأ الدولاب الدوار بأضواء لا تحصى. حتى بعد أن يقفل في الليل وتغلق الحديقة

أبوابها، يبقى الدولاب براقاً طوال الليل، كما لو كان ينافس النجوم في السماء. كانت ميو تجلس قرب النافذة تستمع للموسيقى من المذياع وتحدق في حركة الدولاب الصاعد والهابط أو عندما يقف في هيكله الشبيه بالجبل.

تعرفت على رجل يعيش في البلدة، وسيم في الخمسينات من عمره بملامح لاتينية. كان طويلاً، بأنف في منتهى الجمال وشعر أسود ناعم. قدم نفسه لها في المقهى. من أين أنت؟ سألها. أنا من اليابان. أجابت. ثم بدآ في تبادل أطراف الحديث. كان اسمه فرناندو من برشلونة انتقل إلى هنا قبل خمس سنوات ليعمل في تصميم الأثاث. كان مرتاحاً في حديثه وكثيراً ما يطلق النكات. تبادلا الحديث فترة ثم قالا وداعاً. تقابلا بعد يومين في المقهى نفسه. عرفت أنه أعزب مطلق. قال لها إنه ترك إسبانيا ليبدأ حياة جديدة. لم يترك الرجل انطباعاً جيداً لدى ميو. لاحظت أنه يحاول الاقتراب منها وشمّت رائحة شهوة جنسية أخافتها. قررت تجنب القدوم إلى المقهى.

مع ذلك حدث أن صادفت فرناندو مراراً عديدة في البلدة لدرجة شعرت أنه يتبعها. ربما كان مجرد وهم سخيف، فالبلدة صغيرة، لذا لم يكن غريباً أن تصادفه. كان يبتسم كلما رآها ابتسامة عريضة ويقول مرحباً بطريقة لطيفة. كانت ميو تشعر بالضيق وعدم الارتياح. بدأت ترى في فيرناندو تهديداً

لحياتها المسالمة. ومثل صنج غير متناغم في بداية قطعة موسيقية، بدأ ظل مشؤوم يغطي صيفها الجميل.

ظهر أن فرناندو مجرد قطعة مصغرة من ظل أعظم. بعد مرور عشرة أيام بدأت تشعر بعائق يتعلق بحياتها في البلدة. صارت البلدة الجميلة الأنيقة الآن ضيقة الأفق وتعتقد أنها على صواب دائماً. كان الناس في غاية اللطف والمودة، لكنها شعرت بتحيز خفي ضدها كآسيوية. فجأة صار للنبيذ في المطاعم مذاق سيّئ. كما وجدت حشرات في الخضار التي تشتريها. أصبحت موسيقى المهرجان فاترة واهنة، ولم تستطع التركيز على الموسيقى. حتى شقتها التي كانت تظن أنها مريحة أمست مكاناً فقير الديكور وجديراً بالازدراء. فقد كل شيء بريقه الأول وانتشر الظل المشؤوم ولم تستطع تجنّب ذلك.

قد يرن الهاتف في الليل فترفعه قائلة «هالو» لكنه ينقطع. حدث ذلك أكثر من مرة. ظننت أن هذا فرناندو. لكن لم يكن لديها دليل. كيف يمكنه معرفة رقمها؟ كان الهاتف من الطراز القديم فلم تستطع فصله من الحائط. أصبحت تعاني من قلة النوم فراحت تستخدم الأقراص المنومة وفقدت شهيتها.

قررت أنه ينبغي لها مغادرة المكان، لكن لسبب لم

تستطع فهمه لم تستطع مغادرة البلدة. كتبت قائمة بالأسباب التي تدعوها للبقاء. لقد دفعت أجرة شهر كامل واشترت تذاكر للمهرجان الموسيقي. كما أنها أجّرت شقتها في باريس طوال الصيف. لذا لم يكن بوسعها مغادرة المكان بهذه البساطة. علاوة على ذلك، لم يحدث أي شيء فعلي. لم يلحق بها أي أذى بأي طريقة ممكنة، أليس كذلك؟ لم يعاملها أحد بطريقة سيئة. أقنعت نفسها أنها ربما تتحسس من الأمر أكثر من اللازم.

في أمسية بعد أسبوعين من إقامتها هناك، تناولت العشاء في مطعم قريب. قررت بعد العشاء الاستمتاع بهواء الليل فقامت بمشوار طويل. تجولت من شارع إلى آخر وهي شاردة الفكر. وجدت نفسها أمام باب حديقة الألعاب التي فيها الدولاب الدوار. كانت الموسيقى المرحة، وصوت المنادين في الاحتفالات وصرخات الأطفال السعيدة تملأ المكان. كان معظم الزوار من العائلات وقليل من الأزواج من البلدة. تذكرت ميو والدها حين كان يأخذها إلى حديقة الألعاب عندما كانت صغيرة. تذكرت رائحة معطف والدها الصوفي الخشن وهما يركبان محفة على شكل كوب شاي تلتف حول نفسها. كانت تتعلق بأكمام والدها طوال الوقت، وتشم تلك الرائحة التي ترمز للأمان وعالم البالغين البعيد. أحست بشوق لوالدها.

اشترت بطاقة دخول لمجرد التسلية ودخلت الحديقة.

كان المكان يعج بمحلات ومنصات مختلفة، وأماكن للتصويب بالبنادق وعروض أفاعٍ وأكشاك التنبؤ بالطالع. رمت عرافة ضخمة الجثة كرة كريستال أمام ميو «يا آنسة، تعالي من فضلك. الأمر في غاية الأهمية. مصيرك على وشك التغير». ابتسمت ميو وواصلت السير.

اشترت آيس كريم وجلست على مقعد لتأكله وهي تطالع العابرين من أمامها. شعرت بالانفصال عن الحشد الصاخب حولها. شرع رجل بالحديث معها بالألمانية. كان في الثلاثين تقريباً، صغير الحجم أشقر الشعر وبشارب من ذلك النوع الذي يبدو حسن المنظر في بزة رسمية. هزت رأسها وابتسمت مشيرة إلى ساعتها: «أنتظر شخصاً ما» قالت بالفرنسية. بدا صوتها مرتفعاً وبعيداً عنها. لم ينبس الرجل بكلمة، بل عبس بارتباك ولوح بيده مودعاً ومضى في سبيله.

وقفت ميو وتجولت في المكان. كان هناك من يقذف بالونات بسهام الريشة، فينفجر أحدها، ودب يدوس الأرض بقدميه راقصاً، وأرغون يعزف «فالس الدانوب الأزرق». نظرت إلى أعلى، رأت الدولاب الدوار يدور في الفضاء. فجأة فكرت قد يكون من الممتع أن ترى شقتها من الدولاب عوض العكس. من حسن الحظ أن لديها منظاراً صغيراً في حقيبة كتفها، احتفظت به منذ أن ذهبت آخر مرة إلى المهرجان الموسيقي، حيث يستعان به لرؤية ما يدور على المسرح من

المقاعد الخلفية البعيدة. كان المنظار خفيفاً وقوياً بحيث يمكنها من رؤية ما في حجرتها.

ذهبت لتشتري بطاقة من الكشك الكائن أمام الدولاب. قال لها بائع التذاكر العجوز «سنقفل بعد قليل يا آنسة!» نظر إلى أسفل وهو يتمتم هذه الكلمات كما لو كان يتحدث إلى نفسه. هز رأسه وأردف «نكاد نقفل المكان لهذا اليوم. ستكون هذه آخر دورة. دورة واحدة ونقفل المكان!». ولحيته البيضاء القصيرة تغطي خديه، وسالفاه ملطخان بدخان التبغ، سعل فأصبح وجهه أحمر كما لو عصفت ريح الشمال به لسنوات.

أجابت ميو: «لا بأس. دورة واحدة تكفي». اشترت بطاقة وصعدت إلى المنصة. كانت الوحيدة التي تنتظر وكما رأت كانت الصناديق كلها فارغة. صناديق تتأرجح بكسل في الهواء أثناء دورانها كما لو كان العالم يتجه إلى نهايته.

دخلت الصندوق الأحمر وجلست على المقعد. جاء العجوز وأقفل الباب من الخارج، لا ريب أن ذلك من أجل السلامة. مثل حيوان قديم يعود إلى الحياة قعقع الدولاب وبدأ في الصعود. تقلصت الأكشاك المنسقة والألعاب في الأسفل، بينما ظهرت أضواء البلدة أمامها. كانت البحيرة على يسارها وبإمكانها رؤية أنوار قوارب النزهات القصيرة منعكسة بنعومة على صفحة الماء، وفي البعيد جانب الجبل مرصع بأضواء القرى. انقبض صدرها من جمال كل ما حولها.

ظهرت المنطقة التي تسكن فيها على قمة التل. ركزت ميو منظارها وبحثت عن شقتها، لكن لم يكن من السهل العثور عليها. استمر الدولاب في الصعود إلى أعلى وأعلى. كان عليها أن تسرع. قدمت عدسة المنظار إلى الأمام والخلف بسرعة محمومة، لكن كانت هناك بنايات عديدة متشابهة. وصل الدولاب أقصى مداه وشرع في الهبوط. أخيراً عثرت على بنايتها. هذه هي! غير أن فيها نوافذ أكثر مما تذكرت وعديداً من الناس تركوا نوافذ شقته مفتوحاً من أجل الحصول على نسمة صيفية. حركت المنظار من نافذة إلى أخرى حتى رصدت أخيراً الشقة الثانية من اليمين في الطابق الثالث، لكن الدولاب كان قد اقترب من الأرض وحجبت جدران البنايات المنظر. يا للخسارة، ثواني أخرى وكان بإمكانها رؤية ما بداخل شقتها.

وصل الدولاب إلى الأرض ببطء شديد. حاولت فتح باب الصندوق الذي تجلس فيه للخروج، لكنه لم ينفتح. طبعاً هو مقفل من الخارج. نظرت حولها بحثاً عن الرجل العجوز في كشك التذاكر، لم يكن هناك ونور الكشك مطفأ. كانت على وشك أن تنادي أي شخص، لكن لا يوجد من تصيح منادية عليه. بدأ الدولاب في الصعود مرة أخرى. يا للفوضى! فكرت. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ تنهدت. ربما ذهب الرجل العجوز إلى المرحاض ونسي التوقيت. عليها أن تدور مرة أخرى.

لا بأس، فكرت. نسيان الرجل العجوز سيمنحها دورة أخرى مجانية. هذه المرة ستجد بالتأكيد شقتها. أمسكت بالمنظار بقوة وأخرجت رأسها من النافذة، إذ إنها كانت قد حددت الموقع العام والمكان في المرة الماضية، والآن ستكون مهمة رؤية شقتها سهلة. كانت النافذة مفتوحة والنور مضاء حيث إنها تكره العودة إلى حجرة مظلمة، كما أنها كانت قد قررت العودة بعد العشاء مباشرة.

النظر إلى حجرتها من بعيد عبر المنظار أشعرها بالذنب، كما لو كانت تختلس النظر إلى نفسها، لكني لست هناك، أكدت لنفسها قائلة. بالطبع لا، يوجد هاتف على المنضدة. كم أود الاتصال بذلك الهاتف. لقد تركت رسالة على المنضدة أيضاً. أود أن أقرأها من هنا، فكرت ميو، لكن ليس من الممكن بطبيعة الحال رؤية الكثير من هنا.

أخيراً بلغ الدولاب ذروة ارتفاعه وبدأ في الهبوط، ولم يهبط إلا قليلاً حتى توقف فجأة. سقطت على جانب الصندوق واصطدمت كتفها بطرفه وكاد المنظار يسقط من يدها على الأرض. توقف صوت محرك الدولاب ولف صمت مريع كل شيء. لقد توقفت كل الموسيقى المرحة التي كانت تسمعها من قبل، وأُطفئت معظم أنوار الأكشاك في الأسفل. أصغت بانتباه فلم تسمع سوى صوت الريح الواهن ولا شيء آخر. سكون مطلق. لا صوت لجمهور ولا صرخات أطفال سعيدة.

في البدء لم تدرك ما حدث ثم لمعت لها فكرة أنها تُركت في المكان.

نظرت من النافذة نصف المفتوحة إلى الأسفل مرة أخرى. عرفت ما مدى ارتفاع صندوقها. فكرت ميو في الصراخ طلباً للنجدة، لكنها كانت تعرف أن ليس هناك أحد في الجوار. كانت في مكان مرتفع جداً وصوتها منخفض.

أين ذهب هذا الرجل؟ لا بد أنه كان ثملاً، لون وجهه وتنفسه وثقل صوته كلّه يؤكد ذلك. لقد نسي كل شيء عني وأقفل محرك الدولاب. لعله الآن في حانة يحتسي الجعة أو الجن ويزداد سكره وينسى ما فعله. عضت ميو شفتها وفكرت ربما لن أغادر هذا المكان قبل ظهيرة الغد أو ربما في المساء؟ متى تفتح الحديقة أبوابها للعمل؟ لم تكن لديها أدنى فكرة.

كانت ميو ترتدي قميصاً خفيفاً وتنورة قطنية قصيرة. وبالرغم من أن ذلك حدث في الصيف، إلا أن ليل سويسرا يكون بارداً. ازدادت سرعة الرياح. نظرت من النافذة إلى الأسفل ثانية. كان عمال الحديقة قد انتهوا من عملهم وعادوا إلى بيوتهم. لا بد أن هناك حارساً في مكان ما. أخذت نفساً عميقاً وصرخت طلباً للغوث بأعلى صوتها. أصغت ثم كررت الصراخ مراراً. لا إجابة.

أخذت ورقة من دفتر صغير من حقيبة كتفها وكتبت عليها بالفرنسية «أنا محجوزة داخل صندوق الدولاب الدوار في حديقة الألعاب. الرجاء مساعدتي!» ألقت بالورقة من النافذة فطارت في الريح المتجهة صوب البلدة، وعليه إذا كانت محظوظة فقد تصل إلى هناك، لكن إذا وجدها شخص بالفعل وقرأها فهل يمكنه تصديقها؟ في صفحة أخرى كتبت اسمها وعنوانها مع الرسالة. قد يجعل هذا تصديقها أسهل. عندها قد لا يحسب الناس أن الأمر مزحة، ويدركون أنها في ورطة حقيقية. ألقت بنصف أوراق دفترها في الهواء.

فجأة خطرت في بالها فكرة، أخذت كل ما في محفظتها باستثناء ورقة عشرة فرنكات وكتبت ملاحظة عليها «توجد امرأة مسجونة داخل الدولاب الدوار فوقك. الرجاء المساعدة!» وألقت بالمحفظة من النافذة. سقطت في خط مستقيم صوب الأرض. وضعت ورقة أخرى داخل حقيبتها وألقت بها أيضاً.

نظرت ميو إلى ساعة يدها، كانت تشير إلى العاشرة والنصف. بحثت في حقيبة كتفها لترى ما يمكن أن تجده، بعض أدوات الزينة ومرآة وجواز سفرها، ونظارتها ومفاتيح عربتها المستأجرة وشقتها ومدية عسكرية لتقشير الفواكه، وكيس بلاستيكي صغير فيه بعض قطع البسكويت الهش وصحيفة فرنسية. ولما كانت قد تناولت العشاء فلن تشعر بالجوع حتى الصباح، وبسبب الهواء العليل لن تشعر بالعطش ومن حسن الحظ أنها لم تحتج لاستخدام المرحاض بعد.

جلست على المقعد البلاستيكي ومالت برأسها إلى الخلف على الحائط. ندمت! لماذا أتت إلى حديقة الألعاب وركبت هذا الدولاب الدوار؟ كان بإمكانها العودة مباشرة إلى شقتها بعد خروجها من المطعم. لو فعلت ذلك لكانت الآن تأخذ حماماً ساخناً ثم تأوي إلى فراشها مع كتاب جيد كما تفعل دوماً. لماذا لم تفعل ذلك؟ ولماذا يوظفون عجوزاً سكيراً لا ترتجى منه فائدة؟

انبعث صرير من الدولاب بفعل الريح. حاولت إقفال النافذة كي لا يدلف الهواء منها، لكنه لم يتحرك قيد أنملة. استسلمت وجلست على الأرض. فكرت أنه كان عليها شراء ثياب صوف. كانت قد توقفت حين غادرت شقتها متسائلة إن كان عليها وضع شال على كتفها، إلا أن مساء الصيف كان منعشاً والمطعم على بعد ثلاث بنايات فقط، كما كان السير والذهاب إلى حديقة الألعاب آخر ما يمكن أن يخطر في بالها. كل شيء جرى في المسار الخاطئ.

لمساعدتها في الاسترخاء، خلعت ساعة معصمها وسوارها الفضي الرفيع والقرط الشبيه بصدفة بحرية ووضعتها كلها في حقيبتها. تكورت في ركن على الأرض وتمنت لو أنها تنام حتى الصباح. طبعاً لم تستطع ذلك. شعرت بالبرد والضيق وهزت هبة ريح الصندوق. أغمضت عينيها وراحت تعزف سوناتا سي ماينور لموزارت في ذهنها

وهي تحرك أصابعها على مفاتيح بيانو خيالية. حفظت هذه القطعة عن ظهر قلب دون سبب معين في طفولتها. في منتصف الحركة الثانية توقف ذهنها عن التفكير وداهمها النوم.

كم نامت! لم تدر. ليس طويلاً. استيقظت فجأة ولدقيقة لم تكن لديها فكرة عن مكانها. ببطء عادت لها الذكرى. صحيح فكرت، أنا رهينة داخل دولاب دوار في حديقة ألعاب. أخذت ساعتها من حقيبتها، كانت تشير إلى بعد منتصف الليل. وقفت ميو ببطء، فقد أصاب النوم في مثل هذه الوضعية مفاصلها بالألم. تثاءبت عدة مرات وتمطت وحكت معصمها. أخذت الصحيفة من حقيبتها لتشغل فكرها وقد علمت أنها لن تعود للنوم ثانية، ثم راحت تقرأ من حيث تركتها. كانت هناك قصة غامضة حدثت في مكتبة بيع كتب في البلدة. من حسن الحظ أن الأضواء في الدولاب تركت مضاءة طوال الليل. أدركت بعد قراءة بضع صفحات أنها فقدت القدرة على متابعة القصة، صحيح أن عينيها كانتا تتابعان السطور، لكن ذهنها كان على بعد أميال.

توقفت ميو عن القراءة وأقفلت الكتاب. نظرت إلى سماء الليل، كانت طبقة رقيقة من السحب تغطيها السماء فلم تر النجوم. كان القمر الفضي معتماً وعكست الأضواء صورتها بوضوح على زجاج نافذة الصندوق. حدقت في وجهها

طويلاً. متى سينتهي هذا؟ سألت نفسها وهي معلقة هناك. لاحقاً سيصبح هذا مجرد قصة مضحكة سترويها للناس. تصوروا أن يقفل عليكم في دولاب دوار في حديقة ألعاب في سويسرا!

لكنها لم تصبح قصة مضحكة.

هنا بدأت القصة الحقيقية.

أخذت منظارها بعد قليل ونظرت إلى نافذة شقتها. لم يتغير شيء. حسناً، ماذا تتوقع؟ سألت مبتسمة. نظرت إلى نوافذ البناية الأخرى. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ومعظم الناس نائمين والنوافذ مظلمة. قليل من الناس مع ذلك كانوا مستيقظين والنور ما زال مضاءً في شققهم، بينما أخذ سكان الطوابق السفلى احتياطات وأسدلوا ستائر شققهم. سكان الطوابق العليا لم يكترثوا وتركوا ستائرهم مفتوحة للاستمتاع بنسيم الليل. كانت الحياة في هذه الحجر هادئة ومفتوحة تماماً. (من يمكنه أن يتخيل أن هناك من ينظر إليهم بمنظار من دولاب دوار بعيد في منتصف الليل؟). لم تكن ميو مهتمة باختلاس النظر إلى حياة الآخرين الخاصة، مع ذلك وجدت أن النظر إلى حجرتها الفارغة أكثر إثارة.

حين قامت بدورة كاملة على النوافذ وعادت إلى شقتها شهقت. كان هناك رجل عارٍ في حجرة نومها. في البدء ظنت أنها أخطأت الشقة. حركت المنظار إلى أعلى وأسفل ومن الخلف إلى الأمام. لكن لم يكن هناك أي خطأ. هذه حجرتها

وأثاثها وزهورها في آنية الزهور ولوحاتها معلقة على الجدار. كان الرجل هو فرناندو، لا ريب في ذلك، جالساً على سريرها عارياً تماماً. كان صدره وبطنه مكسوّين بالشعر وعضوه الطويل مرتخياً كحيوان ناعس. ماذا يفعل في حجرتي؟ نضح جبينها بعرق لامع. كيف دخل الحجرة؟ لم تستطع ميو فهم ذلك. غضبت في البدء ثم أصابتها الحيرة. بعد ذلك ظهرت امرأة في النافذة. كانت ترتدي قميصاً أبيض قصير الأكمام وتنورة قطنية قصيرة. امرأة؟ قبضت ميو على المنظار بقوة وركزت عينيها على المشهد. مَنْ رأتها كانت هي نفسها.

شل ذهن ميو عن التفكير. أنا هنا أنظر إلى حجرتي بمنظار، وأنا في تلك الحجرة. ركزت ميو وأعادت التركيز. لكن مهما كانت المرات التي نظرت فيها، كانت تجد نفسها داخل الحجرة ترتدي الملابس نفسها التي تلبسها الآن. حضنها فرناندو وحملها إلى السرير. خلع ملابسها برفق في الحجرة وهو يقبلها. خلع قميصها وحمالة صدرها وتنورتها وقبّل أسفل رقبتها وهو يداعب نهديها بيديه. ثم نزع سروالها الداخلي بيده، السروال نفسه الذي ترتديه الآن. لم تقو ميو على التنفس. ماذا جرى؟ قبل أن تدرك ما يجري كان عضو فرناندو منتصباً وصلباً كقضيب. لم تر مثله قط في حياتها. أخذ يدها ووضعها على عضوه. تحسسها ولعقها من الرأس حتى أخمص القدمين. لم يكن في عجلة من أمره وبدورها لم تقاوم -هي - ميو التي في الشقة - تركته يفعل ما يريد،

مستمتعة كلياً بالشهوة المتصاعدة. تمد يدها بين الفينة والفينة متحسّسة عضو فرناندو وخصيتيه وتسمح له بلمسها في كل مكان. لم تستطع ميو أن تشيح بنظرها عن ذلك المنظر الغريب. شعرت بالغثيان وجفت حنجرتها فلم تقدر على بلع ريقها. شعرت بأنها على وشك التقيؤ. كل شيء يبالغ فيه بشكل غريب بشع ومزعج كلوحة مجازية من القرون الوسطى. هذا ما فكرت فيه ميو: يقصدان عرض هذا المشهد عليها، ويعلمان أنني أشاهدهما، ومع ذلك لم تستطع إلاّ أن تنظر.

ماذا حدث بعد ذلك؟

لم تعد ميو تذكر. توقفت ذاكرتها بشكل مفاجئ في تلك اللحظة.

قالت: «لم أعد أذكر» وغطت وجهها بيديها، ثم أضافت بهدوء: «كل ما أعرفه أن هذه تجربة مروعة. كنت هنا وأنا أخرى هناك. وهذا الرجل فرناندو - يفعل بي كل تلك الأشياء هناك».

«ماذا تعنين بكل تلك الأشياء؟»

«لا أذكر. كل تلك الأشياء وأنا محجوزة داخل الدولاب الدوار، فعل كل تلك الأشياء بي هناك. لا يعني ذلك أني

أخشى الجنس. مر وقت كنت أستمتع فيه بالجنس العابر كثيراً. لكن لم يكن ذلك ما رأيته هناك. كان كل شيء عديم المعنى ومبهماً ويهدف إلى شيء واحد-في الذهن- أن يلوّثني. استخدم فيرناندو كل حيلة عرفها ليلوّثني بأصابعه الثخينة وعضوه الضخم - لا يعني ذلك أن أنا التي هناك ظنت أن هذا يجعلني قذرة. في النهاية لم يعد هناك شيء ولا حتى فرناندو.

حدقت في ميو: «لم يعد ذلك فرناندو؟ إذا لم يكن فرناندو، فمن يكون إذن؟»

«لا أدري، وليس بإمكاني أن أذكر، لكن في النهاية لم يعد فرناندو، أو ربما لم يكن هو منذ البداية».

الشيء التالي الذي عرفته ميو أنها كانت مستلقية في سرير مستشفى وملابسها البيضاء تغطي جسدها العاري. كانت كل مفاصلها تؤلمها. شرح لها الطبيب ما حدث. في الصباح وجد أحد عمال حديقة الألعاب محفظتها التي ألقتها وفهم ما حدث. أنزل الدولاب واستدعى سيارة إسعاف. كانت ميو داخل القفص فاقدة الوعي ومنهارة. بدت كما لو أصيبت بصدمة وبؤبؤا عينيها لا يتحركان. كان وجهها وذراعاها مكسوّين بالكشوط وقميصها ملطخ بالدم. نقلوها إلى المستشفى للعلاج. لم يعرف أحد كيف حصلت لها الكدمات والجروح. من حسن الحظ أن هذه الجروح لم تترك أثراً.

أوقفت الشرطة الرجل العجوز الذي يدير الدولاب واستجوبته، لكنه لم يذكر أنه باعها بطاقة قبيل وقت الإقفال.

في اليوم التالي جاء رجال الشرطة المحليون لاستجوابها. وجدت صعوبة في الإجابة عن أسئلتهم. عندما قارنوا وجهها بالصورة الموجودة في جواز السفر، تجهمت وجوههم وعلاها تعبير غريب كما لو ابتلعوا شيئاً مروعاً. بتردد سألوها: «يا آنسة، نأسف لسؤالك، لكن هل عمرك حقاً 25 سنة؟»

أجابت: «نعم، كما هو وارد في جواز سفري» لماذا سألوا؟ بعد قليل حين ذهبت إلى الحمام لغسل وجهها فهمت. كانت كل شعرة في رأسها بيضاء. بيضاء تماماً كثلج حديث السقوط. حسبت في البدء أن من في المرآة شخص آخر. دارت على عقبها، لكنها الوحيدة التي كانت في الحمام. نظرت في المرآة ثانية، وصدمتها الحقيقة في تلك اللحظة. المرأة بيضاء الشعر التي تقابلها هي بالفعل هي. أغمي عليها وسقطت على الأرض.

تلاشت ميو.

«كنت لا أزال هنا، لكن أنا الأخرى، ربما نصفي، ذهب إلى الجانب الآخر آخذاً معه شعري الأسود ورغبتي الجنسية وعادتي الشهرية وربما حتى الرغبة في العيش، أما الجزء

الذي ترك فهو ما ترينه هنا. شعرت بأني قسمت، لسبب لا أستطيع تفسيره، إلى قسمين مدة طويلة في الدولاب الدوار في بلدة سويسرية صغيرة، ليس بمعنى أن شيئاً سلب مني، لأنه ما زال موجوداً هنا في الجانب الآخر. مجرد مرآة واحدة تفصلنا عن الجزء الثاني، لكن ليس بوسعي عبور حد إطار الزجاج. إطلاقاً».

قضمت ميو أظافر أصابعها.

«أظن أن كلمة إطلاقاً ربما كلمة قوية جداً. ربما يوماً ما في مكان ما سنتقابل ثانية ونتحد معاً. يبقى سؤال مهم دون إجابة. أين أنا، وفي أي جهة من المرآة، أين هي أنا الحقيقية؟ ليست لدي أي فكرة. هل أنا الحقيقية من ضمت فرناندو؟ أو التي رفضته؟ ليست لدي الثقة لحل هذه المعضلة.

بعد انتهاء العطلة الصيفية، لم تعد ميو إلى المدرسة. تركت دراستها في الخارج وعادت إلى اليابان، ولم تلمس مفاتيح البيانو ثانية. هجرتها القوة اللازمة لعزف الموسيقى ولم تعد إليها قط. بعد سنة مات والدها فأصبحت مديرة شركته.

«كان عدم تمكّني من عزف البيانو بعد ذلك ولا شك صدمة، لكني لم أطل التفكير في ذلك. كانت لدي فكرة أن ذلك سيحدث عاجلاً أم آجلاً...» ابتسمت ميو، «العالم يعجّ بعازفي

البيانو. عشرون عازفاً عالمياً هم أكثر مما ينبغي. اذهبي إلى أي مكان لبيع الأسطوانات وراجعي نسخ «فالشتين» و «كريسميريانا» أو شيء من هذا القبيل. ليست هناك قطع كلاسيكية عديدة معروفة للتسجيل، وهناك مساحة صغيرة في المحلات لبيعها. بالنسبة لصناعة التسجيل عشرون عازفاً من الطراز الأول أكثر من كاف، ولن يحفل أحد إن لم أكن واحدةً من هولاء العازفين.»

مدت ميو أصابعها العشر أمامها وضمتها ثانية، كما لو كانت تتأكد من ذاكرتها.

«لاحظت بعد سنة من الإقامة في فرنسا شيئاً غريباً. عازفو البيانو الذين تقنيتهم أسوأ من تقنيتي ولا يمارسون العزف نصف ما أفعل، كانوا يثيرون الجمهور أكثر مني. في النهاية هزموني. في البدء حسبت أن ذلك مجرد سوء فهم. غير أن تكراره عدة مرات أصابني بالغضب. فكرت أن لا إنصاف في ذلك. لكني فهمت ببطء لكن بشكل مؤكد أنني أفتقد شيئاً، شيئاً حاسماً بلا شك، وإن لم أعرف ما هو. ربما ذاك النوع من العاطفة التي يحتاج إليها الإنسان لجعل الموسيقى ملهمة للآخرين. لم أدرك ذلك حين كنت في اليابان. في اليابان لم أخسر أمام أحد، ومن المؤكد أني لم أملك الوقت لانتقاد أدائي. لكن في باريس وأنا محاطة بعديد من عازفي البيانو الموهوبين، فهمت ذلك أخيراً. كان الأمر جلياً – مثل شروق الشمس واضمحلال الضباب».

تنهدت ميو. نظرت إلى أعلى وابتسمت.

«طاب لي منذ أن كنت صغيرة سن قوانيني الخاصة والعيش وفقها. كنت فتاة مستقلة جادة جداً. ولدت في اليابان، وذهبت إلى مدارس يابانية وترعرعت وأنا ألعب مع أصدقاء يابانيين. عاطفياً كنت يابانية تماماً، لكن جنسيتي كانت أجنبية. عملياً، ستبقى اليابان دوماً بلداً أجنبياً، لكن ذلك لم يكن الشيء الوحيد الذي طالما شغل تفكيري: أنت أجنبية هنا. لذا قرّرت لكي أتمكن من البقاء أن أكون قوية».

داومت ميو على الحديث بصوت هادئ.

«كون المرء صارماً ليس شيئاً سيئاً في حد ذاته. وبالنظر إلى الوراء ثانية إلى ما حصل، يمكنني أن أرى اعتيادي على أن أكون قوية، ولم أحاول قط فهم مَن هم ضعفاء. كما اعتدت أن أكون ميسورة الحال ولم أحاول فهم من هم غير أثرياء. اعتدت أيضاً أن تكون صحتي جيدة ولم أحاول فهم عذاب من ليسوا كذلك. وكلما رأيت شخصاً يمر في مشكلة، شخصاً شلت حركته الظروف، أقول إن هذا خطؤه كلياً – لأنه لم يحاول بما فيه الكفاية ومن يشكو فهو مجرد إنسان كسول. لم تكن نظرتي للحياة مهزوزة وغير عملية، بل تفتقد الدفء الإنساني، ولم يشر أحد ممن حولي لذلك.

«فقدت عذريتي في السابعة عشرة من عمري ونمت مع

عدد من الرجال. كان لدي العديد من الأصدقاء الشباب، وإذا خطر ببالي لم أكن أمانع في متعة لليلة واحدة. كل ما كنت أفكر فيه كيف أصبح عازفة بيانو عالمية والابتعاد عن تلك الطريق لم يكن من خياراتي. كنت أفتقد شيئاً، لكن في الوقت الذي لاحظت فيه هذه الفجوة، كان الوقت قد فات.»

مدت يديها أمامها مرة أخرى وفكرت لحظة.

«لذلك فإن الذي حدث في سويسرا قبل 14 سنة يمكن أن يكون شيئاً اخترعته بنفسي. أحياناً أعتقد ذلك.»

«تزوجت ميو عندما كانت في التاسعة العشرين، وأصبحت باردة جنسياً بعد ما حدث في سويسرا. لم تقدر على ممارسة الجنس مع أحد. ضاع كل شيء في داخلها إلى الأبد. أخبرت رجلاً هذه الحقيقة – وهذه الحقيقة فقط – ثم تزوجته. قالت مفسرة إنها لهذا السبب لم تستطع الزواج من أي شخص آخر، لكن الرجل أحب ميو وأراد أن يعيش معها ما تبقى من عمره حتى لو كان حبّهما أفلاطونياً. لم تستطع ميو رفضه لأي سبب كان – كانت تعرفه منذ أيام الطفولة ولطالما أحبّته، ومهما كان نوع العلاقة التي تربطهما، كان الشخص الوحيد الذي يمكن أن تتخيل العيش معه. كما ومن الناحية العملية، فإن كونها متزوجة أمر مهم لإدارة أعمال العائلة».

أضافت ميو.

«كنا أنا وزوجي نلتقي في عطلات نهاية الأسبوع، وعموماً كنا منسجمين معاً. كصديقين جيدين، شريكَي حياة يمكنهما قضاء بعض الوقت اللطيف معاً. نتكلم في كل شيء ونتبادل ثقة تامة. أين وكيف كان يعيش حياته الجنسية، لم أكترث. لم نمارس الحب قط، ولم يلمس واحدنا الآخر. أشعر بالقلق لذلك، لكني لم أرغب في لمسه. لم أرغب في ذلك بكل بساطة».

أما وقد تعبت من الكلام، فقد غطت وجهها بيديها. في الخارج كانت السماء قد تحولت نهاراً.

«كنت حية في الماضي، وأنا حية الآن، أجلس هنا أتحدث معك. لكن ما ترينه هنا ليس أنا الحقيقية. إنه مجرد ظل لما كنت عليه. أنت تعيشين حقاً، أمّا أنا فلا أعيش. وحتى هذه الكلمات التي أقولها الآن تبدو فارغة كصدى.»

دون أن أنبس بكلمة طوّقت كتفي ميو بذراعي. لم أستطع العثور على الكلمات المناسبة، لذا ضممتها.

أحب ميو، لا داعي للقول ميو التي في هذا الجزء، غير أني أحب ميو التي في الطرف الثاني أيضاً. في اللحظة التي راودتني فيها هذه الفكرة كنت كمن يقدر على سماع نفسه – بصرير مسموع – انقسمت إلى جزءين، كما لو أن تمزُّق ميو قد هيمن عليَّ. كان الشعور طاغياً وكنت أعلم أن ليس هناك ما بوسعي فعله لمقاومة ذلك الشعور.

يبقى سؤال. إذا لم يكن هذا الجزء الذي فيه ميو هو العالم الحقيقي، إذا كان هذا الجزء هو الجزء الآخر بالفعل، فماذا عني، أنا التي تشاركها الفضاء المكاني والزمني نفسه؟

من أكون بحق السماء؟

13

قرأت الملفّين مرتين، في البدء مررت عليهما بسرعة، ثم بتمعّن مولياً أهمية للتفاصيل. كان الملفّان بالتأكيد من كتابة سوماير، إذ إنهما مليئان بمصطلحاتها الفريدة. كان ثمة شيء مختلف في النبرة وإن لم أستطع وضع يدي على ذلك. كانت أكثر صرامة وبعداً. مع ذلك، لا ريب في أنهما من تأليف سومايز.

بعد لحظة تردد وضعت القرص في جيب حقيبتي. إذا عادت سومايز سالمة فسأعيده إلى حيث كان. المشكلة أنني لا أعرف ماذا أفعل إن لم تعد. إذا بحث شخص في حاجياتها فسيجد ولا شك القرص، ولم أتحمل فكرة أن تطّلع عيون أخرى على ما قرأته.

بعد قراءة الملفَّيْن كان عليَّ الخروج من البيت. بدلت قميصي وغادرت الكوخ وهبطت الدرج إلى البلدة. صرفت ما يقارب 100 دولار من الشيكات السياحية واشتريت صحيفة إنجليزية من كشك الصحف وجلست تحت مظلة مقهى أقرأ

الصحيفة. أخذ نادل ناعس طلبي: كأس من عصير الليمون وجبن ذائب على خبز محمص. كتب ما طلبته بقلم رصاص قصير غليظ بتأن شديد والعرق يسيل على قميصه مكوناً بقعة كبيرة. بدا كأنه تبلغ رسالة لم أقدر على حل رموزها.

تصفحت نصف الصحيفة بشكل ميكانيكي، ثم رحتُ أتأمّل المرفأ. جاء كلب أسود من حيث لا أدري وراح يشم ساقيَّ ثم أصابه الملل فذهب. بعد ظهر ذلك اليوم الصيفي الذي يبعث على الكسل، قضى الناس كل في بقعته الخاصة، ولم يتحرك سوى النادل والكلب وإن ساورتني شكوك حول استمرارهما في فعل ذلك. الرجل العجوز الذي اشتريت منه الصحيفة نام بعمق تحت مظلة بحرية ماداً ساقيه على طولهما. تمثال البطل في الساحة منتصب بسلبية كعادته وظهره معرض لأشعة الشمس الحارة.

برّدت يديّ وجبهتي بكأس الليمون البارد، مستعرضاً في ذهني مراراً أي صلات ممكنة بين اختفاء سوماير وما كتبته.

لم تكتب سوماير منذ وقت طويل. حين قابَلَتْ ميو في استقبال حفل الزفاف، تبدّدت رغبتها في الكتابة عبر النافذة. مع ذلك استطاعت في هذه الجزيرة الصغيرة أن تكتب هذين الملفّين في مدة قصيرة، في بضعة أيام دون القيام بعمل بطولي لفعل ذلك. شيء ما دفع سوماير للجلوس والكتابة. أين كان ذلك الدافع؟

توضيحاً للفكرة بشكل أفضل، ما الخيط الذي يربط

هذين الملفّين معاً؟ رفعت نظري وحدقت في الطيور المستريحة على رصيف الميناء وفكرت فيها.

كان الجو حاراً جداً ما لا يسمح بالتفكير في مسائل معقدة. أعترف بأني كنت حائراً ومتعباً. مع ذلك، كما لو كنا نجمع فلول جيش مهزوم، من دون طبول أو أبواق - جمعت أفكاري المشتتة. ركزت تفكيري ورحت أجمع القطع معاً.

همست لنفسي بصوت مرتفع:

«المهم هنا ليس الأشياء الكبيرة التي فكر فيها الآخرون بل الأشياء الصغيرة التي فكّرت بها أنت». هذا مبدأ أساسي أعلمه لطلابي. لكن هل هذا صحيح حقاً؟ من السهل قول ذلك، غير أن تطبيقه ليس كذلك. يصعب على المرء الشروع حتى في الأشياء الصغيرة، فما بالك بالأشياء الكبيرة. أو ربما كلما كانت الفكرة أصغر، كان فهمها أصعب؟ علاوة على ذلك، لم يكن بُعدي عن بلادي عاملاً مساعداً.

حلم سوماير. وانقسام ميو.

الملف 1: سوماير تروي حلماً. تتسلق درجاً طويلاً لمقابلة أمها الميتة، لكن حين تصل تعود أمها إلى الجهة الأخرى، ولم تستطع سوماير إيقافها، فتبقى واقفة على قمة البرج وهي محاطة بأشياء من عالم مختلف. رأت العديد من هذه الأحلام.

الملف 2: هنا، سومايرتحكي التجربة الغريبة التي مرت بها ميو قبل 14 سنة. حُجزت داخل دولاب دوار في حديقة ألعاب في بلدة صغيرة في سويسرا، وهي تنظر بمنظار إلى حجرتها فرأت نفسها الأخرى هناك. شبح. وهذه التجربة حطمت ميو كشخص - أو على الأقل جعلت هذا التدمير حقيقة ملموسة. كما قالت ميو، انشطرت إلى قسمين تفصل مرآة بينهما. أقنعت سومايرميو أن تروي لها القصة وكتبتها بأفضل شكل ممكن.

هذا الجانب - الجانب الآخر. ذاك هو الخيط المشترك. الحركة من جانب إلى آخر. لا بد أن سومايرقد أجبرت بقدر كاف، بفعل الدافع والمحفز، لقضاء وقت طويل في كتابة ذلك. باستعارة كلماتها، كتابة كل ذلك ساعدها على التفكير.

جاء النادل لتنظيف بقايا خبزي المحمص وطلبت كأساً أخرى من عصير الليمون. سألته أن يضع فيها كثيراً من الثلج. عندما جلب الكأس أخذت رشفة واستعملت الكأس لتبريد جبهتي.

كتبت سومايرر: «وإذا رفضتني ميو، ماذا سيحدث؟ سأعبر ذلك الجسر عندما يحين الوقت. ينبغي أن يراق دم. سأشحذ سكيني وأستعد لذبح كلب من الوريد في مكان ما».

ماذا كانت تحاول أن تقول؟ هل كانت تلمّح إلى أنها

ستقتل نفسها؟ لم أستطع تصديق ذلك. لم تحمل كلماتها رائحة الموت اللاذعة. ما أحسسته أنها تتحلى بالرغبة في التحرك إلى الأمام، والكفاح للقيام ببداية جديدة. الكلاب والدماء مجرد مجازات، كما شرحت لها في ذلك المقعد في حديقة أنوجاشيرا، وتستمد معناها من القوة السحرية التي تمنح الحياة. كانت قصة البوابات الصينية مجازاً لكيفية تحلي القصة بهذا السحر.

. . . الاستعدادِ لذبح الكلب من رقبته في مكان ما.

في مكان ما؟

اصطدمتَ أفكاري بحائط صلب. درب مقفل تماماً. إلى أين يمكن أن تكون سوماير قد ذهبت؟ هل هناك مكان عليها الذهاب إليه في هذه الجزيرة؟

لم أستطع التخلص من فكرة سقوط سوماير في بئر في منطقة نائية وتنتظر وحيدة لوصول المساعدة. جريحة، وحيدة، جائعة، عطشى. التفكير في ذلك كاد يصيبني بالجنون.

قال البوليس بوضوح أن ما مِن بئر واحدة في الجزيرة ولم يسمعوا قط عن وجود أي حفرة في أي مكان قرب البلدة. إذا وُجِدَت، فسنكون أول من يعرف بوجودها، قالوا. عليّ تصديق ذلك.

قررت المغامرة والتفكير في نظرية ما.

لقد ذهبت سوماير إلى الجهة الأخرى.

هذا سيفسر الكثير. دخلت سوماير المرآة ورحلت إلى العالم الآخر لمقابلة ميو التي هناك. إذا رفضتها ميو الكائنة في هذا الجانب، ألا يبدو صنيعٌ مثل هذا شيئاً منطقياً؟

غصت باحثاً في ذاكرتي فيما كتبته. «ما الذي ينبغي فعله لتجنب الاصطدام؟ منطقياً، الأمر سهل. الجواب هو الأحلام. الاستمرار والاستمرار في الأحلام. ولوج عالم الأحلام وعدم الخروج منه أبداً. العيش هناك ما تبقى من العمر».

مع ذلك يبقى سؤال، سؤال جوهري. كيف يمكنك الذهاب إلى هناك؟

بكلمات منطقية بسيطة. الأمر سهل، لكن تفسيره ليس كذلك.

عدت من حيث بدأت.

فكرت في طوكيو، في شقتي والمدرسة التي أدرّس فيها، في نفاية المطبخ التي ألقي بها في صندوق القمامة في المحطة. لم يمض على مغادرتي اليابان سوى يومين، مع ذلك تبدو عالماً مختلفاً. الفصل الدراسي على وشك البداية. تصورت نفسي واقفاً أمام 35 تلميذاً. بالنظر إلى ذلك من بعيد، بدا تدريسي أي كان، حتى لو كان طفلاً في العاشرة، أمراً غير معقول.

خلعت نظارتي الشمسية، مسحت العرق السائل بمنديل، ثم أعدت النظارة ثانية لأراقب طيور البحر.

فكرت في سوماير، في الانتصاب العظيم الذي أصابني عندما جلست بجنبها يوم انتقلت إلى شقتها الجديدة. انتصاب فظيع كالصخر لم أعهده من قبل، كما لو أن جسدي كله سينفجر. آنذاك مارست الحب معها في مخيلتي - شيء كعالم الأحلام كتبت سوماير. كان الإحساس أكثر واقعية من ممارستي الجنس في الواقع.

شربت بعض عصير الليمون لأرطّب حنجرتي.

عدت إلى فرضيتي وتماديت بها خطوة أوسع إلى الأمام. بطريقة ما وجدت سوماير مخرجاً. ما كنه هذا المخرج وكيف اكتشفته، لم تكن لدي فكرة. ألغيت هذه الفرضية. لنفترض أن المخرج باب. أغمضت عيني وبنيتُ صورة ذهنية - صورة مفصلة عن هذا الباب. مجرد باب عادي ويشكل جزءاً من جدار عادي. حدث أن وجدت سوماير هذا الباب وأدارت مقبضه وانسلت إلى الداخل - من هذا الطرف إلى ذاك وهي ترتدي بيجاما حريرية خفيفة وصندلاً خفيفاً فقط.

ما يوجد خلف هذا الباب كان فوق طاقة تخيلي. أقفل الباب ولم تتمكّن سوماير من العودة.

عدت إلى الكوخ وحضّرت عشاءً مما وجدته في الثلاجة. طماطم وباستا وسلطة وجعة أمستيل. خرجت

لأجلس على الشرفة تائهاً في أفكاري، أو ربما لا أفكر في شيء. لم يتصل أحد. ربما تحاول ميو الاتصال بي من أثينا، لكن لا يمكن الاعتماد على هذا الهاتف.

تحولت السماء تدريجاً إلى لون داكن وطَلَع قمر مدور كبير من البحر بينما أحدثت بعض النجوم ثقوباً في السماء. هب نسيم على التلال حفّ بأعشاب الخبيزة. كان نور المنارة التي تدور تلقائياً على رأس رصيف الميناء الممتد في البحر يومض ويخفت بضوء قديم. هبط الناس التل وهم يسوقون حميرهم. تناهى إلى سمعي حديثهم المرتفع ثم تلاشى. استوعبت كل ذلك بصمت. بدا هذا المشهد الأجنبي طبيعياً جداً.

لم يرن الهاتف، لم تظهر سوماير والوقت ينساب بهدوء ولطف ولون المساء يزداد عمقاً. أخذت شريطين من حجرة سومايز واستمعت إليهما عبر جهاز الستيريو الموجود في حجرة الاستقبال. كان أحدهما مجموعة لأغاني موزارت. اليزابت شوارزكوف ووالتر جيسكنز ويمكن أن تقرأ على الغلاف كتابة بيد سوماير. لم أكن أعرف الكثير عن الموسيقى الكلاسيكية ولكن لمجرّد الاستماع إليها مرّة واحدة وجدتُ أنها موسيقى عذبة. كان الغناء قد جدد قليلاً لكنه ذكرني بقراءة نثر جميل لا ينسى - حيث يطلب منك الجلوس والانتباه. بدا وكأن المغنين أمامي تماماً، يرتفع صوتهم الرقيق رناناً ثم يتراجع، ثم يرتفع مرة أخرى. لا بد أن إحدى

هذه المقطوعات هي مقطوعة «البنفسجة» قلت لنفسي. غصت في مقعدي، أغمضت عيني وتقاسمت هذه الموسيقى مع صديقتي المفقودة.

أيقظتني الموسيقى، موسيقى بعيدة بالكاد تسمع. بثبات كبحار بلا وجه يرفع مرساة من قعر البحر، أعاد الصوت لي إحساسي. جلست في الفراش مستنداً إلى النافذة المفتوحة ورحت أصغي بإمعان. كانت بالفعل موسيقى. أشارت ساعة اليد قرب سريري إلى الواحدة والنصف. موسيقى؟ في هذه الساعة من الليل؟

ارتديت سروالي وقميصي وحذائي وخرجت. كانت الأضواء في الحي كلها مطفأة والشوارع مهجورة. لا ريح ولا حتى صوت أمواج، فقط ضوء قمر يغسل الأرض. وقفت هناك أصغي ثانية. من الغريب أن صوت الموسيقى يتناهى من أعلى التلال. لم تكن هناك قرى، بل عدد من الرعاة والأديرة حيث يعيش الرهبان في عزلة. كان من الصعب تصور قيام أي من هؤلاء بمهرجان موسيقى في هذه الساعة من الليل.

في الخارج كانت الموسيقى مسموعة أكثر. لم أتعرّف إلى اللحن، لكن من الواضح أنه لحنٌ يوناني. كما كان واضحاً من حدَّة الأنغام الصادحة، المتنافرة، أنها ليست موسيقى مسجلة، بل هي عزفٌ حيّ على الآلات.

كنت قد استيقظت آنذاك وفي نسيم الليل الصيفي المنعش

عمق غامض. لو لم أكن قلقاً على سوماير، لشعرتُ بالنشوة. واستلقيت على جنبي ناظراً إلى السماء. أخذت نفساً عميقاً، ودلف برد المساء إلى داخلي. فجأة خطرت ببالي فكرة، ربما تستمع سوماير في هذه اللحظة إلى الموسيقى نفسها.

قررت الذهاب سيراً في اتجاه الصوت لأرى من أين يأتي الصوت ومن يعزفه. كان درب صعود التل هو الدرب الذي سلكته في الصباح عند ذهابي إلى الشاطئ، لذا قررت أن أذهب إلى أقصى حدّ يمكنني بلوغه. أضاء نور القمر الساطع كل شيء ما جعل سيري سهلاً، وكوَّن ظلالاً بين المنحدرات صابغاً الأرض بظل غير مستحب. في كل مرة يحطم نعل حذائي الرياضي بعض حصباء الطريق، ينبعث صوت مرتفع. الموسيقى تزداد وضوحاً كلما ارتقيت التل. كما حدست، كان الصوت صادراً من قمة الجبل. بإمكاني تبين صوت بعض الطبول وبوزوكي وأكورديون ومزمار، وربما جيتار. غير ذلك لم أسمع شيئاً، لا غناء ولا أناس تصرخ بلا توقف بإيقاع منفصل ورتيب إلى حد ما.

أردت أن أرى ما كان يجري على قمة الجبل، وفي الوقت نفسه فكرت في البقاء بعيداً عنه. فضول جامح ينازع خوفاً فطرياً. مع ذلك، كان عليَّ التقدم إلى الأمام. شعرت كما لو أني في حلم. المبدأ الذي يجعل الخيارات الأخرى ممكنة مفقود. أو هل كان الخيار الذي يجعل ذلك المبدأ ممكناً هو المفقود؟

كل ما أعرفه أن سوماير استيقظت قبل بضعة أيام على صوت الموسيقى نفسها، وتغلّب عليها فضولها فتسلقت الجبل وهي ترتدي بيجامتها.

توقفت واستدرت لأنظر خلفي. كان المنحدر يلتف هابطاً صوب البلدة كآثار حشرة عملاقة. رفعت نظري إلى السماء في ضوء القمر ثم إلى راحة يدي. سريعاً فهمت وعلمت أنها لم تعد يدي. لم أستطع تفسير ذلك، لكن بنظرة علمت أن يدي لم تعد يدي وساقيّ لم تعودا ساقيّ.

فقد جسدي المستحم بضوء القمر الشاحب كل دفء العيش وصار دميةً من الجصّ. كأنّ مشعوذاً سحرني بتعويذة ونفخ حياتي الزائلة في كتلة الطين تلك . خَبَت شرارة الحياة. هجعت حياتي الحقيقية في مكان ما ووضعها شخص بلا وجه في حقيبة على وشك الرحيل.

سَرَت في جسدي رعشة برد قارصة وشعرت بالاختناق. أعاد شخص ترتيب خلايا جسمي وفكّك الروابط التي تستجمع عقلي. لم أقدر على التفكير بشكل صحيح. كل ما كان بوسعي فعله التراجع بأسرع ما يمكن إلى ملاذي المعتاد. أخذت نفساً عميقاً وغصت في بحر الوعي إلى القعر. دافعاً الماء الثقيل جانباً غصت بسرعة وقبضت على صخرة هناك بيدي الاثنتين. ضغطت الماء على طبلتي أذني. أغمضت عيني بإحكام وحبست تنفسي مقاوماً. ما إن اتخذت قراراً لم يعد الأمر عسيراً. لقد اعتدت على كل شيء، ضغط الماء

وقلة الهواء والعتمة المجمدة والإشارات التي تبعثها الفوضى. شيء كنت قد تحكمت به مراراً وتكراراً في طفولتي.

أعاد الزمن نفسه، أكمل دورته، انهار معيداً تنظيم نفسه. امتد العالم بلا نهاية - مع ذلك كان محدداً ومحدوداً. مرت صور - الصور وحدها فقط - في ممرات مظلمة مثل قنديل البحر والأرواحِ الهائمة. قرّرتُ ألا أنظر إليها. إذا اعترفت بها، ولو قليلاً، فسوف تضفي على نفسها معنىً. كان المعنى ملتصقاً بالزائل والموقت؛ الزائل يحاول إجباري على الصعود إلى السطح. تغاضيت عنها جميعاً في انتظار عبور الموكب.

كم بقيت على هذه الحال، لا أدري. عندما صعدت إلى السطح وفتحت عيني وأخذت نفساً مُطمئناً كانت الموسيقى قد توقفت والأداء المبهم قد انتهى. أصغيت بعناية، لم أسمع شيئاً، لا شيء البتة. لا موسيقى، لا أصوات ناس ولا صرير ريح.

حاولت معرفة الوقت، لكن لم تكن معي ساعة، لقد تركتها بجنب سريري.

كانت السماء قد امتلأت بالنجوم، أم كان ذلك من صنيع مخيلتي؟ بدا أن السماء نفسها قد تحولت إلى شيء آخر، والإحساس الغريب بالاغتراب الذي أحسست به داخلي قد تلاشى. تمددت وحنيت ذراعي وأصابع يدي. لم يكن هناك شعور بالغربة عن المكان. بل إحساس بالرطوبة عند الإبطين لا أكثر.

نهضت عن العشب وواصلت تسلق التل. سأصل إلى هناك وربما أبلغ القمة. هل حقاً كانت موسيقى هناك؟ ينبغي أن أرى بنفسي حتى لو لم يبق سوى دليل ضئيل. وصلت القمة بعد خمس دقائق. في الجهة الجنوبية ينحدر الجبل صوب البحر والميناء والمدينة النائمة، بينما يلف الظلام الطرف الآخر من الجبل، وليس هناك ضوء واحد ظاهر. حدقت ملياً في العتمة، أخيراً لاح خط من التلال في الخلف عائماً في ضوء القمر، وخلفه تمتد عتمة عميقة، وحولي هنا ما من أثر يدلّ على أن مهرجاناً قد جرى قبل قليل.

بالرغم من بقاء صدى عميق داخل رأسي لم أعد متأكداً من سماع موسيقى. أصبحت مع مرور الوقت أقل وأقل يقيناً. ربما كان ذلك مجرّد وهم والتقطت أذناي إشارات من أوقات وأماكن مختلفة. لم يبد هذا منطقياً - فكرة أن يجتمع الناس على قمة جبل في الساعة الواحدة صباحاً لعزف موسيقى منافية للعقل.

بدا القمر الخَشِن في السماء فوق القمة، قريباً جداً. كرة قاسية من الحجر أكل الزمن الذي لا يرحم قشرتها. ظلال مشؤومة على سطحها خلايا سرطانية عمياء تمد مجسّاتها نحو دفء الحياة. طغى ضوء القمر على كل صوت مبيداً كل معنى وملقياً بكل عقل في غمرة الفوضى. جعل ميو ترى ذاتاً ثانية. أخذ قطة سوماير إلى مكان بعيد وأخفى سومايز، جلبني هنا وسط موسيقى في الأغلب أنها لم توجد. أمامي تمتد العتمة

دون قرار وخلفي عالم من الضوء الشاحب. وقفت هناك على قمة الجبل على أرض أجنبية أستحم بضوء القمر. لعلِ كل هذا قد خُطط له بدقة متناهية منذ البداية.

عدت إلى الكوخ وشربت كأساً من براندي ميو. حاولت النوم لكني لم أفلح. لم تغمض عيناي. لَبِثتُ رهينَ القمر والجاذبية وغليان العالم إلى أن أضيئت السماء الشرقية.

تخيلت قططاً تجوع حتى الموت في شقة مقفلة. مفترسة صغيرة ناعمة. أنا - أنا الحقيقي - كان ميتاً والقطط حيّة تلتهم لحمي تمضغ قلبي تشرب دمي. إذا أصغيت جيداً إلى مكان بعيد، بعيد جداً يمكنني سماع القطط تلعق عقلي. ثلاث قطط رشيقة تحيط برأسي المحطم تشرب الحساء الرمادي الطري الداخلي. تلعق رؤوس ألسنتها الحمراء الخشنة ثنايا عقلي الناعمة. ومع كل لعقة لسان يخفق عقلي ويتلاشى كومضة هواء ساخن.

14

في النهاية لم نعرف قط ما حدث لسوماير وكما قالت ميو، تلاشت كالدخان.

عادت ميو بعد يومين إلى الجزيرة عند الظهر في القارب وبصحبتها مسؤول من السفارة اليابانية وضابط شرطة مكلف بمتابعة القضايا المتعلقة بالسياحة. اجتمعوا مع الشرطة المحلية وشرعوا في إجراء تحقيق مكثف مع سكان الجزيرة. طلب البوليس من سكان الجزيرة الإدلاء بأي معلومات يعرفونها عن سومايز التي نشروا صورة لها مكبّرة من الصورة الموجودة على جواز سفرها في الصحيفة المحليّة. اتصل عديد من الناس غير أن شيئاً لم يكن له علاقة بالموضوع. كانت المعلومات دوماً حول شخص آخر.

حضر والدا سومايز إلى الجزيرة أيضاً بعد مغادرتي بقليل. كان الفصل الدراسي على الأبواب، لكنّ عجزي عن مواجهتهما كان هو السبب الفعلي لرحيلي. علاوة على ذلك كان الإعلام في اليابان قد تنبه للخبر وبدأ في الاتصال

بالسفارة اليابانية والبوليس المحلي هنا. أخبرت ميو أن الوقت قد أزف لعودتي إلى طوكيو، والبقاء في الجزيرة مدة أطول لن يساعد في العثور على سوماير.

هزت رأسها وقالت: «لقد فعلتَ ما فيه الكفاية. حقاً لو لم تأت لكنت ضعت تماماً. لا تقلق. سأشرح لوالديّ سومايز كل شيء، وسوف أتكفّل بالصحافيين. اترك الأمر لي. أنت لا تتحمل أي مسؤولية في هذا. يمكنني أن أكون سيدة أعمال إذا اقتضت الحاجة، وسوف أتدبّر أمري».

ودّعتني في الميناء. كنت أستقل مركب بعد الظهر إلى رودس وقد مر على اختفاء سومايز عشرة أيام تماماً. حضنتني ميو قبل مغادرتها، ضمة طبيعية جداً. ربّتت على ظهري أثناء ضمها لي مدة طويلة. كانت شمس بعد الظهر ذلك اليوم حارة ومن الغريب أن بشرتها بدت باردة. كانت يداها تحاولان إخباري شيئاً. أغمضت عيني واستمعت إلى تلك الكلمات. لا كلمات- شيء لا يمكن صوغه في لغة. في غمرة صمتنا، حدث شيء بيننا.

قالت ميو: «اعتن بنفسك!»

قلت: «وأنت أيضاً». وقفنا لوهلة هناك أمام اللوح الخشبي الذي يقود إلى السفينة.

قالت بنبرة جادة قبل صعودي إلى القارب: «أريدك أن

تخبرني شيئاً بأمانة. هل تعتقد أن سوماير ليست على قيد الحياة؟»

هززت رأسي: «لا يمكنني إثبات ذلك، لكني أشعر أنها ما زالت حية في مكان ما. حتى بعد هذا الوقت الطويل لا أشعر أنها ميتة».

ضمت ميو ذراعيها الملوحتين بالشمس ونظرت إليَّ.

قالت: «في الواقع لدي الشعور نفسه أيضاً بأن سوماير ليست ميتة، غير أني أشعر أني لن أراها ثانية، وأنه ليس باستطاعتي إثبات أي شيء أيضاً».

لم أنبس بكلمة. لف صمتٌ الفضاء المحيط بنا. كانت الطيور البحرية تطلق صيحاتها الحادة وهي تعبر إلى السماء الخالية من الغيوم، والنادل النعسان في المقهى يقدم طلباً آخر من الشراب.

زمّت ميو شفتيها وشردت أفكارها. أخيراً سألت:

«هل تكرهني؟»

«بسبب اختفاء سوماير؟»

«أجل».

«ولماذا أكرهك؟»

«لا أدري!»

شابَ صوتها تعب طال كبته.

«أشعر بأني لن أراك ثانية أيضاً، لهذا سألت».

قلت: «لا أكرهك».

«من يدري! ربما لاحقاً».

«لا أكره الناس لمثل هذه الأمور».

خلعت ميو قبعتها وأصلحت هندامها قبل أن ترتديها مجدّداً. نظرت إليَّ بعينين مفتوحتين على اتساعهما وقالت: «ربما ذلك لأنك لا تتوقع شيئاً من أحد!» كانت عيناها عميقتين وصافيتين مثل عتمة الشفق يوم لقائنا.

«أنا لست كذلك. أردتك أن تعلم أني أميل إليك كثيراً».

تبادلنا عبارات الوداع. تراجعت السفينة عن رصيف الميناء، دوَّم المحرك الماء الذي أزبد فيما السفينة تتحرك بثقل 180 درجة لتغير اتجاهها. لَبِثَت ميو على الرصيف تراقبني. كانت ترتدي فستاناً أبيض وتمسك بين فينة وأخرى بقبعتها كي لا تطير. بدت في وقفتها على رصيف ميناء تلك الجزيرة اليونانية الصغيرة كشيء من عالم آخر، رشيقة وفاتنة. اتكأت على حافة سطح السفينة وراقبتها مدة طويلة. بدا أن الزمن قد تجمد وحفر المشهد في ذاكرتي إلى الأبد.

لكن الزمن تحرك ثانية وميو تتضاءل أصغر فأصغر. في البدء كانت نقطة مبهمة ثم ابتلعها كلياً وميض الهواء. بدت البلدة أصغر من بعيد ولم تعد الجبال مميزة ثم ضاعت

الجزيرة في سديم النور حتى اختفت عن الأنظار تماماً. بانت جزيرة أخرى مكانها ومثلها غابت واختفت في البعيد. مع مرور الوقت، بدت كل الأشياء التي تركتها خلفي كأنها لم توجد قط.

ربما كان عليَّ البقاء مع ميو، وماذا لو بدأ الفصل الدراسي؟ ينبغي أن أشجع ميو وأفعل كل ما بوسعي لمساعدتها في البحث، وإذا حدث مكروه يجب أن أضمها وأقدم لها كل عزاء بإمكاني تقديمه. أعتقد أن ميو رغبت فيَّ وبشكل ما رغبتُ فيها أيضاً.

لقد استحوذت على شغاف قلبي.

أدركت كل ذلك للمرة الأولى وأنا على سطح السفينة أراقبها تختفي في البعيد. داهمني شعور كما لو أن ألف خيط كانت تجرني بشدة. لعله ليس حباً رومانسياً كاملاً، لكنه قريب من ذلك. مرتبكاً ومهتاجاً جلست على سطح السفينة واضعاً حقيبتي الرياضية على ركبتي وحدّقت في خط الماء الأبيض الذي تخلفه السفينة وراءها. كانت طيور النورس تطير خلف السفينة قريبة من خط الماء الأبيض. كنت ما أزال أحس براحة ميو الصغيرة على ظهري كظل روح خفيفة.

خططت للطيران مباشرة إلى طوكيو لكن لسبب ما ألغي الحجز الذي قمت به بالأمس وانتهى بي الأمر بأن أمضيت ليلة في أثينا. ركبت حافلة الشركة ونزلت في فندق في المدينة أوصت به شركة الطيران. فندق مريح، لطيف، قرب

منطقة بلاكا التي كانت لسوء الحظ مكتظة بفريق سياحي ألماني صاخب. تجوّلت في المدينة إذ لم يكن لدي ما أفعله واشتريت بعض الهدايا التذكارية ليس لأحد معين. في المساء سرت حتى قمة الأكروبولوس. استلقيت على بلاطة ونسيم الشفق يهبّ عليّ ورحت أتأمّل المعبد الأبيض طافياً في الضوء الغامر الزرقة. مشهد جميل كالحلم.

غير أن كل ما شعرت به كان وحدة لا تضاهى، وقبل أن أعي ما يجري كان العالم حولي يرشح لوناً. من قمة الجبل الرث وآثار تلك المشاعر الفارغة، كان بإمكاني رؤية حياتي تمتد في المستقبل. بدت كرسم توضيحي في رواية خيال علمي قرأتها في طفولتي: سطح كوكب مهجور بائس. لا أثر فيه قطّ للحياة. بدا كل يوم أنه سيبقى إلى الأبد والهواء إما حاراً ملتهباً أو بارداً كالجليد. اختفت المركبة الفضائية التي جلبتني، وبقيت مرهوناً هناك عليَّ تدبير أمور بقائي حياً.

أدركت ثانية كم كانت سوماير مهمة بالنسبة لي ولا تعوض، إذ إنها ظلت تربطني بالعالم بطريقتها الخاصة. وأنا أتكلم معها وأقرأ قصصها، كان ذهني يتسع بهدوء وبمقدوري رؤية أشياء لم أرها من قبل. دون محاولة كنا نقترب واحدنا من الآخر ومثل عاشقين شابين يخلعان ملابسهما واحدنا أمام الآخر كشفنا أنا وسوماير قلبينا واحدنا للآخر، تجربة ما عرفتها مع أي كائن آخر في أي مكان. تعلقنا بما تقاسمناه معاً وإن لم نعبّر قط عن قيمة ذلك بالكلمات.

من المؤلم طبعاً أننا لم نستطع أن نتحابر جسدياً. كنا لنَسْعَد كثيراً لو فعلنا، لكن هذا كان مثل المد والجزر وتغير الفصول - شيئاً غير قابل للتغيّر، قَدَراً محتوماً لم يمكننا تغييره. لم تكن صداقتنا الرقيقة لتستمر إلى الأبد مهما حاولنا المحافظة عليها بذكاء. كنا متجهين إلى طريق مسدود. كان ذلك جلياً بشكل مؤلم.

أحببت سوماير أكثر من أي شخص آخر واشتهيتها أكثر من أي شيء في الوجود. لم أستطع التخلص من هذه المشاعر لعدم وجود ما يحل مكانها. حلمت أن تحولاً مفاجئاً أساسياً سيحدث يوماً ما، حتى وإن بدا احتمال تحقق ذلك ضئيلاً. كان بإمكاني الحلم بها، أليس كذلك؟ لكني كنت أعلم أنها لن تتحقق أبداً.

مثل تراجع الجزر، غسل الشاطئ وأصبح نظيفاً، بذهاب سوماير تركت في عالم خاوٍ مشوه. عالم بارد مظلم. ما كنت وإياها نتقاسمه لن يحدث ثانية أبداً.

كان لكل منا شيء خاص يمكنه الحصول عليه في وقت معين من حياتنا كلهب صغير. قلة محظوظة رَعَت هذا اللهب وغذته، رفعته كشعلة تنير سبيلها. لكن ما إن يخمد هذا اللهب حتى تخمد الشعلة إلى الأبد. لم يكن ما فَقَدْتُهُ هو سوماير وحدها، بل ذاك اللهب الثمين.

كيف كان الحال في الطرف الثاني؟ كانت سوماير هناك وكذلك الجزء المفقود من ميو. ميو بشعر أسود ورغبة جنسية طبيعية. ربما تقابلتا هناك وتحابتا وأشبعت واحدتهما الأخرى. «نفعل أشياء لا نستطيع التعبير عنها بكلمات» قد تقول سوماير لي، وقد صاغت ذلك في كلمات.

هل من مكان لي هناك؟ هل يمكنني أن أكون معهما وهما تمارسان الحب الشَّبِق؟ قد أجلس في ركن حجرة في مكان وأسلّي نفسي بقراءة أعمال بلزاك الكاملة. بعد أن تستحم، قد أذهب وسوماير للسير والحديث عن كل الأمور. وسوماير كالعادة تدير معظم الحديث. لكن هل ستبقى علاقتنا أبدية؟ هل هذا طبيعي؟ ستقول سوماير لي بالطبع: «لا حاجة إلى السؤال عن ذلك لأنك الصديق الحقيقي الوحيد!»

لكن لم تكن عندي أدنى فكرة عن كيفية الذهاب إلى ذلك العالم. لمست سطح صخرة الأكروبولوس المصقولة القاسية. تسرب التاريخ عبر السطح وخُزن في الداخل. شئت أم أبيت، كنت قد سجنت في انسياب الزمن ذاك. لم أستطع الفرار. كلا - هذا ليس بالصحيح تماماً. الحقيقة أني لم أود حقاً الفرار.

غداً سأستقل الطائرة وأعود إلى طوكيو. عطلة الصيف على وشك الانتهاء وينبغي أن أدلف ثانية في تيار الحياة

اليومية اللامتناهي. ثمة مكان لي هناك، شقتي ومكتبي وفصلاي الدراسيان وطلابي. أيام هادئة في انتظاري وروايات لأقرأها وعلاقة عابرة.

غير أني في الغد سأصبح شخصاً آخر، وليس الشخص نفسه أبداً، ولن يلاحظ أحد ذلك عند عودتي إلى اليابان. على القشرة لن يتغير شيء، لكن شيئاً في الداخل احترق واختفى. سُفكت دماء وولّى شيء من داخلي. خرج ذلك الشيء ووجهه إلى الأرض دون كلمة. باب يُفتح وباب يُغلق. يطفأ ضوء، وهذا آخر يوم للشخص الذي أنا عليه الآن. آخر شفق. عندما يأتي الفجر، لن يعود الشخص الذي أنا عليه الآن موجوداً. شخص آخر سيحتل هذا الجسد.

لماذا على الناس أن يكونوا وحيدين هكذا؟ ما الغاية من ذلك؟ ملايين البشر في هذا العالم، كلهم يرنون وينظرون إلى الآخرين لإرضائهم ومع ذلك يعزون أنفسهم. لماذا؟ هل وضعت الأرض هنا لتعزيز وحدة البشر؟ رفعت وجهي عالياً إلى البلاطة وحدقت في السماء. فكرت في كل الأقمار الاصطناعية التي صنعها البشر والتي تدور حول الأرض. كان الأفق لا يزال محفوراً في وميض خافت وبدأت النجوم تتلألأ في السماء العميقة خمرية اللون. حدقتُ ملياً علّني ألمح نور الأقمار الاصطناعية، لكنها كانت ما تزال مضيئة فلا يمكن للعين المجردة العثور على واحد منها. بدت النجوم المتلألئة

مسمرة في مكانها دون حراك. أغمضت عيني وأصغيت بانتباه لنسل سبوتنيك التي تدور الآن حول الأرض والجاذبية رباطها الوحيد إلى الكوكب. أرواح معدنية وحيدة في عتمة الفضاء التي لا يعوقها شيء، تتقابل ويمر بعضها بمحاذاة البعض، ثم تفترق ولا تلتقي بعد ذلك مرة ثانية. لا تتبادل كلمة ولا تقطع وعداً تُوَفّيه.

15

رن الهاتف بعد ظهر يوم أحد. الأحد الثاني بعد بداية الفصل الدراسي الجديد في سبتمبر/ أيلول. كنت أعد غداءً متأخراً وعليَّ إقفال الغاز قبل الإجابة. رن الهاتف بإلحاح، على الأقل هذا ما شعرت به. كنت متأكداً أن هذه ميو تتصل لتخبرني بآخر أخبار سوماير ومكان وجودها. لم تكن المكالمة من ميو، بل من صديقتي.

قالت متجاوزة تحياتها الافتتاحية المعهودة «حدث شيء. هل يمكن أن تأتي في الحال؟»

بدا كأن شيئاً مروعاً قد حدث. هل عرف زوجها ما بيننا؟ أخذت نفساً عميقاً. إذا اكتشف الناس أني أنام مع أم طفل في صفي أقل ما يمكنني قوله هو أني في ورطة. أسوأ سيناريو هو أن أفقد وظيفتي. مع ذلك استسلمت في الوقت نفسه للفكرة لأني كنت أعرف المجازفات المتعلقة بالأمر.

سألت: «أين أنت؟»

قالت: «في سوبرماركت!»

أخذت القطار إلى تاشيكاوا ووصلت إلى المحطة القريبة من السوبرماركت الساعة 2:30. كان بعد ظهر ذلك اليوم حاراً جداً والصيف في عزِّه، وكنت أرتدي قميصاً أبيض اللون وربطة عنق وبدلة رمادية خفيفة. إنها الملابس التي طلبت مني أن ألبسها. قالت: «هكذا تبدو كمدرس وتعطي انطباعاً أفضل، لأنك ما زلت تبدو كطالب جامعي».

سألت مساعداً شاباً عند مدخل المحل كان يجمع عربات التسوق المتفرقة أين مكتب الأمن. أخبرني أنه في الجهة المقابلة من الشارع في الطابق الثالث من المجمّع، عمارة صغيرة بشعة من ثلاثة طوابق شيدت من دون مصعد. «لا تقلق علينا» بدا أن الشقوق في الجدران كانت تقول «سيهدمون هذا المكان يوماً ما». صعدت الدرج الضيق المتآكل ووجدت الباب المكتوب عليه «أمن» قرعته مرتين. أجاب صوت مكتوم لرجل. فتحت الباب لأرى صديقتي وابنها في الداخل جالسين أمام مكتب رجل متوسط العمر في زيّ حراس الأمن الرسمية. ثلاثتهم فقط.

حجرة متوسطة الحجم، لا كبيرة ولا صغيرة، وثلاثة مكاتب مصفوفة عند النافذة وخزانة حديد مقابل الحائط. على الجدار جدول دوام الموظفين وثلاث قبعات على رف حديدي. خلف الزجاج المعشق في آخر الحجرة بدا أن هناك حجرة ثانية ربما يستخدمها الحراس للقيلولة. كانت الحجرة التي نحن فيها خالية من الديكور تقريباً. لا زهور ولا صور

ولا حتى تقويم. فقط ساعة حائط مدورة فوق الحائط. حجرة عارية تماماً كركن قديم من العالم نسيها الزمن. وفوق كل ذلك كان للمكان رائحة غريبة- دخان سجائر ووثائق عفنة، وأنفاس، اختلطت كلها عبر سنين.

كان حارس الأمن المسؤول رجلاً قويّ البنية في أواخر الخمسينات، ذراعاه مفتولتا العضلات ورأسه ضخم مغطى بفروةِ شعر كث خشن رمادي ملتصقة برأسه بفعل زيت شعر رخيص، أفضل ما بوسع راتب حارس أن يشتريه ربما. كانت منفضة السجائر أمامه مليئة بسبعة أعقاب. عندما دخلت الحجرة، خلع نظارته ذات الإطار الأسود ومسحها بقطعة قماش وأعادها إلى مكانها ربما هذه طريقته في التحية. كانت عيناه باردتين كصخور القمر. عندما أعادهما تراجعت البرودة التي حلت مكانها نظرة قوية مصقولة. في الحالتين لم تكن أي منهما نظرة تريح الناس.

كانت الحجرة حارة بعدوانية، نافذة مفتوحة على وسعها لا تدلف منها نسمة هواء، بل مجرد ضجيج الشارع في الخارج. وقفت شاحنة ضخمة عند إشارة المرور مستخدمة كوابح مزعجة ما ذكرني ببن وبستر عازف السكسفون في سنواته الأخيرة. كنا جميعاً ننضح عرقاً. تقدمت من المكتب وقدمت نفسي وبطاقة زيارتي. أخذها دون كلمة، زمّ شفتيه وحدق فيها لحظة ثم وضعها على مكتبه ورفع بصره نحوي.

قال: «أنت صغير لتكون مدرساً، أليس كذلك؟ كم مضى عليك في التدريس؟»

تظاهرت بالتفكير في سؤاله وأجبت: «ثلاث سنوات». قال «أم م م» ولم يضف شيئاً آخر، لكن الصمت كان ثقيلاً. أخذ بطاقتي وقرأ اسمي ثانية كما لو كان يراجع شيئاً.

قدم نفسه «اسمي ناكامورا. رئيس الأمن هنا». لم يقدم لي بطاقة «اسحب كرسياً من هناك إذا سمحت. آسف لارتفاع الحرارة. المكيف لا يعمل ولا أحد يأتي لإصلاحه يوم الأحد، وليسوا من اللطف بحيث يرسلون لي مروحة، لذا أجلس هنا وأعاني. اخلع الجاكيت إذا أردت. قد تبقى هنا فترة. أشعر بالحرّ لمجرّد النظر إليك».

فعلت ما طلبه مني. سحبت كرسياً وخلعت الجاكيت. التصق قميصي المبتل بالعرق بجسدي. بادر الحارس بالقول «هل تدري أنني طالما حسدت المدرسين». ارتسمت ابتسامة مجهضة حول شفتيه، لكن عينيه بقيتا كعيني مفترس بحري يبحث في الأعماق عن أدنى حركة. كانت الكلمات مؤدبة، لكنّني مجرد قشرة وكلمة مدرس بدت كأنها إهانة.

«لديكم أكثر من شهر إجازة في الصيف ولا تعملون أيام الأحد أو في الليل، كما يقدم الناس لكم الهدايا طوال الوقت. برأيي هذه حياة مرفّهة. إذا سألتني. أتمنى أحياناً لو أني درست أكثر وأصبحت مدرساً، ولكن شاء القدر ما شاء، وها أنا حارس أمن في سوبرماركت. أظن أني لم أكن ذكياً

بما فيه الكفاية، غير أني أشجّع أولادي أن يصبحوا مدرِّسين، لا أكترث لما يقوله الناس، المدرِّسون ناجحون».

كانت صديقتي ترتدي فستاناً بسيطاً خفيفاً نصف كم، وشعرها مجمع على قمة رأسها، وفي أذنيها قرطان صغيران. صندل أبيض اللون بكعب، وحقيبة بيضاء ومنديل كريمي اللون في حجرها. كانت تلك المرة الأولى التي أراها فيها منذ عودتي من اليونان. نظرت إلى الأمام والخلف ناقلة بصرها بيني وبين الحارس وعيناها منتفختان من كثرة البكاء. كان واضحاً أنها عانت كثيراً.

تبادلنا نظرة سريعة والتفتّ إلى ابنها. كان اسم ابنها شينيشي نيمورا، لكن الأطفال أطلقوا عليه اسم «الجزرة». بوجهه الطويل النحيل وشعره المجعد الأشعث كان الاسم يناسبه. كنت أطلق عليه هذا الاسم أيضاً. كان صبياً هادئاً، بالكاد يقول ما ليس ضرورياً. لم تكن علاماته سيئة ولا ينسى واجباته المدرسية ولا يُغْفل القيام بما عليه من تنظيف. لا يوقع نفسه في مشاكل، لكنه يفتقر إلى المبادرة ولم يرفع يده قط في الفصل. لم يكرهه الأطفال في الفصل، لكنه لم يتمتع بشعبية أيضاً. لم يسرّ ذلك والدته كثيراً. من وجهة نظري كان طفلاً جيداً.

قال الحارس: «أظن أنك علمتَ بفعلة الصبي؟»

أجبت: «نعم، بلغني أنه قُبض عليه وهو يسرق من المحل».

قال الحارس: «هذا صحيح» ووضع صندوقاً من الورق المقوى كان قرب قدمه فوق المكتب. دفعه نحوي. كان فيه مجموعة من دباسات الورق المتشابهة ما زالت في ورقها. أخذت واحدة وفحصتها. كان الثمن 850 يناً.

قلقت: «ثماني دباسات. أهذا كل شيء؟»

«نعم، وهذا كثير».

أعدت الدباسة إلى الصندوق. «المبلغ الإجمالي إذاً هو 6,800 ين».

«صحيح 6,800 ينّ. ربما تقول في سرّك: حسناً سرق وهذه جريمة بالطبع. ولكن لِمَ هذا الضجيج حول ثماني دباسات؟ هذا مجرد طفل في المدرسة. هل أنا مخطئ في ظنّي؟»

لم أجب.

«من الجيد التفكير هكذا لأن ذلك صحيح. هناك جرائم أسوأ من سرقة ثماني دباسات. كنت رجل شرطة سابقاً قبل أن أصبح حارساً، لذا أعرف ما أتحدث عنه».

كان الحارس ينظر مباشرة في عيني وهو يتكلم. حرصتُ على اجتناب نظرته كيلا أبدو متحدياً.

«لو كانت هذه أول تجاوزاته لما أثار المحل ضجة.

عملنا يقضي التعامل بالحسنى مع الزبائن. ونفضّل إلاّ نثير المتاعب بسبب أمور تافهة مماثلة. عادة أجلب الطفل إلى هنا وأخيفه، وفي أسوأ الحالات نتصل بالأهل ليعاقبوا الطفل. لا نتصل بالمدرسة، هذه سياسة محلنا، الاهتمام بالأطفال السارقين بهدوء.

المشكلة أن هذه ليست هي المرة الأولى. في محلنا فقط نعرف أنه صاحب ثلاث سوابق. ثلاث مرات. تصور؟ أسوأ من ذلك أنه رفض في المرتين الأوليين أن يفصح عن اسمه أو اسم مدرسته. أنا من تكفل بأمره. لذا أتذكره جيداً. لم ينبس بكلمة مهما كررنا السؤال. المعاملة الصامتة كما كنا نسميها في الشرطة. لا ندم، بل سوء تصرّف، ثمّ تسويف. لو لم يخبرني باسمه هذه المرة كنت سأسلمه للشرطة، لكن حتى هذا لم يثر عنده أي رد فعل. لم يكن هناك شيء آخر نفعله، لذا أجبرته على إطلاعي على بطاقة الحافلة وهكذا وجدت اسمه».

سكت وظلّ يحدق بي وأنا أتجنب نظرته.

«الشيء الآخر يتعلق بما يسرقه. لا شيء جميلاً في الأمر. أول مرة سرق 15 قلم رصاص. القيمة الإجمالية 9,750 يناً. المرة الثانية ثماني بوصلات 8,000 ينّ. بعبارة أخرى يسرق كل مرة القدر نفسه ولا يستعمل ما يسرقه بنفسه. يفعل ذلك لغرض التسلية، أو أنه يخطط لبيعها لأصدقائه في المدرسة».

حاولت أن أستحضر في ذهني صورة «الجزرة» وهو يبيع الدباسات إلى أصدقائه خلال فسحة الغداء. لم أستطع تصور ذلك.

قلت: «لا أفهم. لماذا يسرق من المحل نفسه؟ ألا يزيد ذلك من احتمالات القبض عليه وجعل العقاب أسوأ عندما يحصل ذلك؟ إذا كان يحاول الإفلات بفعلته، ألم يكن الأحرى أن يحاول في أماكن أخرى؟»

«لا تسلني ربما كان يسرق من محال أخرى. أو لعل محلنا هو المكان المفضل لديه. ربما لا يحب وجهي. أنا مجرد حارس أمن بسيط في سوبرماركت، لذا سأحاول التفكير في كل الجوانب. لا يدفعون لي كثيراً مقابل ذلك. إذا أردت أن تعرف حقاً اطرح عليه السؤال بنفسك. جلبته إلى هنا قبل ثلاث ساعات ولم يَشْتَكِ إلى الآن. شيء مدهش، لذا طلبت قدومكما إلى هنا. آسف لجلبكم في يوم عطلة... شيء أثار عجبي منذ أن قدمت. يبدو أن بشرتك قد لوحتها الشمس. ليس لذلك علاقة بموضوعنا، لكن هل ذهبت إلى مكان خاص في الإجازة الصيفية؟»

أجبت: «ليس إلى مكان خاص».

مع ذلك بقي يتفحص وجهي بدقة كما لو كنت رُكناً مهماً في المسألة.

أخذت الدباسة مرة أخرى وفحصتها ثانية بكل تفاصيلها.

مجرد دباسة عادية صغيرة من النوع الرخيص الذي يوجد في المكاتب أو البيوت.

لفافة «سيفين ستار» تتدلّى من بين شفتيه، أشعلها بقدّاحة من نوع «بيك»، ثم استدار جانباً ونفث سحابة من دخان.

التفتّ إلى الصبي وسألته بلطف: «لماذا دباسات؟»

كان «الجزرة» يحدق طوال الوقت في الأرض. رفع بصره الآن بهدوء ونظر إليَّ دون أن يقول شيئاً. لاحظت للمرة الأولى أن ملامحه قد تغيرت تماماً- ملامح بل تعبير على نحوٍ غريب، وعينان زائغتان. بدا كأنه يحدق في الفراغ.

«هل دفعك أحد لفعل ذلك؟»

لا إجابة.

من الصعب معرفة إن كانت كلماتي تصله. استسلمت. سؤال الصبي أي شيء الآن لن يجدي. كان بابه مقفلاً والنوافذ موصدة بإحكام.

سألني الحارس: «ما الذي تقترحه يا سيدي؟ أحصل على راتبي للتجول في المحل ومراقبة أجهزة المراقبة، والقبض على السارقين وجلبهم إلى هذه الحجرة. ما يحدث بعد ذلك مسألة مختلفة تماماً، خاصة في حالة صبي صغير. ماذا تقترح علينا فعله؟ أنا واثق أنك صاحب خبرة بهذا الشأن. هل ندع الشرطة تتولى الأمر برمته؟ سيكون ذلك أسهل لي بالتأكيد. إن إلقاء الأمور على غيرنا يوفر علينا إضاعة الوقت».

في الواقع، كنت في تلك اللحظة أفكر في شيء آخر. ذكرتني حجرة حراس الأمن الصغيرة هذه بمركز الشرطة في الجزيرة اليونانية. أفكار قادتني إلى التفكير في سوماير مباشرة، وحقيقة أنها اختفت.

استغرق التفكير في ما يحاول هذا الرجل أن يقوله بعض الوقت.

قالت أم «الجزرة» بنبرة رتيبة: «سأخبر والده وسأحرص على تلقينه أن السرقة من محل جريمة. أعدك بأن لا يزعجكم بعد اليوم».

قال حارس الأمن بصوت رتيب: «بعبارة أخرى لا تريدين تحويل المسألة إلى المحكمة. لقد كررت قول ذلك مراراً». نفض رماد سيجارته في المنفضة. التفت نحوي ثانية وقال: «لكن بالنسبة لي ثلاث مرات أكثر مما ينبغي. على أحد أن يضع حداً لذلك. ما رأيك بالموضوع؟»

أخذت نفساً طويلاً وعدت بأفكاري إلى اللحظة، إلى الدباسات الثماني وبعد ظهر يوم أحد من أيام أيلول/ سبتمبر.

أجبت: «لا يمكنني أن أقول شيئاً قبل أن أتحدث إليه. إنه صبي ذكي ولم يتسبب في أي إزعاج من قبل. لا أدري لماذا فعل شيئاً سخيفاً مثل هذا. لكن سأكرس له وقتاً لأفهم ما يجري. أقدم اعتذاري حقاً لكل المشاكل التي سببها».

قال الحارس عابساً خلف نظارته: «نعم، لكني لا أفهم.

الصبي - شينيشي نيمورا؟ هو في فصلك، أليس كذلك؟ ولذا فإنك تراه كل يوم، صحيح؟»

«صحيح».

«إنه في الصف الرابع، ما يعني أنه معك منذ سنة وأربعة شهور، أليس كذلك؟»

«نعم، هذا صحيح. أنا مسؤول عن فصله منذ أن كان في الصف الثالث».

«وكم تلميذاً لديك؟»

«خمسة وثلاثون».

«ويمكنك العناية بهم جميعاً. تقول لي إنك لم تلاحظ بتاتاً أن هذا الصبي سيتسبب بمشاكل. لا إشارة على ذلك؟»

«هذا صحيح».

«انتظر - كما نعلم، هو يسرق من المحلات منذ نصف سنة. ودوماً وحده. لا أحد يهدده ليفعل ذلك وليس الأمر ارتجالاً. كما أنه لا يفعل ذلك حباً في النقود. تقول أمه إنه يحصل على مصروف جيب كبير. يفعل ذلك لمجرد السرقة. بعبارة أخرى يعاني هذا الصبي من مشاكل. وأنت تخبرني أن لا إشارات على ذلك!»

أجبت: «أتكلم كمدرس هنا. لكن في حالة الأطفال، بشكل خاص السرقة من المحلات بشكل منتظم ليست جريمة. بل هو عمل ناجم عن عدم اتزان عاطفي دقيق. ربما

إذا أوليته مزيداً من الانتباه، قد ألاحظ شيئاً. من المؤكد أنني لم أقم بواجبي بشكل صحيح، لكن مع الأطفال الذين يعانون من مشاكل نفسية هناك دوماً شيء يمكن عمله. إذا فصلت هذا العمل عن كل شيء آخر وعاقبت الطفل، فلن تحل المشكلة الأساسية. وما لم تجد السبب الرئيس وعلاجه، فإن المشكلة نفسها ستطفو على السطح ثانية في شكل آخر. فكثيراً ما يحاول الأطفال تبليغ رسائل عن طريق السرقة من المحلات، حتى لو لم تكن تلك أنجع الطرق في معالجة المشكلة، ومن المهم تكريس الوقت للحديث عن هذه المشاكل».

سحق الحارس عقب سيجارته في المنفضة وحدّق فيَّ مليّاً بفم نصف مفتوح كما لو كنت حيواناً غريباً. وضع أصابعه السميكة على المكتب كما لو كانت مخلوقات صغيرة سوداء مكسوّة بالفرو. كلما نظرت إليها وجدت التنفس أصعب.

«هل هذا ما يعلمونكم إياه في الجامعة؟ في تدريب المعلمين أو مهما تدعوه؟»

«ليس بالضرورة. هذه أساسيات علم النفس. يمكنك أن تجدها في أي كتاب».

قال مكرراً كلماتي بكسل: «يمكنك أن تجدها في أي كتاب». أخذ منشفة يديه ومسح العرق عن رقبته السميكة.

«عدم اتزان عاطفي رقيق - ماذا يعني ذلك؟ عندما كنت شرطياً كنت أقضي النهار كله، ليل نهار، في التعامل مع شخصيات غير متزنة. لكن ليس هناك رقة في ذلك. العالم مليء بمثل هؤلاء، عشرة بالمئة من الناس. إذا قضيت وقتاً لأصغي لكل رسالة يبلغها هؤلاء سأكون بحاجة إلى عشرة أدمغة أخرى. وهذا لن يكفي».

تنهد وأعاد صندوق الدباسات إلى مكانه تحت المكتب.

«حسناً، أنت محق جداً. للأطفال قلوب نقية. العقاب البدني سيّئ. الناس متساوون، ولا يمكن الحكم عليهم من درجاتهم. خذ الوقت الكافي للحديث والعثور على حل. ليست عندي مشكلة في ذلك. لكن هل تعتقد أن العالم سيصبح مكاناً أفضل هكذا؟ لا يمكن. سيصبح الأمر أسوأ. كيف يمكن أن يكون الناس متساوين؟ لم أسمع عن شيء مثل هذا في حياتي. فكر في ذلك - 110 ملايين شخص كل يوم يشقون طريقهم، كل يوم، في اليابان. حاول أن تجعلهم متساوين. سيكون ذلك جحيماً».

«من السهل التفوّه بهذه العبارات المنمّقة. أغمض عينيك وتظاهر برؤية ما يدور وحوّل الملامة إلى شخص آخر. لا تُثِر المتاعب أنشد أغنية وسلم الأطفال شهاداتهم، وسيعيش كل الناس بسعادة. السرقة من المحل رسالة يبلغها الطفل. لا تقلق بخصوص ذلك لاحقاً. هذه أسهل طريقة، لذا، لم لا؟ لكن من سيعتني بالفوضى الناجمة؟ أناس مثلي. تظن أننا

نفعل ذلك لأننا نحب ذلك؟ على وجوهم نظرة تقول ما قيمة 6,800 يناً، لكن فكر في الناس الذين يسرقون منهم. مئات الناس تعمل هنا وعليك أن تصدق أنهم يفرّقون بجدية بين ين وآخر. عندما يقومون بجمع ريع الصندوق ويجدون فرق 100 ين، يعملون وقتاً إضافياً لإصلاح ذلك. هل تدري ما راتب السيدة التي تعمل هناك في الساعة؟ لم لا تعلم تلاميذك ذلك؟»

لم أقل شيئاً. كانت أم «الجزرة» صامتة وكذلك ابنها. تعب الحارس من الحديث فعاد وغاص في مقعده غارقاً في صمت مطبق. في حجرة أخرى رن جرس هاتف وأجاب شخص بعد رنة واحدة فقط.

سألت: «ما الذي علينا عمله؟»

قلت: «ما رأيك أن نعلقه بحبل من السقف رأساً على عقب حتى يقول آسف؟»

«أحب ذلك! لكن بالطبع تعرف أن كلينا سيغرق حتى أذنيه».

«حسناً، الشيء الوحيد الذي بإمكاننا فعله الصبر ومناقشة القضية بهدوء. هذا كل ما يمكنني قوله».

شخص من حجرة أخرى طرق الباب، دخل وسأل «سيد ناكامورا، هل يمكنك أن تعيرني مفتاح المخزن؟» بحث السيد

ناكامورا في درج مكتبه برهة فلم يجده.

قال: «لقد اختفى. هذا غريب. أحتفظ به دوماً هنا».

قال الرجل الآخر: «هذا مهم جداً. يجب أن أعرف!» بدا أن المفتاح مهم جداً من طريقة حديثهما، ربما لا يجب أن يكون موجوداً في درج. بحثوا في كل الأدراج فلم يجدوا شيئاً.

جلس ثلاثتنا هناك وهم يبحثون. نظرت أم «الجزرة» إليَّ مرتين بتوسل. جلس «الجزرة» كالسابق دون أي تعبير محدقاً في الأرض. جالت أفكار شاردة في ذهني.

استسلم الرجل الذي يبحث عن المفتاح وغادر الحجرة مغتاظاً.

«هذا كافٍ» قال السيد ناكامورا بصوت عديم النبرة ملتفتاً إلينا ثم أردف «شكراً لقدومكما. لقد انتهينا وسأترك ما تبقى لك ولأم الطفل، لكن كونا على يقين إذا فعل ذلك مرة أخرى، فلن يفلت بسهولة. هل فهمتما؟ أتمنى ذلك. لا أريد مشاكل هنا، لكن عليَّ القيام بوظيفتي».

هزت رأسها وكذلك فعلت. بدا «الجزرة» كأنه لم يسمع كلمة. وقفت وتبعني الاثنان.

قال الحارس وهو ما يزال جالساً ناظراً إليَّ: «ملاحظة أخيرة، أعلم أن ذلك فظ، لكن سأقول ذلك على أي حال. منذ أن وقعت عيني عليك علمت أن هناك شيئاً غير صحيح.

أنت شاب وطويل وتترك انطباعاً جيداً، وبشرتك لوحتها الشمس ومنطقي. كل ما تقوله لديه معنى. أنا على يقين أن والديّ التلميذ يحبانك جداً. لا أدري لماذا، لكن منذ أن رأيتك وشيء يضايقني. شيء لم أستطع هضمه. لا شيء شخصي، لذا لا تغضب. شيء يزعجني. أعجب ما هو ذلك الشيء؟»

قلت: «هل تمانع إذا طرحت عليك سؤالاً شخصياً؟»

«تفضل».

«إذا لم يكن الناس متساوين، فأين ستكون أنت؟»

أخذ السيد ناكامورا نفساً عميقاً من لفافته، هز رأسه وأخرج الدخان ببطء كما لو كان يجبر شخصاً على فعل شيء ما. أجاب «لا أعرف!»

«لا عليك، لن نتقاسم المستوى نفسه».

أوقفت سيارة التويوتا سيليكا في موقف عربات السوبرماركت. أخذتها جانباً بعيداً عن ابنها وأخبرتها أن تذهب إلى البيت وحدها.

قلت: «أحتاج للحديث مع ابنك وحدنا. سأجلبه إلى البيت لاحقاً». هزت رأسها. كانت على وشك أن تقول شيئاً، لكنها لم تفعل. ركبت السيارة، أخذت نظارتها من حقيبتها وأدارت المحرك.

بعد أن غادرت أخذت الجزرة إلى مقهى صغير منظره مسر رأيته في الجوار. استرحت في مكان مكيف وطلبت شاياً مثلجاً وآيس كريم للصبي. فتحت زر قميصي العلوي، خلعت ربطة العنق ووضعتها في جيب الجاكيت. بقي الجزرة صامتاً ولم يتغير تعبير وجهه ولا نظرته منذ مغادرتنا مكتب الأمن. بدا شاحباً تماماً كما لو أنه سيبقى كذلك فترة. وضع يدبه الصغيرتين في حجره ناظراً إلى الأرض محولاً وجهه عني جانباً. شربت الشاي المثلج ولم يلمس الجزرة الآيس كريم فذابت ببطء في الصحن، غير أنه لم يلاحظ. جلسنا متقابلين كزوجين يتقاسمان صمتاً مربكاً. بدت النادلة متوترة كلما مرت بجانبنا.

أخيراً قلت: «الأشياء تحدث»، لم أحاول أن أكسر الصمت، بل الكلمات خرجت هكذا.

رفع الجزرة رأسه ببطء والتفت نحوي. لم يقل شيئاً. أغمضت عيني وتنهدت وصمتّ برهة.

قلت: «لم أخبر أحداً بعد، لكن خلال العطلة الصيفية ذهبت إلى اليونان. تعرف أين اليونان، أليس كذلك؟ لقد شاهدنا شريط فيديو في درس الاجتماع، هل تذكر؟ في جنوب أوروبا قرب البحر الأبيض المتوسط. عندهم جزر كثير ويزرعون الزيتون. كانت ذروة حضارتهم قبل خمس مئة سنة قبل الميلاد، وسقراط تجرع السم ومات. ذهبت إلى

هناك. مكان جميل، لكني لم أذهب لقضاء وقت سعيد. صديقة لي اختفت في جزيرة يونانية صغيرة وذهبت للمساعدة في البحث عنها. لكننا لم نجد شيئاً. اختفت صديقتي بهدوء مثل الدخان».

فتح الجزرة فمه ناظراً إليَّ. كانت ملامحه ما تزال قاسية عديمة الحياة، غير أن وميض نور ظهر عليه. لقد استطعت إثارة اهتمامه.

«أحببت هذه الصديقة حقاً، حباً جماً. كانت أعز شخص عندي في الوجود. لذا أخذت طائرة إلى اليونان للمساعدة في البحث عنها، لكن ذلك لم ينجح. لم نجد شيئاً. وحيث إنني فقدت صديقتي، لم يعد عندي أصدقاء، ولا صديق واحد».

لم أكن أتكلم مع الجزرة بل مع نفسي وأفكر بصوت عالٍ.

«هل تدري ما أود عمله أكثر من أي شيء آخر الآن؟ أتسلق قمة مكان مرتفع كالأهرام. أعلى مكان يمكنني العثور عليه. حيث يمكنك رؤية أبعد مسافة ممكنة. أقف على القمة، أنظر حول العالم، أرى كل المشاهد وأشاهد بعيني ما ضاع من العالم. لا أدري... ربما لا أريد أن أرى ذلك. ربما لا أريد أن أرى شيئاً على الإطلاق».

جاءت النادلة وأخذت صحن الجزرة الذائب وتركت الفاتورة.

أشعر كأني وحيد منذ أن كنت طفلاً. لدي والداي وأختي التي تكبرني في بلدتنا، لكني لا أنسجم معهم. لم يمكنني التواصل مع أي شخص في عائلتي. لذا أتصور دوماً أنني مُتَبَنّى ولسبب ما أعطاهم إياي قريب بعيد، أو ربما حصلوا عليَّ من دار أيتام. الآن أدرك كم سخيفة كانت هذه الفكرة. والداي ليسا من النوع الذي يتبنى أحداً. على أي حال، لم أقدر على تقبّل حقيقة أني على صلة دم بهؤلاء. كان أسهل عليَّ التفكير أنهم غرباء تماماً.

تخيلت بلدة بعيدة فيها بيت تعيش فيه عائلتي. مجرد بيت متواضع، لكنه رحب وفيه دفء حيث الجميع فيه متفاهمون ويقولون ما يشعرون به. في المساء يمكنك سماع أمي في المطبخ وهي تحضر العشاء وهناك رائحة شهية دافئة. أنا من هناك. أتصور دوماً ذاك المكان في ذهني وأنا جزء منه.

في الحياة الحقيقية، لدى عائلتي كلبٌ وهو الوحيد الذي انسجمت معه. كان كلباً مهجناً لكنه ذكي، حين تعلمه شيئاً لا ينساه أبداً. كنت آخذه كل يوم للخارج حيث نذهب إلى الحديقة العامة. أجلس على مقعد وأكلمه في كل الأمور. فهمنا بعضنا بعضاً. كانت تلك أسعد لحظات طفولتي. عندما كنت في الصف الخامس ضربت شاحنة كلبي قرب بيتنا وقتلته. لم يسمح لي والداي بشراء واحد آخر، لأنه مزعج وقذر ويسبب المشاكل، كما قالا لي.

بعد موت كلبي مكثت في حجرتي طويلاً أقرأ الكتب.

بدا العالم في الكتب أكثر حيوية من أي شيء في الخارج. كان بإمكاني رؤية أشياء لم أشاهدها قط من قبل. الكتب والموسيقى كانا أفضل صديقين. كان لدي صديقان مقربان في المدرسة، لكني لم أقابل قط من يمكنني الحديث معه عما في قلبي.

كنا نتحدث في أمور صغيرة ونلعب كرة القدم معاً. حين يزعجني شيء لا أتكلم عنه مع أي شخص، بل أفكر فيه وحدي، متأملاً، حتى أصل إلى نتيجة وأتصرف. لا يعني ذلك أني كنت وحيداً. حسبت أن الأمور كذلك. على البشر في التحليل الأخير أن يعيشوا وحدهم.

حين دخلت الجامعة، صارت عندي صديقة، هي التي أخبرتك عنها وبدأ تفكيري آنذاك في التغير. أدركت أن التفكير وحدي طويلاً كان يكبلني ويجعلني أحادي النظرة. بدأت أشعر أن كوني وحيداً أمر مروع.

يشبه كوني وحيداً الشعور الذي ينتابك حين تقف على مصب نهر وتراقب المياه تتدفق في البحر. هل سبق لك وأن فعلت ذلك؟ أن وقفت على مصب نهر ضخم وراقبت المياه وهي تصب في البحر؟»

لم يجب.

قلت: «أنا فعلت».

وعيناه مفتوحتان على وسعهما نظر الجزرة في وجهي.

«ليس بوسعي القول لماذا ينتابنا هذا الشعور بالوحدة عند مشاهدة ماء النهر يمتزج بماء البحر. لكن هذا صحيح. ينبغي أن تحاول ذلك مرة».

أخذت جاكيتتي والفاتورة ووقفت ببطء. وضعت يداً على كتف الجزرة فوقف أيضاً، وغادرنا المقهى.

استغرق السير إلى بيته ثلاثين دقيقة. سرنا معاً ولم أنبس بكلمة.

كان بجانب بيته نهر صغير فوقه جسر من الاسمنت. نهر ضحل حقاً أشبه بمصرف ماء وسع قليلاً، منه بنهر. حين كانت هنا مزارع في المنطقة، لا بد أنه كان يستعمل في الري. الآن المياه غير صافية وفيها رائحة مادة مطهرة خفيفة، ونبتت أعشاب صيفية في قعر النهر وكتاب رسوم هزلية ملقى مفتوحاً في الماء. وقف الجزرة في منتصف الجسر واتكأ على حد الحاجز وحدق في الأسفل. وقفت بجانبه ونظرت إلى الأسفل أيضاً. وقفنا هناك مدة طويلة ربما لم يود العودة إلى البيت وأنا تفهمت ذلك.

وضع الجزرة يده في جيب بنطاله وأخرج مفتاحاً وقدمه لي. كان مفتاحاً عادياً مربوطاً بوَصْلَةٍ حمراء ضخمة كتب عليها المخزن 3. مفتاح المخزن الذي كان ناكامورا الحارس

يبحث عنه. لا بد أن الجزرة كان قد تُرك وحده في الحجرة فترة ووجده في الدرج ثم وضعه في جيبه. كان تفكير هذا الصبي لغزاً أكبر مما تصورت. كان بالفعل طفلاً غريباً.

أخذت المفتاح ووضعته في راحة يدي. كان بإمكاني الإحساس بوزن الناس الذين لا حصر لهم ممن استخدموه لدخول الحجرة. دهشت لتفكيره المرعب البائس القذر والضيق . ارتبكت لحظة قبل أن ألقي بالمفتاح في النهر. أحدث طرطشة صغيرة. لم يكن النهر عميقاً لكن المياه غير نظيفة فاختفى المفتاح عن الأنظار. وقفنا على الجسر متحاذيين ورحنا نحدق في الماء بعض الوقت. شعرت بالبهجة وبأنّ جسدي أخف.

قلت لنفسي أكثر مما قلت له: «لقد تأخر الوقت على إرجاعه. أنا متأكد أن لديهم مفتاحاً آخر، فهذا ثمين على أي حال».

مددت يدي فأمسك الجزرة بها برفق. أحسست بأصابعه الرقيقة النحيلة بين أصابعي. شعور أحسست به في مكان آخر - أين يمكن أن يكون ذلك؟ منذ أمد بعيد طويل. أمسكت بيده وسرنا صوب بيته.

كانت أمه في انتظارنا وقد بدلت ملابسها بقميص أبيض صغير قصير الأكمام وتنورة بثنيات. كانت عيناها حمراوين

ومنتفختين. لا بد أنها بكت وحدها بعد عودتها طويلاً. كان زوجها يدير وكالة عقارات في المدينة ويكون يوم الأحد إما في العمل أو يلعب الجولف. طلبت من الجزرة أن يذهب إلى حجرته في الطابق الأول ولم تأخذني إلى حجرة الاستقبال بل إلى المطبخ حيث جلسنا حول طاولة. ربما كان أسهل علينا أن نتحدث هناك. كان في المطبخ ثلاجة خضراء ضخمة ومكان كجزيرة في الوسط ونافذة تدلف منها الشمس تواجه الشرق.

قالت بوهن: «يبدو أفضل قليلاً مما كان. أول ما رأيته في حجرة الأمن لم أدر ما أفعل. لم يسبق لي أن رأيته هكذا. كان كمن يوجد في عالم آخر».

«لا داعي للقلق. امنحيه بعض الوقت وسيعود طبيعياً. في الوقت الراهن يُفَضَّل أن لا تقولي له شيئاً. اتركيه في حاله».

«ماذا فعلتما بعدما غادرت؟»

قلت: «تكلمنا».

«عن ماذا؟»

«ليس كثيراً. قمت بمعظم الحديث. لا شيء محدداً حقاً».

«هل تود أن تشرب شيئاً بارداً؟»

هززت رأسي.

قالت: «ليست لدي فكرة كيف أتكلم معه، وهذا الشعور يزداد وينمو».

«لا داعي لإجبار نفسك على الحديث معه. الأطفال لهم عالمهم الخاص. عندما يريد الكلام سيفعل».

«لكنه بالكاد يتكلم».

كنا حذرين أن لا يمسّ واحدنا الآخر ونحن نجلس متقابلين على طرفي المنضدة. كان حديثنا متوتراً، من ذاك النوع الذي توقعه بين مدرس وأم يناقشان فيه مشكلة ابنها. كانت تلعب بيديها أثناء الحديث وتلوي أصابعها وتمدها وتقبض على يديها. فكرت في ما تفعله هاتان اليدان في الفراش.

أخبرتها أني لن أخبر المدرسة بما حصل. لقد تحدثت معه حديثاً جيداً وإذا حدثت أي مشكلة سأهتم بها. لذا لا تقلقي، إنه طفل ذكي وطيب. امنحيه بعض الوقت وسيهدأ. هذه مرحلة يمر بها. المهم أن تكوني هادئة. كررت ذلك ببطء وهدوء. بدا أن ذلك يريحها. قالت إنها ستوصلني إلى شقتي في كوينتاشي بعربتها.

سألتني عندما وقفنا عند إشارة المرور: «هل تعتقد أن ابني أحس بما يجري؟» ما عنته بالطبع هو ما كان بيننا.

هززت رأسي: «لماذا تقولين ذلك؟»

«عندما كنت وحيدة في البيت في انتظار عودتكما خطرت الفكرة على بالي. مجرد شعور لا أكثر. إنه يدرك بالحدس وأنا على يقين أنه لاحظ أني وزوجي غير متفاهمين».

كنت صامتاً، وهي لم تقل المزيد.

* * *

أوقفت عربتها في موقف السيارات خلف تقاطع الشوارع بقليل حيث توجد العمارة التي أسكنها. رفعت كابح اليد وأوقفت المحرك. أحدث فرقعة وخمد. ومع عدم وجود صوت المكيف خيّم صمت غير مريح على العربة. عرفت أنها تريدني أن أضمها بين ذراعي في التو واللحظة. فكرت في جسدها اللدن تحت قميصها فجف فمي.

قلت: «فكرت في الأمر ملياً. لا أعتقد أني جزء من المشكلة ولا يمكنني أن أكون جزءاً من الحل. ذلك أفضل للجميع».

«الجميع؟»

«خاصة بالنسبة لابنك».

«وأنت أيضاً؟»

«نعم، بالطبع».

«وماذا عني؟ هل هذا يشملني؟»

أردت أن أقول نعم لكني لم أستطع نطق الكلمة.

خلعت نظارتها وأعادتها ثانية.

قالت: «ليس من السهل عليَّ قول ذلك، لكن إذا لم أستطع رؤيتك ثانية فسيكون ذلك صعباً بالنسبة لي».

«سيكون صعباً بالنسبة لي أيضاً. أتمنى لو باستطاعتنا الاستمرار على ما نحن عليه. لكن ذلك ليس صحيحاً».

أخذت نفساً عميقاً وقالت: «ما الصحيح، قل لي؟ لا أعرف حقاً ما الصحيح. أعرف الخطأ، لكن ما هو الصواب؟»

لم أملك جواباً شافياً.

بدا أنها ستبكي أو تنتحب، لكنها تماسكت. قبضت على مقود العربة بشدة حتى احمرّ ظاهر كفّيها.

قالت: «حين كنت أصغر كان الناس جميعاً يتحدثون معي ويخبرونني بكل الأشياء، قصص رائعة جميلة غريبة. بعد تجاوز مرحلة معينة لم يعد أحد يتكلم معي. لا أحد، ولا حتى زوجي وابني وأصدقائي... لا أحد، كما لم يعد هناك شيء في العالم نتحدث عنه. أحياناً أشعر أن جسدي يختفي كما لو يمكنك أن ترى من خلاله. لن تفهم ما أحاول أن أقوله».

بحثت عن الكلمات المناسبة، غير أني لم أجد شيئاً.

«شكراً جزيلاً على ما فعلته اليوم» قالت وقد تماسكت

ثانية. عاد صوتها إلى سابق عهده إلى حد ما ونبرته هادئة. «لا أعتقد أنه كان بإمكاني معالجة المسألة وحدي. ذلك في غاية الصعوبة بالنسبة لي. وجودك ساعدني كثيراً وأنا شاكرة لك. أعلم أنك ستصبح مدرساً ممتازاً، أنت كذلك الآن تقريباً».

هل قصدت من ذلك أن يكون سخرية؟ ربما. كلا - بالتأكيد.

قلت: «ليس بعد». ابتسمت قليلاً وانتهى حديثنا.

فتحتُ باب العربة وخرجت. كانت شمس بعد ظهر يوم الأحد الصيفي ذاك تبهت بشكل ملحوظ. وجدت صعوبة في التنفس وشعرت أن ساقيّ غريبتان أثناء وقوفي هناك. عاد محرك السيليكا إلى الحياة وقادت عربتها بعيداً عن حياتي إلى الأبد. فتحت زجاج نافذة عربتها ورفعت يدها مودعة، وأنا رفعت يدي مودعاً.

خلعت قميصي المبتل بالعرق بعد عودتي للشقة وألقيت به في آلة الغسيل. استحممت وغسلت شعري. عدت إلى المطبخ وأنهيت تحضير وجبتي التي كنت قد تركتها، وتناولتها. غصت بعد ذلك في أريكتي ورحت أقرأ كتاباً كنت قد شعرت برغبة في قراءته. لم أستطع قراءة سوى خمس صفحات. أغلقت الكتاب وفكرت في سوماير ومفتاح

المخزن الذي ألقيته في الماء الآسن ويدي صديقتي الممسكتين بالمقود. كان يوماً طويلاً وانتهى أخيراً مخلفاً ذكريات متشتتة. أخذت حماماً طويلاً لكن جسمي بقي مشبعاً برائحة التبغ، وما زال في يديّ إحساس حاد كما لو سحقت الحياة بشيء ما.

هل فعلت ذلك بشكل صحيح؟

لا أظن ذلك. فعلت ما هو ضروري لي. ثمة فرق كبير. الجميع؟ سألتني. هل ذلك يشملني؟

في الواقع لم أفكر في أي شخص آنذاك. كنت أفكر في سوماير فقط. ليسوا جميعاً هناك، أو كلنا هنا.

سوماير فقط، التي لم تكن في أي مكان.

16

لم تصلني كلمة من ميو منذ اليوم الذي ودعنا فيه بعضنا بعضاً في الميناء. بدا ذلك غريباً حيث إنها وعدت بالاتصال سواء كانت هناك أخبار عن سوماير أو لا. لم يكن بإمكاني تصديق أنها نسيتني، إذ إنها ليست من النوع الذي يقطع وعداً ولا يفي به. لا بد أن هناك ما يمنعها من الاتصال بي. فكرت في الاتصال بها، لكني لم أعرف حتى اسمها الحقيقي ولا اسم شركتها ومكانها. وفق ما قالته لم تترك سوماير أي خيط قوي يهدي إليها.

ما زال هاتف سوماير يبث الرسالة الصوتيّة نفسها، لكنه قطع بعد حين. فكرت في الاتصال بعائلتها، غير أني لم أكن أعرف رقم هاتفهم وإن لم يكن من الصعب العثور على عيادة الأسنان حيث يعمل والدها في دليل هاتف يوكوهاما. لسبب ما لم أقدم على هذه الخطوة. عوض ذلك، ذهبت إلى المكتبة وبحثت في صحف شهر أغسطس. كان هناك مقال صغير حولها، اختفاء فتاة يابانية في الثانية والعشرين في

اليونان. تحقق السلطات المحلية وتبحث عنها، دون نتيجة إلى الآن. هذا كل شيء. لا شيء جديداً لم أعرفه. يبدو أن عدداً من المسافرين للخارج يختفون وكانت هي واحدة منهم.

توقّفت عن متابعة الأخبار. مع ذلك ومهما كانت أسباب اختفائها كان التحقيق يتقدم وشيء واحد مؤكد. إذا عادت سوماير فإنها ستتصل، هذا الشيء الوحيد المهم.

جاء سبتمبر وانصرم وانقضى الخريف وحلّ الشتاء. يصادف السابع من نوفمبر عيد ميلاد سوماير الثالث والعشرين، والتاسع من ديسمبر عيد ميلادي الخامس والعشرين. جاءت السنة الجديدة وانتهت السنة الدراسية. لم يتسبب الجزرة في أي مشاكل جديدة ورُفّع إلى الصف الخامس، صف جديد. لم أتكلم معه قط عن السرقة من المحلات التجارية بعد ذلك اليوم، وكنت كلما رأيته أعلم أن ذلك غير ضروري.

وحيث إن لديه مدرّساً جديداً الآن، كنت نادراً ما أصادف صديقتي القديمة. لقد انتهى كل شيء. لكن أحياناً يعود إليَّ الحنين لدفء بشرتها وأكاد أتصل بها. ما كان يمنعني من ذلك هو الشعور بأن مفتاح مخزن السوبرماركت ما زال في يدي، والتفكير ببعد ظهر ذلك اليوم الصيفي ويد الجزرة الصغيرة في يدي.

لم أستطع عدم التفكير أن الجزرة كان طفلاً غريباً كلما

رأيته في المدرسة. لم تكن لدي فكرة عما ينخمر من أفكار خلف هذا الوجه النحيل الهادئ. لكن شيئاً كان بالتأكيد يجري تحت هذه القشرة الخارجية الهادئة. وإذا توفر دافع فسيسخره للقيام بعمل ما. كنت أشعر بإحساس عميق يكتنفه. اعتقدت أن إعلامه بالمشاعر التي في باطني تصرف صحيح بالنسبة له ولي، ربما أكثر من أجلي. من الغريب البوح بذلك لكنه فهمني آنذاك وقبلني وحتى سامحني إلى حد ما على الأقل.

استيقظت في منتصف الليل وغادرت الفراش (لم أقدر على النوم بأية حال). استلقيت على الأريكة واستعدت ذكريات الجزيرة اليونانية الصغيرة وأنا أستمع إلى شفارزكوبف. استرجعت كل حدث مقلباً صفحات الذكرى بهدوء. الشاطئ المهجور الجميل، المقهى الخارجي في الميناء، قميص النادل المبتل بالعرق، وجه ميو الجميل ومياه البحر الأبيض المتوسط المتلألئة عند النظر إليها من الشرفة. البطل المسكين الواقف المحاط بسياج في وسط المدينة، والموسيقى اليونانية التي سمعتها من قمة الجبل تلك الليلة. استرجعت الإحساس بالغربة التي شعرت بها عندما أيقظتني الموسيقى. كان ألم منتصف الليل عديم الشكل يحيط بي بصمت وقسوة كجسدي. أغمضت عيني لحظة وأنا مستلق برهة ثم فتحتهما. أخذت شهيقاً وأطلقت زفيراً بصمت. بدأت فكرة تتشكل في ذهني، لكن في النهاية لم أفكر في

شيء. لا يعني هذا أن هناك فرقاً بين التفكير وعدم التفكير. وجدت أنه لم يعد بإمكاني التمييز بين شيء وآخر، بين الأشياء الموجودة وغير الموجودة. نظرت خارج النافذة حتى صارت السماء بيضاء والسحب تعبر هائمة والطيور تزقزق ويوم جديد يشرق جامعاً العقول النائمة لقاطني الكوكب.

لمحت ميو مرة وسط طوكيو. كان ذلك عقب اختفاء سوماير بستة أشهر، في يوم أحد من منتصف شهر. كانت السحب تغطي السماء ويبدو أنها ستمطر في أي لحظة. الجميع يحملون المظلات. كنت في طريقي لزيارة بعض الأقارب الذين يعيشون وسط المدينة وتوقفت عند إشارة مرور في هيرو عند تقاطع شوارع قرب محل ميدي-يا، حين شاهدت سيارة جكوار زرقاء نيلية تشق طريقها في الزحام الكثيف. كنت في عربة أجرة والجكوار في الخط الكائن على يساري. لاحظت السيارة لأن السائق كان امرأة بشعر أبيض مذهل معقود فوق الرأس. كان شعرها من بعيد صارخاً على خلفية السيارة الزرقاء الفارهة. كنت قد رأيت ميو بشعر أسود فقط، لذا استغرق بعض الوقت لجمع ميو هذه وميو التي أعرفها. لكن من المؤكد أنها كانت ميو، جميلة كما أذكر، نادرة الفتنة والروعة. كان شعرها الأبيض المذهل يبعد المرء عنه قليلاً ويتسم بمسحة سحرية قوية إلى حد ما.

مع ذلك لم تكن ميو التي أمامي المرأة التي لوحت لها

بيدي مودعاً في ميناء الجزيرة اليونانية. لم يمض سوى نصف سنة على ذلك لكنها بدت كشخص آخر. طبعاً كان لون شعرها قد تغير، لكن هذا لم يكن كل ما في الأمر.

صَدَفَةٌ فارغة. كانت تلك أول الكلمات التي جالت في ذهني. كانت ميو كحجرة خاوية غادرها الجميع. اختفى شيء في غاية الأهمية - الشيء الذي شدني إلى سومايز مثل إعصار - هز قلبي وأنا أقف على سطح السفينة، اختفى من ميو إلى الأبد. لم يخلف خلفه حياة بل صمت ذكرى. جعلني شعرها الأبيض تماماً دون مناص. أتخيل لون العظام البشرية وقد بيّضها مرور الزمن. لم أستطع لبعض الوقت إخراج الزفير.

كانت سيارة الجكوار التي تقودها ميو تسبق عربة الأجرة التي أركبها أحياناً وتتأخر عنها أحياناً أخرى، لكن ميو لم تلاحظ أني كنت أراقبها عن كثب. لم أستطع أن أنادي عليها، لم أدر ما أقول، حتى لو عرفت كانت نوافذ الجكوار مقفلة وميو تجلس منتصبة، يداها على المقود وكل انتباهها مركز على المشهد أمامها. ربما كانت تفكر بعمق في مسألة ما، أو ربما كانت تستمع إلى قطعة من «فن الفوغو» التي يبثها جهاز ستيريو سيارتها. لم تتغير ملامحها القاسية المتجمدة طوال الوقت وبالكاد رمش لها جفن. أخيراً تحول الضوء إلى الأخضر، أسرعت الجكوار في اتجاه أوياما تاركة عربة الأجرة في الخلف ثم انعطفت عربة الأجرة إلى اليمين.

هكذا نعيش حياتنا مهما كان عمق وخطورة الخسارة، ومهما كانت أهمية ما يسرق منا - الذي يخطف مباشرة من بين أيدينا - حتى لو تُركنا كبشر متغيرين ولم يبق لنا مما كان قبلاً سوى طبقة من البشرة الخارجية، فإننا نستمر في العيش على هذه الطريقة بصمت. ندنو كثيراً من الوقت المخصص لنا، نودعه أثناء جرجرته خلفنا، مكررين، وغالباً ببراعة، أعمال الحياة اليومية غير المتناهية مخلفين شعوراً بفراغ غير قابل للقياس.

بالرغم من عودتها لليابان، لم تستطع ميو الاتصال بي لسبب ما. عوض ذلك لزمت صمتها وحافظت على ذكرياتها باحثة عن مكان ناءٍ دون اسم لابتلاعها. هذا ما تصورته. لم أشعر بلوم نحو ميو، ناهيك عن كرهها.

كانت الصورة التي خطرت على الذهن في تلك اللحظة للتمثال البرونزي لوالد ميو في القرية الجبلية في كوريا الشمالية. كان بإمكاني تخيل ساحة البلدة الصغيرة والبيوت المنخفضة المعلقة والتمثال البرونزي المغطّى بالغبار. تهب الريح هناك بقوة، تثني الشجر في أشكال سريالية. لا أدري لماذا؟ لكن التمثال البرونزي وميو، يداها على مقود الجكوار، ذابا معاً في ذهني.

في مكان بعيد، ربما ضاع كل شيء بهدوء، أو على الأقل يوجد مكان صامت حيث بإمكان كل شيء أن يختفي

ويصاغ معاً في شكل واحد متداخل. نكتشف ما فقد أثناء عيشنا، ساحبين نحونا الخيوط الرفيعة المتصلة بكل منها. أغمضت عيني وحاولت استرجاع أكبر عدد ممكن من الأشياء الجميلة المفقودة قدر الإمكان. نقربها ونتمسك بها مع علمنا طوال الوقت أن حياتهم زائلة.

أحلم. أحياناً اشعر أن هذا الشيء الوحيد الصحيح الذي يمكن عمله. أن تحلم، أن تعيش في عالم الأحلام - كما قالت سومايرِ. لكن ذلك لا يبقى إلى الأبد، ويأتي الأرق دوماً ليعيدني منه.

استيقظت في الساعة الثالثة صباحاً، أضأت النور، جلست ونظرت إلى الهاتف المحاذي لسريري. تصورت سومايرِ في كشك الهاتف، تشعل سيجارة وتضغط بعقبها أزرار رقم هاتفي. شعرها أشعث وترتدي معطف رجل فضفاضاً وجوارب لا تنسجم مع ملابسها. عبست، سعلت قليلاً بسبب الدخان. استغرقها إكمال أرقام هاتفي بشكل صحيح وقتاً طويلاً. كان رأسها مليئاً بأشياء عدة تريد أن تخبرني بها. يمكنها الحديث حتى الفجر، من يدري؟ حول الفرق بين الرموز والدلالات - يبدو هاتفي كما لو أنه سيرن في أي دقيقة الآن. لكنه لم يرن. استلقي وأحدق في الهاتف الصامت. لم يرن مرة. أمامي مباشرة رن حقاً، جاعلاً جو

العالم الحقيقي يهتز ويرتجف. أمسكت بالسماعة؟

«هالو؟»

قالت سوماير بتلقائية «مرحباً، واجهت صعوبات وتجارب مريرة، لكني عدتُ أخيراً؛ مثل هذا ينطبق أيضاً على تلخيص «أوديسة» هوميروس في خمسة سطور».

قلت «هذا جيد». لم أصدق بعد أن بمقدوري سماع صوتها، حقيقة أن هذا يحدث فعلاً.

قالت سوماير وكان بإمكاني سماع عبوسها إلى حد ما «هذا جيد! لقد مررت بجحيم لعين. سأخبرك عن الصعاب التي مررت بها. ملايين الصعاب. لن أنتهي لو حاولت شرحها كلها - كل ذلك للعودة هنا، وهذا كل ما يمكنك قوله؟ أظن أني سأبكي. إذا لم تكن عودتي جيدة، أين سأكون؟ - هذا جيد - لا أصدق ذلك! وفّر هذه الملاحظة اللطيفة الطيبة الذكية لتلاميذك في المدرسة عندما ينجحون أخيراً في حفظ جدول الضرب!»

«أين أنت الآن؟»

«أين أنا؟ أين تظن؟ في كشك هاتفنا القديم الوفي، كشك الساحة الصغير المزري المعلقة فيه إعلانات شركات القروض المتغطرسة والخدمات. نصف قمر ترابي اللون معلق في السماء وأرض الكشك مليئة بأعقاب السجائر. لا شيء يفرح القلب على مدى البصر. كشك هاتف قابل

للتبديل متعلق تماماً بالعلامات. وعليه، أين هو؟ لست متأكدة. كل شيء متعلق بالعلامات وأنت تعرفني، أليس كذلك؟ لا أدري أين أنا معظم الوقت. لا يمكنني تقديم توجيهات. حسناً. يصرخ سائقو عربة الأجرة بي دوماً: «أيتها السيدة، إلى أين بحق السماء تودين الذهاب؟» «لست بعيدة. أظن ربما قريبة جداً».

«سآتي إليك».

«أحب ذلك. سأجد أين أنا وأتصل بك. لقد شارفت قطع النقد التي معي على الانتهاء. على أي حال انتظر قليلاً».

قلت: «أود أن أراك حقاً».

قالت: «وأنا كذلك، أود أن أراك. أدركت ذلك عندما لم يعد بإمكاني رؤيتك. كان جلياً كما لو أن كل الكواكب اصطفت فجأة في خط من أجلي. كما تعلم في مكان ما لست متأكدة أين، أعتقد أني ذبحت شخصاً من رقبته. وأنا أشحذ سكيني كان قلبي كالحجر. رمزياً، مثل بناء بوابة في الصين، هل تفهم ما أقول؟»

«أعتقد ذلك؟»

«إذاً تعال وخذني».

فجأة قطع الهاتف. حدقت في السماعة وأنا أمسك بها مدة طويلة. كالهاتف نفسه تحتوي بعض المكالمات المهمة

على شكلها ولونها وعلى معنى خفي. علقت السماعة. جلست في الفراش وانتظرت الهاتف أن يرن. اتكأت على الحائط وركزت على نقطة في الفراغ الكائن أمامي وتنفست ببطء دون صوت، مؤكداً على أن الصلات تربط لحظة زمنية بالتالية. لم يرن الهاتف. خيم صمت مطبق على الجو، لكني لم أكن في عجلة من أمري. ليست هناك حاجة للسرعة. أنا مستعدّ ويمكنني الذهاب إلى أي مكان.

أليس كذلك؟

طبعاً، بلى!

غادرت الفراش. أزحت الستارة الشاحبة جانباً وفتحت النافذة. أخرجت رأسي عبرها ورفعت بصري إلى السماء. بالتأكيد كان هناك نصف قمر ترابي اللون معلق في السماء. جيد. كلانا ينظر إلى القمر نفسه في العالم عينه. كلانا مرتبط بالواقع بالخيط نفسه. كل ما عليَّ فعله سحبه بهدوء صوبي.

فتحت أصابع يدي وحدقت في راحتَيَّ بحثاً عن آثار دم. لم أجد شيئاً. لا رائحة دم، ولا بقع ولا تجلّط. لابد أن الدم، وبطريقته الصامتة الخاصة، تسرب داخلهما.

هاروكي موراكامي

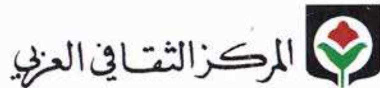
سبوتنيك الحبيبة

يعدّ هاروكي موراكامي أشهر الروائيين اليابانيين المعاصرين، وتتصدر رواياته قوائم الروايات الأكثر مبيعاً، ليس في اليابان فقط، بل في العديد من دول العالم، وتترجمها وتنشرها كبريات دور النشر العالمية.

في هذه الرواية، كما في معظم أعماله، يدخل موراكامي إلى عالم العلاقات الحميمة في الحياة المعاصرة. بجاذبية طريقته في القص يجعلنا نعيش وقائع الروائية كما لو أنها قريبة منا، شخصياتها موجودة بيننا.

" الرواية ليست شيئاً من هذا العالم. تتطلب الرواية نوعاً من التعميد السحري لربط هذا العالم بالعالم الآخر"

هكذا يقول موراكامي على لسان بطل الرواية، وهكذا هي هذه الرواية. تربط هذا العالم بعالم سحري، يفتح أمام القارئ أبواباً للخيال والسحر.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma cca_casa_bey@yahoo.com